AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

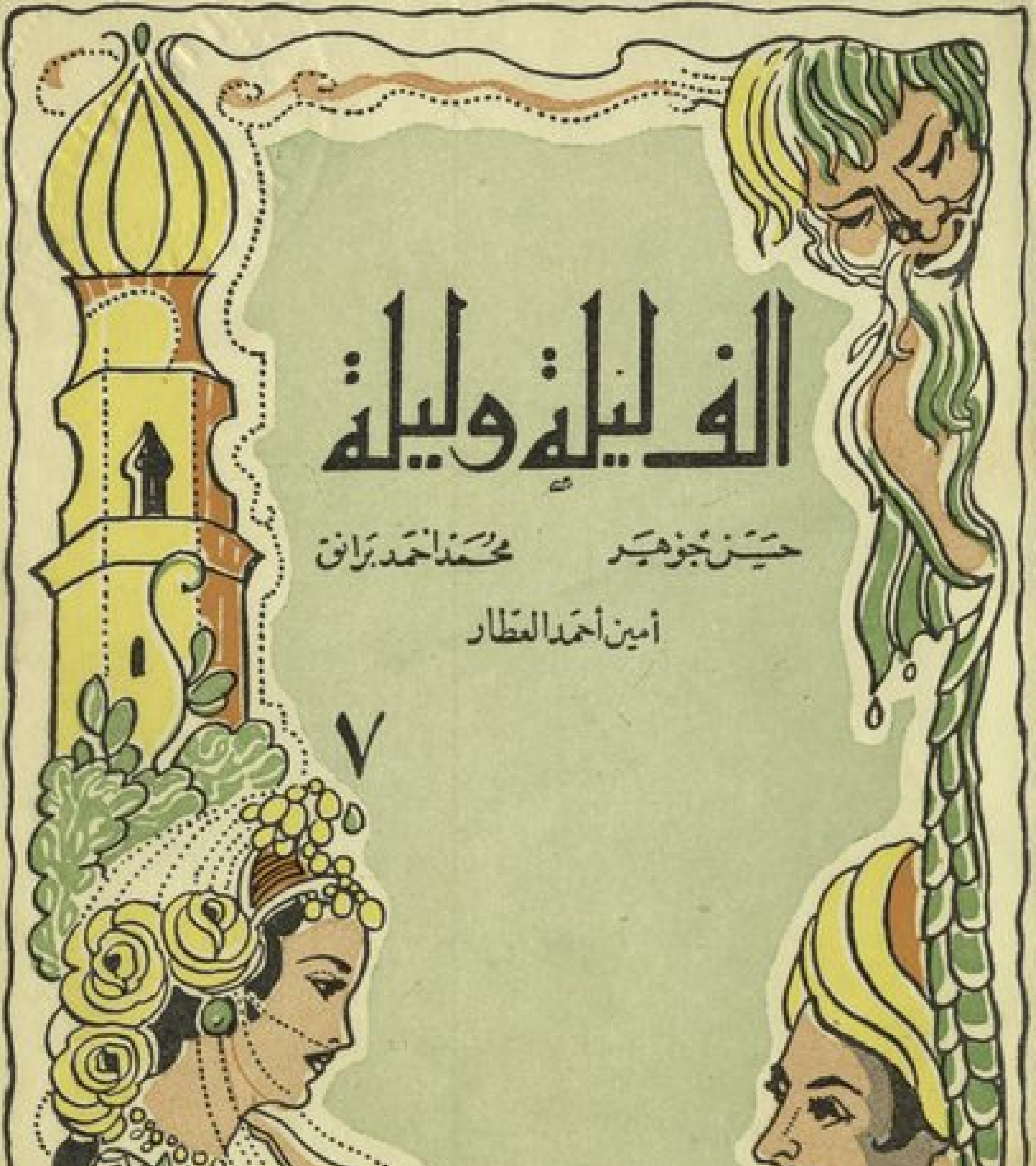

ألف ليلة وليلة

حسين جوهر محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

٧

دار المعارف بمصر

الف ليلة وليلة

غانم بن أيوب

(١)

غانمُ بنُ أيوبَ فتىً وسيمٌ، جميل الطلعة، حسَنُ الهيئة؛ له أختٌ بارعةُ الجمال، رشيقة، ممشوقةٌ، لها طلعة البدرِ، خفيفةُ الروح، حُلوة النكتة، لطيفةُ الحديث، حسَنةُ المعشر؛ بها فتْنَة. وغانمٌ وأخته فتنةُ كان أبوهما من كبارِ التجار، ومشهوريهم؛ كان يرسلُ تجارتَه إلى الهند والسند والصِّين والعراق ومصر، فيُقبِلُ الُحرفاء عليها، ويدفعونَ ثمنَها، ويعودُ عليه منها ربحٌ كبيرٌ.

ولما تُوفي هذا الرجلُ ترك لابنه وابنته مالًا كثيراً، وتجارةً رابحة.

وعند وفاتِه كان قد ترك من جُملة ما ترك أحمالًا من الخزّ والدِّيباج،

ونَوافِجِ المسكِ مُحزَّمَةً ومُعدَّةً للتَّصدير، ومختومٌ عليها برَسْم بغدادَ.

فلما انقضت أيامُ العزاء والحداد، عزَم الفتى غانم بنُ أيوبَ على السفرِ بهذه الأحمال التى كان فى نيةِ أبيه السفرُ بها قبل أن تدركَه منيتُه للاتجارِ فيها.

فودَّع أمَّهُ وأختَه، وخرجَ بتجارتِه متوكِّلًا على الله، بِصُحبةِ جماعةٍ من التُّجَّار.

وكُتِبَت لهمُ السلامة، فوصلوا إلى بغداد سالمين، ولم يَحدُث لهم، ولا لتجارتِهم سوء.

فاستأجرَ غانمٌ له داراً حسنةً، لها فِناء واسعٌ رحيب، اتخذَه مخزناً لتجارتِه، وأنزَل فيه الأحمال، وفَرَش بعض الغُرف التى فى صَدر الدارِ بالبُسُط، وصَفَّ بجانب حِيطانِها الأرائكَ؛ واتخذَ من الغُرَف الدَّاخلةِ أماكنَ لنومِهِ هُو وأتباعِه.

ولما استراحَ من عَناء السفر، ونَفَضَ عنه وعْثاءهُ، وانقضَّ من استِقبال وُفود التجار المهنئين له بِسلامةِ الوُصول، عَمَدَ إلى تجارتِه، وحَلَّ أحزمَتَها، واستخرَج من كل صِنف شيئًا؛ وحمله هو وأتباعه، وخرَجوا جميعاً إلى سوق التُّجار. ولما وصَل إلى السوق تلقَّاه التجارُ بالترحيبِ والإكرام، وأنزَلوهُ فى دُكَّان شيخ السوق، فأخذَ هذا منه بِضاعَته، وعَرضَها للبيع، فتهافَتَ عليها الشارون، وتنافسوا فى شِرائها فبِيعت بضِعف ما كان يُقدَّرُ لها من ثمن. ففَرِح غانمٌ بهذا الربح الوفير.

وصار يأتى كلَّ يوم إلى شيخ السوق ببضاعتِه ، فتُباعُ فى الحال .

وذات يومٍ . حضرَ غانمٌ إلى السوق على عادتِه ، فوَجدَ بابَها مُغلقاً ، فاستعجب لذلك واستَفهمَ عن السبب ؛ فقيل له : إن أحدَ التجّار الكبار قد توفاهُ الله ، وذهب جميعُ تجار السُّوقِ لتشييع جنازتِه ، فسأل عن مكان الجِنازة ، فأرشَدوه إليه ، فتوجَّه من فورِه للاشتِراك فيها .

وسارتِ الجِنازةُ إلى المَقابر خارج المدينةِ ، وكان أهلُ الميتِ قد أقاموا سُرادِقاً كبيراً فى المَقبرة ، لاستِراحةِ المُشيِّعين ، وتقبُّلِ عزائِهم . فجَلسوا جميعاً فيه بعد أن وُورِىَ الميتُ فى التراب ، يستمعون إلى تلاوة القرآن على ضوء الشُّموع والقَناديل ، وأُحضِر العَشاء ؛ فتعشَّوا جميعاً ؛ ثم عادوا ثانياً إلى الجلوس فى السُّرادق ، فقَلِقَ غانمٌ ، وانْشَغلَ ذِهنُه على أمتِعَتِه وتجارتِه التى تَركها فى منزلِه من غير حراسةٍ ، وقد شاع بين الناسِ أنها صنوفٌ طيبةٌ ، وسِلعٌ مُمتازةٌ ؛ فهْى مطْمَع للطامِعين .

وقال لنفسِه : إن قضيتُ الليلَ بعيداً عن مَنزلى ، فإنّى لا آمَنُ أن يسطُوَ اللصوصُ على ما به من مالٍ وأحمال .

فأراد الانصِراف ، ولكنَّه استَحى أن ينصرفَ وحيداً دون باقى القوم ، فتَعلَّل بقضاء حاجةٍ ، ثم تسلَّلَ عائداً إلى المدينةِ ، وسار ضارِباً فى الظَّلام يَضِلُّ تارةً ، ويَسْتَرشِدُ أُخرى ، حتى وصَل إليها ، وكان الليل قد انتصفَ ، وأُغلِقتْ الأبوابُ فتحيَّرَ فى أمرِه ؛ ووقفَ خارجَ سور المدينةِ يُفكِّرُ :

ماذا يَفعل ؟ ! وإلى أين يذهَب ؟ ! وفى أىّ مكانٍ يَبيت ؟ !

وتَلفّتَ حوله لعلّه يجدُ مكاناً يلجأُ إليه ، أو يُشاهِـدُ شخصاً سائراً يأْتَنِسُ به ، أو يَرى نفراً عائداً يَسْتَرْشِد برأيِه ؛ ولـكنه لم يُبصِرْ شيئاً ، ولم يقعْ نظرُه على أحدٍ ، ولم يصلْ إلى أُذُنَيْه غيرُ نُباح الـكلابِ آتياً إليه من ناحيةِ المدينة ، وعُواء الذّئاب تُرَدّدُه جوانبُ الصحراء من الناحيةِ الأخرَى ، فدَبَّ فى قلبه الرُّعب ، واستَوْلى عليه خوفٌ شديدٌ ، وذُعِرَ ذُعراً لم يدخل قلبَه مثلُه ؛ وتَمْتَمَ باسمِ الله ليستمد الاطمِئنانَ ، واستعاذَ به ليُعيد إلى قلبِه القوة والإيمان ؛ وقال لنَفْسه : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله . كنت خائفاً على مالى ومَتاعى ، والآن أخشى عَلَى نَفْسِى ، وأتوقعُ ضَياع روحى ! !

ولم يجِدْ غانمٌ مندوحة من أن يكرّ راجعاً إلى ناحية المقابر ، فقد يجدُ مأوًى يأْوِى إليه ، أو يصلُ ثانياً إلى المقْبرةَ التى كان بهاحيث رَجّح أنّ القومَ لا يزالون جالسين .

وفيما هو سائرٌ يتخبطُ فى الطريق . ويضربُ فى وحْشَةِ الليـــل ، وصعوبةِ الصَّحراء مُتَلفّفاً فى بجادٍ من ظَلامٍ كثيف ، بعضُه فوقَ بعض ، إذا أخرجَ يده لم يكَدْ يراها . لا يُرْشِده إلى مَعالم الطريق ، ولا يُجنّبُه الارتطام بالصخورِ والأحجارِ إلا البصيصُ الضئيلُ المنبعثُ من نجوم السماء . فبينما هو كـذلك مرّ بسورٍ مربع ، به بابٌ من الحجر الجرانيت مفتوحٌ فتحةً صغيرةً فأطل برأسِـه منها ، فرأى فى الدّاخِلِ قبراً تقوم

بجانبه نخلةٌ مرتفعةٌ بعض الارتفاع ؛ فدفع الباب بقُوَّةٍ ، واستطاع أنْ يحرِّكه قليلًا ، فانفرجَ عن فتحةٍ يستطيعُ أن يَنفُذَ منها إلى الداخلِ .

فحدَّث غانمٌ نفسه : هنا يحسنُ بى أن أنام .

Fadi!

ثم دخلَ وأغلق البابَ خلفه ، وتكوَّرَ ورقدَ بجانبِ القبر ، وأغمضَ عينَيْه ينشُدُ النَّوم .

ولكنْ من أيّ جهةٍ يطرُق النومُ جفنيه ، ووحشةُ المكانِ تكتنفُه ، ورهبةُ القبرِ يَقشَعِرُّ لها بدَنُه ؛ حاولَ أن يهدئَ نفسه ، ويُسكِّنَ من رَوْعِه دون جدْوى ؛ فإن شعورَ الوحشةِ والرَّهبةِ كان أقوى من أن تُقاومَه أيّة مُحاولةٍ للتهدئةِ والتَّسكين ، يُحاوِلُها ويُزَيّنُها العقلُ للنَّفسِ . فهبَّ غانمُ قائمًا ، وهرْوَل خارجًا من البابِ إلى فضاءِ الصحراء ؛ وما كادَ يُمعِن فيها بعيدًا حتى رأى نورًا يلوحُ أمامَه عن بُعدٍ من ناحيةِ بابِ المدينةِ . فدقّق فيه النظر بُرْهةً وهو يظُن أن عَيْنَيه تخدَعانه ، ولكنه تيقَّنَ أن هذا نورٌ ؛ فقد شاهد الضَّوءَ يهتزُّ يمينًا وشمالًا ، ويقتربُ إلى ناحيته رُوَيدًا رُويدًا . فشعَر ببعض الإيناس ، الذى ما لبث أن تحوَّل إلى شكٍّ وريبة ، فاستدار إلى البابِ الذى خرج منهُ منذ بُرهةٍ ، ودلفَ منه ، وأغلقهُ من خلفه ، وتعلَّق بالنخلةِ فارْتقاها ، واختَفَى بين سَعَفِها ، يرقبُ اقترابَ الضَّوء ، وما يَظهرُ وَراءهُ ، وينظرُ إلى حاملِ مِشعَلِه ، وهلْ هو صديق يركَنُ إليه ، أو عدُوٌّ يخشَى بأسَه .

واقتربَ الضوء إلى سور القبرِ شيئًا فشيئًا حتى قَرُب منه ، فتبين غانمٌ على نورِه من فوق النخلةِ ثلاثة عبيد ، اثنان منهم يحملان صندوقًا كبيرًا ، والثالث يحمل مصباحًا وفأسًا . فلما اقتربوا من باب السور ، سَمِعَ غانم أحد حاملى الصندوق يقول مُناديًا زميلَه مُندَهِشًا :

يا صَواب !

فرد الثانى : ما بك يا كافور ؟ !

قال : أما كُنّا هُنا وقت العَشاء ، وتركنا البابَ مفتوحًا ؟

قال الآخر : نعم ؛ لقد تركناهُ مفتوحًا فتحةً صغيرةً تساعِدُنا على الدُّخول منها ، والاختفاء وراء السورِ ، وها هوذا الآن مغلق ، فيا عَجَبا كلَّ العجب ! ما كنت أظنُّ أن هذا المكان يطرُقُهُ طارق ؟ !

فقال الثالث ، حاملُ المصباح والفأس : ما أقلَّ عقلكُما ! أما تعرِفان أنَّ بعضَ الرُّعاة يخرجون من بغداد ، ويَرعَوْن أغنامَهم فى مكانٍ قريب من هـذه الصحراء ، فإذا أمسَى المساء عليهم ، ومَرَقهمُ الوقتُ ، ولم يَستطيعوا العودةَ إلى دُورِهم — يَدْخلون هنا ، ويُغلقون البابَ خوفًا من السود أمثالِنا أن يأخُذُوهم ، ويَشْوُوا لحومَهم ، ويأكُلُوها ؟ !

فقالا له: لا أحدَ أقلُّ منك عقلًا يا أخانا !

فقال : إنكما لا تُصَـدِّقانى إلا حينما ندخلُ المقبرةَ ، ونجد فيها أحدًا — وما أظُنُّ إلا أنَّ الذى فيها قد رأى الضوء ورآنا ، فهرب فوق النخلةِ خوفًا منّا ! !

فلما سمع غانم قول العبد الثالث ، تمتم فى نفسِه ساخطاً مُتحسّراً : يا ألعن العبيد ؛ لا سترَكَ اللهُ ، ولا أبقاك ، ولا حفِظ عليكَ عقلكَ ومَعرِفتَك ! ! ما الذى سيُخَلِّصُنى الآنَ من هؤلاء السُّود المناجِيس المناكيد ؟ !

ثم سمع العَبدين اللذين يحمِلان الصندوق يقولان ، وهما يَضحَكان : ليس عليك يا بخيت إلا أن تَتسلَّق الحائط ، وتتدلى من الناحية الأُخرى ، وتفتح لنا الباب فقد تعِبنا من حمل الصندوق لأنه ثقيلٌ ، ولك علينا أن نُمسكَ لك واحدًا من الذين سنَجدُهم فى الداخل ، ونَشْويه شيًا جيِّدا ، بحيثُ لا يضيعُ من دُهنِه وشحمِه شىء بين الجمْر ، ثم نقدِّمُه لك لتلتهِمَه.

فظهر التَّردُّدُ على بَخيت وقال :

خيرٌ لنا أننا نقذفُ بالصُّندوق من فوق الحائطِ ، فقد تذكرتُ أنه رُبَّما يكون وراءَ السور لصوصٌ من قطاعِ الطريق الذين يَقتُلون الناس ، ويسرِقون أشياءهم ثم يأتون إلى مثل هذه الأماكنِ يقتسمونها فيما بينهم .

فقالا له : يا قليـل العقل ؛ أما تكُفُّ عن بَلاهتِك وثَرثَرتِك ، وتَشدُّقِك بالكلام الذى لا يفيدُ حتى إذا ما دعا داعى العمل أحْجمتَ وركِبَك الخوف ؟ !

ثم إنهما وضَعا الصندوق على الأرض ، وتسوَّرا الحائط ، وفتحا الباب ، وأدْخَلا الصندوق ووضعاهُ بجانب القبر ، وبخيت يُنيرُ لهُما بالمصباح .

فقال أحدُهما :

يا أخوىَّ إننى قد تعبتُ من حمل الصندوق ، فلنسترِحْ قليلًا ، فإذا أخذنا قسطاً من الراحةِ نقومُ بدفنِ الصندوق فى القبر .

فقال الثانى : نعمَ الرأىُ ، وليقُص فى هذه الفترةِ كلٌ واحدٍ منا السببَ فى كيِّه ، وتشويه وجهه بتلك العلامات المميزة له .

فقال بخيت : سأقص أنا أوَّلا عليكم قِصَّتى .

قالا : قُصَّ فنحنُ آذانٌ مُصغِيةٌ .

فقال :

اعلما يا أخوىَّ أننى حينما كنتُ صغيرًا ، لم تتجاوزْ سنى ثمانى سنين ، كنتُ أكذب على الجلّابة كلَّ سنة كذبة تكونُ سبباً فى أن يقعَ بعضُهم فى بعض ، وتدور بينهم مشاجراتٌ عنيفةٌ ، فلما عُرِف ذلك عنى رأى سيِّدِى الجلّاب أن يتخلص منى ، حتى يَكفيَه الله شرِّى ، ويحفظَه هو وأصحابَه من كذِبى ، فأخذنى وذهبَ بى إلى الدَّلالِ ، وقال له : خذ هذا العبدَ ، وبِعْه على عَيْبِه .

فقال له : وما عَيْبُه ؟!

قال : يكذبُ كلَّ سنة كَذبةً واحدة .

فصار الدلّال ينادى : من يشترى هذا العبد على عَيبه ؟!

فنظرَ إليه الناس فى دَهشة وعجَب ، ونفَروا منه ومنى نُفورًا شديدًا لأنهم لا حاجةَ بهم إلى شِراء عبدٍ معَيب ، لأن العبيد غيرَ المعيبين كثير ؛

ولكن رجلا تاجراً تقدم إلى الجلاب ، واستعدَّ لشرائى على عيبى ودفع فىَّ ستمائة درهم ، وأخذنى إلى منزله ، بعد أن عرف من الدلال أننى أكذبُ فى كلِّ سنة كذبة ، وظللتُ فى خدمةِ التاجر الزمنَ الباقى من تلك السنة ، وكانت كذبتها قد وقعتْ منى وأنا فى خدمةِ الجلاب .

ثم هلّت السنة الجديدةُ ، وكانت سنةً مباركةً مخصبةً بالنباتِ ، فكسبَ الزُّراع ، وزادَ ربحُ التُّجار . فإنهم بعد أن جردوا تجارتَهم ، عرفوا مقدارَ ربحِهم ، وصاروا يُهنِّئُ بعضُهم بعضا ، ويقيمون لذلكَ المآدبَ والحفلات إلى أن جاءت النوبةُ على سيِّدى فى دعوتِهم ، وإقامةِ وليمةٍ لهم .

فدعاهُم إلى بستانٍ بخارج المدينةِ كان يملكه ، وحملنا إلى هُناك جميع ما تحتاجُ إليه الوليمةُ من أطايبِ الأطعمةِ ، ولذيذ الفواكه ، وغيرِها .

فلما جاء الميعادُ وفد تجارُ المدينةِ ، ثم جلسوا جميعاً يأكلون ، ويشربون ، ويتسامرون ، ويتنادرون ، وقتاً طويلا . ثم أراد سيِّدى أن أحضِر له شيئاً من البيت كان قد نسيَه ، فنادانى وكلَّفنى بإحضارِه على عجل ، فامتثلتُ أمره ، وركبتُ بغلةً ، وتوجهتُ إلى الدار ، فلما قربتُ منها صرختُ ، وولْولتُ ، وأسبلتُ دموعى ؛ فاجتمعَ علىَّ الناسُ كباراً وصغاراً ، وداروا حوْلى يستفْهمون عن سبب صُراخى ، ويَستفسِرون عن حالى ؛ وكنتُ كلّما ألحُّوا فى الاستِفهام

والاستفسار ، ازددتُ أنا صُراخاً وعَويلا ، وأصيح : واسيِّداه ! ! وا سيِّداه ! !

وسمعتْ زوجةُ سيِّدى وبناتُها صُراخى وبكائى على الباب ، ففتحْنَ فزعاتٍ يسألنَنى الخبرَ ، فقلتُ لهن :

إنَّ سَيدِى كان جالساً تحت حائطٍ قديم هو وأصحابُه ، فوقع عليهم ، فلما رأيتُ ما جرى لهم ركبتُ البغلةَ ، وجئتُ مسرعاً لأُخبرَكُن .

فلما سمعتْ زوجتُه وبناتُه منى ذلك صرخْن ، وشقَقْن ثيابَهن ، ولطَمْن وجُوهَهُن ؛ وأتتْ إليهن نساء الجيران يُواسينَهن ، ويُشارِكْنَهن فى البُكاء .

أما سَيِّدَتى فقد أخذَتْ تصرُخ ، وتقلبُ متاع البيت بعضُه فوقَ بعض وتتلف زينتَه ، وتكسر رُفوفَه وتُحطِّم أثاثه ، وتلطِّخ حِيطانَه بالسَّواد ، وتَهيب بى صائحة :

وَيْلَك يا بَخيت يا مَشئوم . يا أشأمَ من الغِربان والبوم ؛ تعال ساعِدْنى ، وخرِّب معى البيت . فلن يعمُر بعد سَيِّدِك ؛ إذ ما قيمةُ الحياة الدنيا من بعده ؟ !

فلما سمعتُ ذلك منها ، عاوَنْتُها على تخريبِ بيتِها ، وإلباسِه ثوبَ الحِـداد ؛ فصرت أفتحُ الأصونةَ ، وأخرج الرفوف بكل ما عليها من الأوانى والصِّينى وغيرِه وأكسِّره . حتى أتيتُ على جميع ما فى البيتِ ، فلم أترك فيه شيئاً سليما ؛ فعلتُ ذلك كُلَّه ، وأنا لا أكُفُّ عن الصِّياح :

واسيِّداه ! ! واسيداه ! !

ثم قالتْ لى سيِّدَتى وهى تبكى : تعال يا بخيت ، فسِر أمامَنا ، وأَرِنا المكانَ الذى فيه سيدُك تحت الأنقاضِ حتى نخرجَه ، ونأتىَ به إلى هُنا ، ونُشيِّعَ جنازتَه بما يَليق بمقامِه ، وبمركزِه الاجتماعى والمالى بين سُكان المدينة ؛ حتى لا يَظُنَّ الناس أننا قصَّرْنا فى الواجب علينا نحوَه .

فخرجْن مُتَّشِحاتٍ بالسواد ومعهن أقاربهن ، وبعض جاراتِهن .

فسرتُ أمامَهن وأنا أصيحُ : واسيِّداه ! ! واسيِّداه ! !

وكُنَّ يسرْن خلفى مكشوفات الوجوه حاسرات الرءوس ، حافيات الأقدام ، جزِعات القلوبِ ، باكيات ، نائحاتٍ ، صائحاتٍ : آه ! ! آه ! ! أوَّاه ! ! أوَّاه ! ! يا عمودَ البيتِ ، يا حصنَ الأهل ، يا عطوفاً على القريب ، يا حَنوناً على الغريبِ ، يا كافلَ اليتيم ، يا معطى المسكين ، يا . . .

فلم يبقَ أحدٌ من أهل البلدِ من الرجالِ والنساء والأطفال إلا وقد خرَج وراءهُن . وهم جميعاً فى عويلٍ وبُكاءٍ وحسرةٍ وحُزن ؛ وأخذوا يتذاكَرُون ما كان عليه الرَّجُل من كريم الخُلق ، ولطيفِ العِشرةَ ، وما كان يقومُ بِه من صلاةٍ وصيامٍ ، وما كان يعملُه من خير ويُقدِّمهُ من صدَقات ، ثم يقولون :

لا حول ولا قُوة إلا بالله .

وقال بعضهم : إنَّا سنذهبُ إلى الوالى ونُخبِرهُ بذلك الخبر .

وقال بعضٌ آخر : ونحن سنأتى معكم .

وسِرْنا جميعاً . وأنا لا أكُفُّ عن الصياح ، وهم خلفى يصيحون ، حتى قاربنا البستان الذى فيه سيِّدى وأصحابه . فجريت أسبقهم ، ودخلتُ البستان على سيِّدى ، وأنا أحثو الترابَ عَلَى رأسى ، وألطم وَجْهى وأصيحُ :

واسيدتاه ! ! أواه ! ! أواه ! ! ما بقِىَ لى مَن يعطفُ عَلَىَّ بعد سيدتى ، يا ليتنى فداءكِ يا سيدتى ! !

فلما رآنى سيِّدى بُهتَ وذُعرَ ، واصفرَّ لونهُ ، وقالَ بصوتٍ متهدِّج :

مالك يا بخيت ؟ ! وما خبرُك ؟ !

فقلتُ : يا سيدى إنها مُصيبةٌ دهْماء ، وداهية دهْياء ، قد حلَّتْ بنا ، فإنك لما أرسلتنى إلى البيت لقضاء طلبك . ذهبتُ فوجدت حائط المنزل قد انهدم ، وانطبق المنزلُ على مَن فيه .

فصاح سيدى مُرْتاعاً : أو لم تَسْلم سيدتك يا بخيت ؟ !

فقلتُ وأنا أبكى : لا يا سيدى ، إنها أول من ماتَ تحتَ الأنقاضِ . . .

فقال وقد زادَ ارتياعاً : وهل مات أحدٌ آخر ؟ !

قلت : نعم . الأولاد جميعاً ماتوا .

قال : وابنتى الكبيرة ؟ !

قلت : ماتت .

قال : وابنى الصغير ؟!

قلت : مات .

فقال وقد ارتجّتْ أعصابه ، وأصابتهُ نوبةٌ شديدةٌ من قوّةِ الصدمة :

وهل أحضرت لى بغلتى لأركب عليها ، وأعودُ بها سريعاً إلى المدينة ؟ !

فقلت آسفاً : والبغلة ما سلمت لا هى ولا غيرها ، حتى الغنم والوز والدجاج أطبق عليها حائط المنزل فصارت أكواماً من اللحم ، وطعاماً للكلاب والقِطط .

فلما قلت ذلك لسيدى لم يستطِع أن يملك أعصابه ، ولم يقدر على ضبط نفسه ، ففار دمُه ، وغلا صدرُه ، وسيْطر عليه حزنٌ عميق ، وهمٌّ لم يقدر على احتماله ، وأظلمتْ الدنيا فى عينيه ، ودارتْ به الأرض الفضاء ، وخرج عن هُدُوئه واتزانه ، فألقى بعمامته من فوق رأسه ، وقطع أثوابه ، ونتف لحيتَه . وصار يضربُ على رأسه ، ويلطمُ وجههُ ، ويضرب رأسهُ فى الحائط ، حتى أسالَ دمه ، وأخذ يصيحُ :

آه !! واأوْلاداه !! وازوْجتاه !! آه !! وامُصيبتاه !! مَن جَرى له مثل ما جَرى لى ؟! ومن حدثَ له مثل ما حدث لى ؟!

ورَثى التجار لحاله ؛ فأسرعوا إليه ، والتفوا حوله ، وأخذوا يخففّون

عنه وقعَ الخبر عليه ، ويربتون كتِفه ، ويُذكِّرونه بآياتٍ من الكتب السماوية تدعو إلى الصبر ، والتسليم لله ، والرِّضا بقضائه ، فالعوضُ منه وعليه .

واندفع سيدى خارجاً من البستان كالمخبول ، شارد الذّهن ، مُشتّت الفِكر ، لا يدرى إلى أين يتجه ، وأصحابهُ يسرعون من ورائه ، وإذا بغَبرةٍ وصياحٍ ، وناسٍ كثيرين يبكون ، ويعولون ، ويلبسون الحداد ، فنظر سيِّدى إليهم فإذا هم أهله وزوْجته وأولاده ، يتبعهم جمعٌ غفيرٌ من أهل المدينة .

ووقع نظرُ سيدى على زوجته وأولاده وهمُ فى حالةٍ يُرْثى لها ، فوجوههم مُغبرة كالِحة . وعيونهم باكية ، وملابسهم ممزقة .

فأخذ ينظرُ إليهم فى دهشةٍ وعجبٍ وشكٍّ ، وهو فاغرٌ فاه ، محدق عينيه ، وأخذ يردِّد النظر ، ويوزِّعهُ بينهم ، وبين من حوله ، ويهزُّ رأسهُ ، ويصفِّقُ بيديه ، ويلتفتُ يميناً وشمالا .

ووقعت أنظارُ سيدتى وأولادها عَلَى سيدى وهو واقفٌ مذهول فى مقدمة أصحابه ، فبُهتوا هم أيضاً وتولاهم الذُّهول ، وصدمتهم الحيرة ، وطال بالفريقين الوقوفُ ، وكأنما قد تسمرت أقدامهم بالأرض وعيونهم تحملقُ فى وجوه بعضهم بعضاً .

ثم لم تلبث سيدتى أن اندفعتْ هى وأولادها إلى سيدى ، فتعلقوا جميعاً به يقبِّلونه ، ويتعلقون به ، ويعانقونه ، بعد أن أيقنوا أنه هو

حقًّا رجُلهم وأبوهم وعائلهم ، لا تخدعهم منه أنظارهم ، وأنه لا يزالُ حيًّا يُرْزق .

وأيقن هو أنهم حقًّا زوجته وأولاده سالمين لم ينلهم أذًى ، فبادلهم العِناق والقبلات وهم يتصايحون فى نفسٍ واحد :

الزوجة : الحمدُ لله على سلامتك ، فقد أرانا الله وجهك بخير . . . ونجاك أنت وأصحابك .

الأولاد : شكرًا لله يا أبتاه فقد أنقذك من سُقوط الحائط .

الرجل : كيفَ حالكم أنتم ؟! وما الذى حصل لكم ؟! حمدًا وشكرًا على نجاتكم من سقوط الحائط عليكم .

وأقبل الناسُ القادمون من بغداد على سيدى ، وعلى التجار الذين معه يهنئونهم بنجاتهم ، وكذلك تقدم التجار الذين كانوا مع سيدى يهنئون القادمين من بغداد بنجاتهم ، وكثر بينهم الكلام والاستفهام من غير أن يفهم أحد منهم شيئًا ، أو يقف على سبب .

وبينما هم فى أخذٍ وردٍ إذ بالوالى قد أقبل على البستان هو ورجاله ، ومعهُ العمال بالفئوس ، والمساحى ، لرفع الأنقاضِ ، وإخراج القتلى من تحت الحائط .

فلما أشرف على الجمع قال :

أين الحائط الذى سقط علَى جماعة التجار ، حتى يسرع العمال برفع أنقاضه وإخراج الجثثِ من تحتها ؟

فقال الناس : إن التجّار جميعاً سالمون ، لم يُصبهم أذًى ، وهم بخير وعافية .

فقال الوالى : ما الذى نجّاكم من تحت أنقاض الجدار ؟!

فقال سيّدى : إننا كُنّا فى البستان ، ولم يسقط علينا الجدارُ ، إنما الحائط الذى سقط كان فى منزلى ، والله سبحانه وتعالى قد نجّى أهلى من شرّه فنجّاهم جميعاً .

فقالت زوجته : إنما الحائط كان فى البستان ، فقد أتانى العبد بخيت ، وقال : إن الحائط وقع على سيّدى وأصحابه وماتوا جميعاً .

فقال سيّدى فى دهشة : إنه قد أتانى الآن ، وهو يصيح : واسيّدتاه !! وأولاد سيّدتاه !!

وقال : إن سيّدتى وأولادها قد ماتوا جميعاً .

وتلفّت القومُ يبحثون عنّى ، وقد احمرّت أعينهم ، وكادَ يتطايرُ منها الشرر من شدة الغيظ .

وكنتُ جالساً على الأرضِ بالقرب منهم ، وعمامتى مخروقة فوقَ رأسى ، وأحثو الترابَ عليها .

فصاح سيدى صيحةً عاليةً منادياً : يا بخيت .

فأقبلتُ عليه ، فقال لى ، وهو يكاد يتميّز من الغيظ !

ويلكَ يا عبدَ النّحس !! ما هذه الأفعال التى فعلتها ؟!

فلم أرُدَّ عليه ، وخرجت بالصمت عن لا ونعم .

فقال: يا أنحس العبيد !! لأسلُخَنَّ جلدك، ولأقطعَنَّ لحمك إرْباً إرْباً، ولأكسِّرن عظمَك.

فلما قال ذلك قلتُ له:

إنكَ لا تستطيعُ أنْ تفعل معي شيئاً من ذلك كلِّه، لأنك اشتريتَني عَلَى عيْبي، وعَيبي أنت تعرفه، وهو أني أكذبُ كل سنةٍ كذبة، وهُناكَ شهودٌ يشهدون عَلَى ذلك.

فقال:

يا مَلعون؛ أتُسَمِّي كلَّ ما فعلته كذبة ؟!

فقلتُ: بل هي نصف كذبة، وإن شاء الله في نهايةِ السنة أكذبُ النصف الآخر.

فنظرَ إلىَّ سيِّدي وهو يكاد يُخرجُ عن طَوْره، وقال لي:

وَيلكَ !؟ ماذا تقول ؟! أهذه نصف كذبة؟! وما الذي كنتَ تفعلُ لو كانت الكذبة كلُّها؟!

أغْربْ عنْ وَجهي، فإني لا أُريدُ أن أراكَ، اذهبْ عني فقد أعْتقْتك !.

فقلتُ: يا سيِّدي، ولو أنك قد أَعتقْتَني فأنا لا أستطيعُ تركَكَ إلا إذا تمَّت السنةُ، وكَذبتُ نصفَ الكذبة الآخر، ولك حينئذٍ أن تخرج بي إلى السوق، وتبيعَني عَلَى عيْبي، كما اشتريتَني عَلَى عيْبي، لأني ليسَ لي حرفةٌ أقتاتُ منها.

– وكان الوالى واقفاً يشاهدُ هذا الموقفِ ، ويسمعُ ذلك الحوارَ بينى وبين سيِّدى ، فنهرنى ولعننى ، وأنا واقفٌ أبتسمُ ، لا أبالى أحدًا ، وأقول :

لقد اشتريتَنى يا سيِّدى علَى عيْبى .

وانتهى النقاشُ بينى وبينه على هذا وانفضَّ الجمع .

وتوجَّه سيِّدى وأهله إلى منزله ، وسار الناسُ ولا حديثَ لهم إلَّا التَّعجُّب والسخط علىَّ وعلَى فعلتى .

فلما وصلَ سيِّدى إلى منزله ورآهُ خرابًا . وكنتُ أنا الذى خرَّبتُ معظمهُ ، عرف أنه حقًّا قد أصابَ البيت سُوء ، وأن جزءًا من كذبتى كان صحيحًا ، فنظر إلى زوجته مَدْهوشاً مُتسائلًا :

فقالت :

إن العبد هو الذى أتلفَ أكثر ما فى الدار ، وكسَّرَ جميع الأوانى من البلُّور والصينى .

– فازداد سخط سيِّدى وغضبه وأخذ يضرب يدًا بيدٍ ، ويقول : إنى ما رأيتُ إنسانًا ، ولا سمعتُ أن شيطانًا يمكنه أن يفعل فعل هذا المنكود المشئوم ، ثم يقول بعد ذلك إنها نصف كذبة ، فما باله لو أنه كذب كذبةً كاملة ، إنه كان خرَّب مدينة أو مدينتين ، إنى لا أستطيع السكوتَ علَى هـذا العبد ، وسأذهب أشكو ما فعلَ إلى الوالى .

– وذهب سَيِّدى ، وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيظ إلى الوالى وبسط له شكايته .

فاستدعانى الوالى إليه ، وهُناك أوسَعنى سَيِّدى وأعوانُ الوالى ضرباً ولكماً ، وأنا أستجير فلا أُجار ، حتى غِبتُ عن صَوابى ، فكوُونى بالحديد المحمى فى وجهى ، وباعنى سَيِّدى عَلَى عيْبى .

فما زلتُ أكذبُ ، وأثير الفِتن بين الناس أينما حللتُ وأخلقُ المشكلات بين سيِّدى الذى يشترينى وبين الناس ، وبقيتُ أنتقلُ من مكانٍ إلى مكان ، ومن مشترٍ إلى آخر ، ومن كبير إلى أمير ، حتى استقرَّ بى المطافُ فى قصرِ أمير المؤمنين . . .

وهذه هى قصتى . . .

فضحك العبدان الآخران ، حتى استلقى كلٌّ منهما عَلَى قفاه ، وقالا لبخيت :

وَيلك ! ! إنك تكذبُ كذباً شنيعاً ، وتسببُ للناس آلاماً شديدة ! .

فضحك بخيت من قولهما مسرورًا وقال :

فليقُصْ علينا كلٌّ منكما قصتَه .

فقالا :

يا ابن العم ، إن قصة كلٍّ منّا أيضاً طويلة ، تطولُ كلٌّ منهما قصتك ، وقد قرُبَ طلوع الفجر ، فلنؤجِّلْ ذلك إلى وقتٍ آخر ،

ولنقم الآن بمهمتنا التى جئنا من أجلها خوفاً من أن يَطَّلع على أمرنا أحد.

— وما لبثوا أن نهضوا ، وأخذوا يحفرون فى الأرض بالفأس. ويتناوبون الحفر ، ونقل الأتربة ، حتى حفروا حُفرة تشبه القبر ، وتعاونوا على حمل الصندوق فيما بينهم ، ووضعوه فيها ، ثم أهالوا عليه الترابَ ، وسوَّوه فوقه ، وانصرفوا من حيث أتَوْا ، بعد أن أغلقوا الباب.

(٢)

وتنفس غانمُ الصُّعَداء عند ما تيقَّن من انصرافِهم ، ولكن القلق ساوَرَه ، وشغل بالَه بسر هذا الصندوقِ الذى دفنوه ، وصمَّم على كشف أمره ، ومعرفة ما فيه :

فنزل عن النخلة التى كان يعتليها ، وكان نورُ الفجر قد ابتدأ يشُقُّ بخيوطه البيضاء سوادَ الليل ، طارداً أمامه جحافلَ الظلام ؛ واتجه إلى مكان الحفرة التى دُفن فيها الصندوقُ ، وما زال يُزيحُ عنه الأتربةَ بيديه حتى كشفهُ ؛ ثم ما زال يحتالُ على إخراجهِ من الُحفرة حتى أخرجه ، فوجده صُندوقاً من خَشَبٍ وله غطاء محكَمَ ، عليه قُفْلٌ مغلق.

فتحير غانم فى أمرِ هذا الصندوق ، وفيما يحتويه ، ورجَّح أن به مالاً ، أو متاعاً سرقهُ هؤلاء العبيدُ ، وأخفوه هنا ؛ فعوَّل على فتحه ، وتناول حجراً كبيراً من الأرض وأخذ يدقُّ به قُفلَ الصُّندوقِ حتى حطَّمه ،

وفتح غِطاءَ الصُّندوق ، وما كان أشدَّ دهشَته عند ما وَجد أن فى الصندوق فتاة مليحة بارعة الحسن والجمال فاتنةً باهتة اللون ممدودةً به ، وعليها ملابس حريرية نفيسةٌ فاخرةٌ ، ومتحلية بحلى من ذهب وجواهر ؛ ففى مِعصميها الأساورُ ، وفى أذنيها قرطٌ ثمين ، وفى عنقها القلائدُ ، وفى أصابِعِها الخواتمُ .

ولما رآها غانمٌ تمتم فى نفسه قائلا :

سبحان الله ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله .

وأراد أن يرُدَّ الغطاء على هذه الصبية التى اعتقد أنها ميتةٌ ، مستنبطاً ذلك من سكونها وشحوبها ، وإغماض عينيها ، ولكنَّ قلبه لم يطاوعه على قبرِ هذا الجمال ، ونفسَه لم تهاوِدْهُ على دفنِ هذا الشبابِ . فانحنى على الفتاة وهو مشفقٌ على نفسه أن تذوبَ ، وعلى قلبه أن يتصدَّعَ .

ولكنْ ؛ يا للدَّهشة ، ويا للعجب ! ! أتخدعه عيناه ، هذه هى الحقيقة التى يراها ؟ ! أم هذا خيالٌ لا حقيقة له ؟ !

أيموت هذا الجمالُ ويدفنُ فى التراب ؟ ! سبحانك يا ربى ! ما أجمل قدرتك وأعظم حكمتك ! وعلى أشعة الفجرِ الضئيلة رأى صدرَ الفتاة يعلو ويهبِط ، وعلى نوره الباهت رأى دمَ الحياة يجرى فى وجهها رغم شحوبه .

واعتملتْ بين جنبيْ غانمٍ عواملُ الدهشةِ والعَجَب ، والاستبشارِ والأمل .

الدهشة ، والعَجَبُ لدفن هذه الصبيةِ الفاتنةِ حيةً لم تمتْ ، والاستبشارُ

والأملُ لإمكان إنقاذِها ، والعمل على نجاتها .

ونفذ الهواء الباردُ الخالصُ إلى صدر الفتاة فسمع غانمٌ صوتاً لتنفسها ، وصعوبةً فى ترديده ، حتى لكأنها فى حشرجةٍ ، فأيقن أنها مَغشىٌ عليها ، وليست بنائمة نوماً طبيعيًا ، فرفعها من الصندوق ، وأسندها إلى الحائط ، وجعلها فى وضعٍ يساعدها على سُهُولة استنشاقِ الهواء ، ودخوله كاملا إلى رئتيْها .

وما كاد يعمل لها بعض الإسعافاتِ حتى شهقت الفتاةُ ، ثم شرقت وسَعَلَتْ ، فوثب من فمها شىءٌ مستديرٌ ؛ تأمله غانم ، فعرف أنه قرصُ بنج من بنج إقريطش الذى يكفى لنوم عشرة رجالٍ .

وابتدأت الحياةُ تدب فى الفتاةِ ، فتحركت ، وتململت ، وفتحت عينيها ، وأدارت طرفها فى المكان ؛ ثم أغمضتهما ، وقد شعرت بلفح الهواء لوجهها . وقالت بصوت رخيم شبه هاذية وهى لا تزالُ تحت تأثير البنج ، وتعانى حريقَ عطشِه :

آه : ما أحلاك يا ريحُ ! ! وما أطيبَك يا هواء ! ! ولكن ويلك ! ! فما فيك رِى للعطشان ، ولا أنسٌ للريان .

وسكتت قليلا ، ثم استطردت تقول ؟ !

أين الزهر ؟ ! أين البُستانُ ؟ !

فلما لم تسمع جواباً ، فتحت عينيها ؛ وأجالت طرْفها ثانياً فيما حولها ، وهى تنادى بصوت خافتٍ متهدّج :

يا صبيحة ، يا شجرة الدُّر ، يا نورَ الهدى ، يا نجمة الصبح :

فعلم غانم أنها تنادى صاحِباتها وجواريها ؛ فظل ساكتاً حتى يزولَ التأثيرُ الذى بها .

فلما سمعها تتساءلُ ، وقد أخذتها الدهشة :

من جاء بى إلى هنا ؟ ! من أخرجنى من بين السُّتور والخدور ووضعنى بين القبور ؟ !

مَن الذى نقلنى من بين الأشجار والأزهار ، والفواكه والثمار ، إلى تلك الصحارَى والقِفار ؟ ! قال :

يا سيدتى ؛ أنا غانم بن أيوبَ ، ولا علم لى بشىء إلا أنى وجدتك مغشيًّا عليك هنا فى هذا الصنْدوق من أثر بنج عنيف ثقيل ؛ وعملت على إسعافك ونجاتك .

فنظرت الفتاة إلى غانم ، وإلى الصندوق ، وإلى المكان الذى هما فيه ، وابتدأت تستعيدُ من ذاكرتها ما مرَّ بها ، فأخذت تتكشف لها الحقيقة ، وينبثق أمامها نورُ المعرفةِ ؛ فتنفست تنفسَ الارتياح واستشهدت !

أشهد أن لا إله إلا اللهُ ، وأن محمداً رسولُ الله .

ثم أدارَت وجهها إلى غانم وقالت :

لقد أفقتُ الآن ، وثاب إلىَّ رشدى ، وعاوَدَنى صوابى ؛ فقص علىَّ أيها الشابُّ الطيب حقيقة الأمر .

فقصَّ عليها الشابُّ قصته وقصتها .

فقالت الفتاةُ : الحمد لله الذى جعل نجاتى على يد شاب صادق مهذب عفيف مثلك . والآن ضَعنى فى هذا الصندوق كما كنتُ ، واخرج إلى الطريق ، فقد ابتدأ يعمر بالسابلة ، فاكْترِ مكارِيًا أو بغالا لحمل الصندوق ، واذهب بى إلى منزلك ، ولن يحصُل لك منى إلا كلُّ خيرٍ ، إن شاء الله .

ففرح غانم برأيها ، وأعادَها إلى الصندوق ، وخرج إلى الطريق ، فاكترَى رجلا ببغل ، وأتى به إلى المقبرة ، وحمَّله الصندُوق بما فيه ، وساروا جميعًا حتى دخلوا المدينة ، وتوجَّهوا إلى منزلِ غانم .

ولما فتح غانم الصندوق بعد ذَهاب الحَمَّال ، وأخرج الصبية منه — نظرت هذه إلى المنزل ، وإلى أرجائه وأبهائه ، وإلى ما حوى من مفروشات وأحمالٍ — فعرفت أن غانمًا من التجار الأغنياء .

فقالت شكراً لله على ذلك .

ثم قالت لغانم : اذهب إلى السوق وائتنا بشىء نأكله .

فخرج غانم فرحًا نشيطًا ، لا تكاد الدنيا تَسَعَهُ لفرط ابتهاجه ، وشدة سروره ، يُلبّى طلب هذه الفتاة الجذابة الفاتِنة التى ساقها الله إليه ، فوقعت من قلبه موقعًا حَسَنًا ، وتعلّق بها من أول وهلة .

فابتاع لحمًا مشويًا ، وحَلوَى ، وفاكهة ، ونُقْلًا ، وشمعًا ، وأزهاراً ، وعاد إلى المنزلِ ؛ فقامت الفتاةُ ، وتحاملت على نفسها ، وأعدَّت المائدة ، وهيأتها ؛ ثم جلسا إليها يأكلان ، ويتحادثان ، كلٌّ يقصُّ على الآخر

أطرف ما يعرف من الحديث ، وبعدَ أن انقضى النهارُ ، وأقبل الليل ، أعد غانمٌ حجرتى نوم ، لكلٍ منهما حجرةٌ ؛ ثم أوى كلٌ منهما إلى فِراشِه ، وَنام نوماً هادئاً عميقاً .

ولما أصبح الصباحُ خرج غانمٌ ، فاشترَى لحماً وخضراً ؛ فطهت الفتاةُ لهما طعاماً على طريقةٍ لذيذة شهية ، وأكلا معاً ؛ وغانم مغمورٌ بسعادةٍ لا حَدَّ لها لقربه من هذه الفتاة المليحةِ التى أسرت لُبَّه ، وملكت حواسَّه ، وسيطرت على قلبه .

ومرت بضعة أيام ، وهما على هذه الحال ، ازداد فيها حبُّ الفتاة تمكناً من قلب غانم ، وتضاعف إعجابهُ بأدبها معه ، ولطفها فى معاملته ؛ فصمَّم على طلب يدِها ، واتخاذها زوجةً مخلصةً له .

وفاتحها فى هذا الأمر وهو لا يدور بخلَدِه أنها ترفضُ طلبه .

ولشدَّ ما كانت دهشتهُ وارتياعه حينما قالت له آسفةً :

هذا غير ممكن يا غانم .

فقال وهو يغالب انفعاله ، ويخفى حَسْرته :

وما السبب ؟ !

قالت : الآن آن الأوان لأقُصَّ عليك قصتى ، وأكشفُ لكَ أمرى . . .

اعلم أننى محظية أمير المؤمنين ، وجاريتهُ التى يضمُها فى الصفِّ الأول من بين جواريه . قد ربيت فى قصره منعمةً مُدَلَّلَةً ، تخدِمُنى الجوارى ،

ويُلبِّين إن ناديت ؛ وإشارتى أمرٌ ، وأمرى مطاع . ولما كبرت أعجب بى الخليفة أيما إعجابٍ ، وأفرد لى المقاصير ، وأغدق علىَّ من حُبِّه وعطفه ، ومن هداياه ، وألطافه ما تراهُ علىَّ من حلى وجواهر .

وكانت زوجةُ الخليفةِ تَغارُ منى أشد الغَيْرةَ ، وتنفسُ على حبِّ الخليفةِ لى ، ورِعايته لشأنى ، واستجابته لرَغباتى ؛ فكانت لا تكُفُّ عن الكيد لى خِفية ، وقد دسَّت علىَّ إحدى جوَاريها ، لتتجسسَ لها على أسرارى ، وتعرفها أولا بأول أحوالى ، وكنتُ أنا أعلمُ بنواياها نحوى ، وأتوجّسُ خيفةً . مما تُدَبِّره لى ؛ فأتوقعُ أن يصيبنى شرُّها إذا أصبحت ، وأتوقعُ ذلك أيضاً إذا أمسيتُ ، وكنت أتحفَّظُ ما استطعتُ حتى لا تنال منى منالا .

فلما كان اليومُ الذى وجدتنى فيه بالصندوق ، وكان الخليفة مسافرًا . فعند ما تهيأتُ للنوم شربتُ شرابًا اعتدت أن أشربه قبل النوم كلَّ ليلة ، وبعد أن شربتُه أويْتُ إلى فراشى ونمتُ ، ولم أستيقظ إلا على يديك حينما أيقظتنى ؛ وأفهمُ من هذا طبعاً أننى نمتُ وغبتُ عن صوابى بعد تناوُلى إيَّاه ؛ فدسَّت لى الجارية قرص البنج فى حَلقِى حتى لا أفيق سريعاً ريثما يتمون مؤامرتهم ، وينقلونى فى الصندوق ، ويدفنونى فى القبر .

وقد تم لزوجة الخليفة ما أرادت برشوة الخدم والعبيد بالمال ؛ ولولا أن عناية الله قيضتْك لى وجعلتك تلجأ إلى هذه المقبرة لتبيت فيها — لكنت الآن فى عدد الأموات .

ولا أعلم الآن ما كان من أمر الخليفة حينما عاد من سفره ، ولم يجدنى فى داره ، ولا أعرف إلا الافتراءات الكاذبة التى سيفترونها علىَّ ؛ ليخففوا عليه ما يلحقه من القلق بسبب غيابى ، ولا بد أن تكون هذه الافتراءات مِن نَوْعٍ يَمَسُّ الشرف والكرامة والعفافَ ، حتى يبغضوه فى جاريته التى يحبُّها .

فلما سمع غانم حديث قوت القلوب ، وعرف أنها جارية الخليفة — أخذته الهيبة والخشية وتراجع إلى الوراء متقهقرًا ، وهو يتمتم ويهمهم بكلمات الاعتذار والأسف .

ونهض فغادر المنزل ، وسار فى الطرقات هائمًا على وجهه يفكر فى أمره ، ويستعرض حالته ومآله ، منقبض النفس ، منكسرَ الفؤاد ، وظل كذلك حتى انصرم ما بقى من النهار ؛ فكرَّ عائدًا إلى الدار وقد حمل معه ما اعتاد حمله من طعام ، ودخل على قوت القلوب فوجدها تبكى بحرارة ، ولكنها كفكفت دموعها عند رؤيته ، وبشَّت فى وجهه مظهرةً السرور والانشراح ، وتناولا طعامهما ، وناما كل منهما فى حجرته مبلبل الخاطر ؛ لا يستقر على حال من القلق .

(٣)

أما ما حدث فى قصر الخليفة ، فهو أن زوجته بعد أن دبَّرت خُطتها ، وأحكمتها مع مَن عاونها فعلت فعلتها بقوت القلوب ، ونفذت مكيدتها ؛ فأبعدتها عنها ، ولكنها تحيَّرت فيما تعلل به اختفاءها عند ما يعود

الخليفة ، ويسأل عنها . فدعت بقهرمانة عجوز عندها ، وأطلعتها على سرها ، وطلبت مشورتها ، وإرشادها ؛ فقالت لها العجوز :

يا سيدتى لقد قرُب مجئُ الخليفة ، فمُرِى خادماً من خدمك أن يذهب إلى نجار ، ويطلب منه أن يصنع على جناح السرعة هيكلَ إنسان من الخشب ، ومُرِى بحفر قبر فى وسط القصر وأقيمى له مقصورة توقد فيها الشموع والقناديل ، وادفنى تمثال الخشب فيه بعد أن تكفنيه ، واطلبى من كل مَن بالقصر من النساء لُبس السواد علامةَ الحِداد ، فإذا ما جاء الخليفة انخرطنا جميعاً فى البكاء ، وانشروا التبن فى ممرات القصر وطرقاته ، فيسأل عن سبب هذا الحزن ، فقولوا جميعاً : لقد ماتت قوت القلوب ، وعظم الله أجرك فيها ، وأخبروه أنكم قمتم بدفنها فى القصر لشدة إعزازكم لها ، وفرط محبتكم إياها ، لما كانت عليه من خُلق عظيم ، وطبع كريم ، ولأنها كانت تعطف على الفقير ؛ فتكسو العارى ، وتطعم الجائع ، وكانت تعين المحتاج ، وتغيث الملهوف ، وتفرج كرب المكروب أخبروه بهذا كله مضافاً إليه أنّ ما تعلمونه من حب الخليفة إياها ، وإيثاره لها ، وتقديمها على جميع جوارى القصر ونسائه — هو الذى جعلكم تتخذون لها فى فناء القصر مقبرةً ؟ لتبقَى على الدهر قريبة من عيونكم وقلوبكم .

واعلموا أنكم إن فعلتم ذلك فإنه يصدق قولكم ، ويحمل لكم

جميلكم ، وإن ساوره شكٌ فى الأمر ، ووشى واش لديه بشىء ، وأراد التأكد من ذلك ، وفتح القبر ، لمعرفة الحقيقة ؛ فسيجد هيكلَ إنسان مدرَجًا فى الأكفان ، وإن لم يقتنع ، وأراد فتحَ الأكفان ، والاطلاع على ما فيها ، فتكاثروا عليه بالقول مستنكرين فعلته ، وذكِّروه أن هتك حرمة الميت بعد دفنه من أكبر المحرمات .

فحينئذ سيتهيَّب ، ويخشعُ ، ويرتد عن هذا الأمر ، وتخلصين أنت من هذه الورطة بمشيئة الله .

فاستصوبت زوجة الخليفة رأىَ العجوز ، وسرَّت منه ، وقالت لها :

إنى لا آمن أحدًا على تنفيذ هذا الأمر غيرك ، فخذى من النقود ما شئت ، ودبِّرى ما ترين ، على وجه السرعة .

ثم نقدت العجوز من المال ما يلزمُ لتنفيذ تدبيرها ، كما نقدتها ثمن فكرتها .

ولم تُضع العجوز وقتها سُدًى ؛ بل شرعت فى الحال تعملُ ، وكلفت النجار والبناء كلاًّ بمهمته ، هذا يبنى القبر ، وذاكَ يصنعُ النَّعشَ ؛ وابتاعت كلَّ ما يلزم لتنفيذ مشروعها .

ولم تمض بضعة أيام حتى كان كل ما صورته ودبَّرته ورتبته مُعدًّا على أكمل وَجه .

فأقيم القبرُ فى وَسط القصر ، وَدُفنت به دُمْيَة الخشب مدرجةً فى

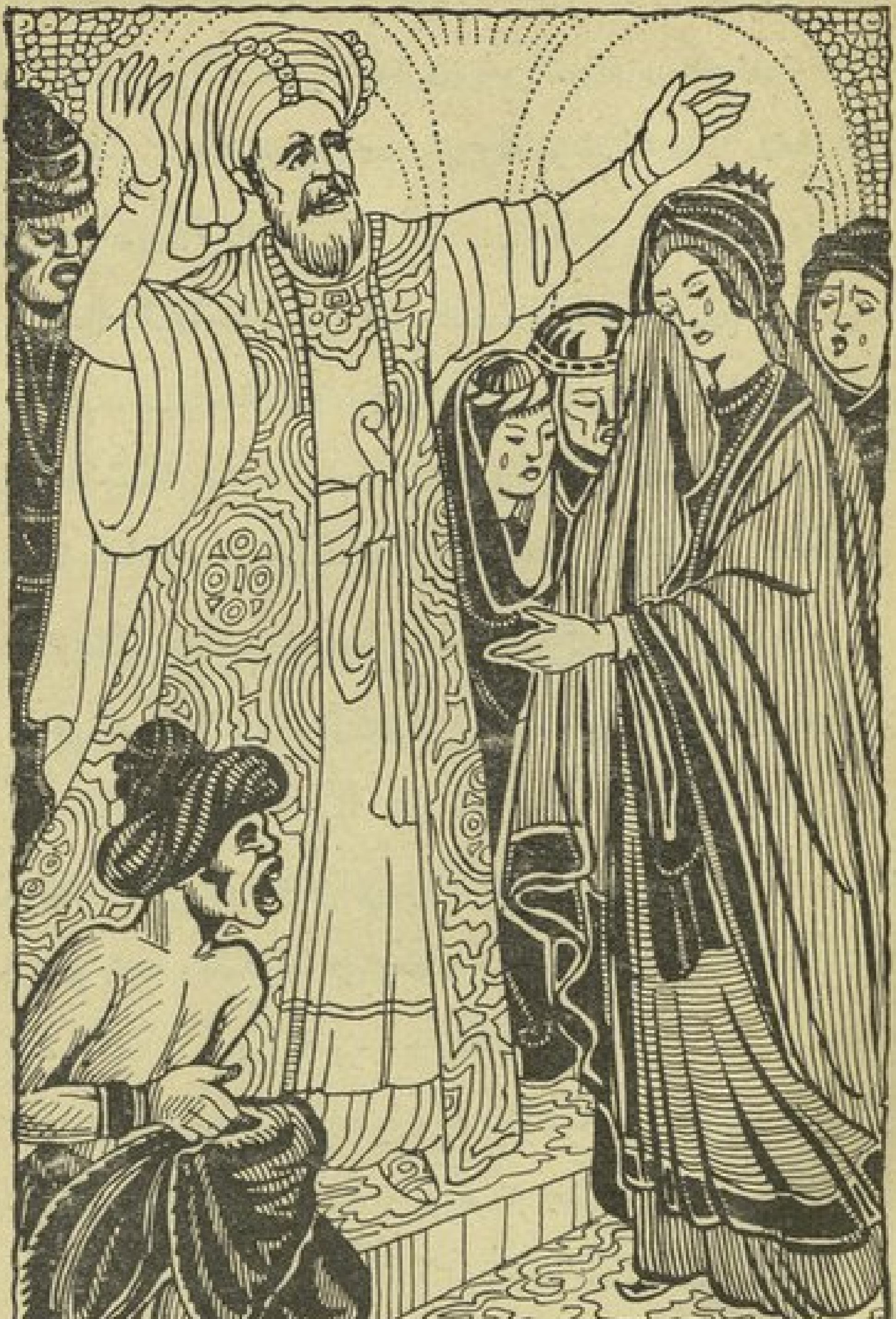

الأكفان، وأوقدت فوقه الشموعَ والقناديلَ ، وفرشت حوله البُسطَ والسجاجيدَ ، والتفَّت حوله الجواري يلبسن السوادَ، ويبكين قوت القلوب بالدَّمع الغزير ؛ وأشيع في القصر خبر وفاة قوت القلوب ، فتملك جميع من به الحزنُ والوُجوم .

وعادَ الخليفة من سفره بعد الغياب ، وكان يهل على قصره فرحاً بعودته ، مستوحشاً لأهله ، مُتلهفاً على أخبارهم ، مشتاقاً لرؤيتهم ، ينتظر وجوهاً متهللة ، ضاحكة لمرآه ، هاشةً باشة لاستقباله ، فإذا به يرى وجوهاً عابسة كالحة ، وعيوناً متكسِّرة باكية ، يطلع عليه بها أهلُ القصر .

ويسأل : ما الخبرُ فيقولون : عظم الله أجركَ في قوت القلوب .

فيرتاع أشدَّ ارتياع ، ويكاد يهوى ساقطاً على الأرض ، ثم ينظرُ إلى مُخْبِريه غير مُصدِّق ، فيؤكدون له الخبر ، ويرشدونه إلى قبرها ، ويقولون له : إن زوجتَه هي التي أمرت بدفنها في القصر إكراماً له ، فيتوجَّه إلى زوجته ، ويشكرُها على فعلها ، ويجلسُ بجوار القبر حزيناً مُلتاعاً ، دامع العين ، كسيرَ القلب ، ولكنه بدأ ينتابه الشك ، وتساوره الوساوسُ ، ويُقلقه الارتيابُ ، ويحدث نفسه : يا ويلنا ، أهذه التي ثوت في القبر ، وسكنت فيه — هي قوت القلوب ؟ ! لقد تركتها صحيحة الجسم ، فتيَّة ، لا تشكو مرضاً ولا ألماً ، فما الذي أصابها ؟ !

حقا ! قد يموت الإنسانُ من غير علةٍ ؛ وتنتهي حياتُه إذا جاء أجلُه من غير تقدّم ولا تأخر ؛ ولكن يغلبُ أن تكون لذلك مُقدّمات ؛

فما هى تلك المُقدِّمات التى انتابَتك قبل موتِكِ يا قوت القلوب ؟ !

وظل يُحدِّث نفسَه وقتاً ما ؛ ثم اعترته هزَّة عصبيَّة شديدةٌ ، جعلته يأمر بفتح القبرِ ، للتأكُّدِ من موت قوت القلوب .

ويفتحُ القبرَ ، وتخرجُ منه الدمية المكَفَّنَةُ . ولكن الخليفة يُحجِمُ ، ويتراجعُ عن الكَشف عنها لضعف أعصابِه عن تحمُّل ذلك المنظر المؤلم المُوجِع إذا كان الخبرُ صحيحاً ، وإشفاقاً على ذلك الجُثمان من امتهانِه ؛ وكانت العجوزُ واقفةً له بالمِرصاد ، حتى إذا مد يَدَه على الكفَن ، أو أمر بفكِّه . توسَّلَتْ إليه ألا يَفعل ؛ ولكنه لم يفعل .

وبذلك تمَّت الخُدعة ، وانطلَت عليه الحيلة ، وأيقَن بوفاة قوت القلوب ، وأمر بتَوزيع الصدقات على رُوحها ، وبقراءة القرآنِ حول قبرِها . وهو حزينٌ أوجَعَ حُزن ، ملتاعٌ أشد التياع .

مرَّت الأيامُ وهو يَخرجُ صباح كلَّ يوم ومساءه إلى قبرِها ، ينثُر عليهِ الأزهار ، ويقرأ ما تيسَّر من القرآن ، ويستَمْطر عليها الرحمةَ والرِّضوان .

وبينما هُو مضطجِعٌ ذات ليلةٍ ، أخذَته سِنَةٌ من النوم بعد أن قام بزيارتِهِ المعتادة للقبر ، وقد جَلسَت عند رأسه جاريةٌ ، وعند قدمَيْه جاريةٌ ، تُروِّحان له بأيديهما .

ولم يَلبَث أن انتَبه من نَومه على قول إحدى الجاريَتَيْن للأُخرى ، وهى تَظُنُّ أنه نائم !

لَشَدَّ ما أنا حزينةٌ آسفةٌ لحال سيِّدى ؛ فهو لا يُحاوِلُ أن يسَرِّىَ عن نفسِه بعض ما بها من حُزن والتِياع ، ولا يكُفُّ منذ عاد من سفرِه ، وعرَفَ وفاة قوت القُلوب المَزْعومة . عن زِيارةِ قبرها كلَّ صباح ، وكلَّ مساء ؛ وهو كما تعلَمين قبرٌ خالٍ لا شيء فيه .

فرفَعت الجارية الأخرى حاجِبَيْها دَهشةً من قول زميلتِها ؛ وقالت مستفهِمَةً : ماذا تقولين يا قضيبَ البان ؟ !

أقوتُ القُلوب لم تمت ؟ !

فقالت قضيبُ البان بصوتٍ منخفض !

ألا تعلَمين يا خيزُران ؟ ! سلِم شَبابُ قوتِ القلوب وجمالها من الموت ! !

فازدادَت دهشةُ الجارية ، واشتدَّ عجبُها ، وهمسَت هى الأخرى قائلةً :

ولمن إذًا هذا القبرُ المُقام فى وسط القصر ؟ !

إنه ليس به إلا دُمية صنعها النجارُ .

فعُمَّ على الجارية خيزران فهمُ هذه الألغاز ، ومعرفة تلك الأحاجِى ، فقالت ! !

وقوتُ القلوب ماذا أصابها ؟ ! وأين هى ؟ !

فقالت : إن سيدتَنا أرسلت مع جارِيتِها بنجا أثناء سفر سيِّدى ، فدسَّته لها ، فلما سرَى مفعولُه بها ، وغابت عن وَعْيِها ؛ وضعتاها فى

صُندوق ، وأرسلتاه مع صوابٍ وبَخيت وكافور ، وأمرتاهُم أن يَدْفنوه في أحد القبور .

فقالت خيزران مرتاعة : ويلاه ! ! وتقولين أنها لم تَمُت ؟ ! ! إنها لأشنع مِيتة يا أختاه ! !

فقالت قضيبُ البان تطمئنها !

كلا إنها لم تمت .

وكيف كانتْ نجاتُها بعد دفن الصندوق في القبر ؟ !

أجابَتْ : لا عِلْم لى بكيفية نجاتِها ، ولكنى علمتُ أنها عند شابٍ تاجر دِمَشْق يسمى غانمُ بنُ أيوبَ ، وقد شوهِدَت في داره .

فقالت خيزرانُ :

الحمد لله على نجاتِها ، ولقد سرَّنى هذا النبأ وأثلجَ صَدرى ، ولكن ما السببُ في إقامتِها بمنزل هذا التاجر المدعُوّ غانمِ بن أيوب ؟ !

ولِمَ لَمْ تأت إلى هُنا بعد عودة سيِّدها ؟ !

أخشيت يا تُرى من زوجتِه أم خوفاً عليها ؟ !

فأجابت قضيبُ البان :

لا أدرى عن هذا الأمر شيئاً ، وسِيان هى هنا أو هُناك ما دامتْ باقيةً على قيد الحياة .

ولم يُطِق الخليفةُ صبراً على التناوُم لسماعِ بقية الحديث ؛ فإنه قد استَنار وعَرف كُلَّ شىء إذ عَلِم أن قوتَ القلوبِ حية لم تمت ، وأنها تُقيم في

مَنزِل تاجرٍ دِمَشقي يُسمَّى غانم بن أيوبَ . فهبَّ قائماً يَعصِفُ به الغَضبُ، ويكادُ الشررُ يخرج من عَيْنَيه ، وتكادُ الدِّماء المتصاعدةُ إلى رأسه أن تُفَجِّر شرايينَه .

فأجفلت الجاريَتان وأحسَّتا بسوء المصير ، وأسرَعتا بالهربِ والفرار من وجهِ الخليفة الثائرِ الغاضب .

وخرج الخليفةُ مُندفِعاً إلى مجلسه ، واستَدْعَى وزيرَه على عَجَلٍ ، وأمرَه بصوت الغاضِب الحانق أن يتوَجَّه إلى منزِلِ غانمٍ بن أيوب التاجر فى الحالِ ويقبضَ عليه ، ويأتى بالجارية قوت القلوب من عنده .

فأطاع الوزيرُ الأمرَ ، واستصحب رئيس الشرطة ورجالَه إلى منزل ابن أيوب لمُداهمته .

وكان ابنُ أيوب جالساً فى هذا الوقت مع قوت القلوب يتناولان طعامَ العشاء ، فسمعا فى الطريق هرْجاً ومرْجاً ، وقعقعة سلاح ؛ فأطلت قوت القلوب من إحدى طاقات المنزل ، تستطلع الخبر ، وقد حدثها قلبُها بحقيقته قبل معرفته .

وأطلَّت قوت القلوب من النافذة ، فكان ما رأته مِصْدَاقاً لما توجَّسَته وتنبأت به :

رأت الجنودَ قد أحاطوا بالدار إحاطةِ السِّوار بالمعصم ، والسيوفُ مجرَّدة بأيديهم ، ينتظرون إشارة الهجوم على المنزل .

فارتدَّت قوت القلوب إلى الداخل مسرعة ، وقد شحب لونها ،

وارتعشت أطرافُها، وقالت لغانم بصوت متهدجٍ :

انهَض يا غانم ، وانج بنفسك .

فقال مرتاعاً : ما الخبر ؟!

قالت : إنهم رجال الخليفة وجنوده ، قد أتوْا فى طلبنا . فأسرعْ بالهربَ ، أما أنا فلا خوف علىَّ من الخليفة ، وأنا أعلم أنى لن يُصيبنى سوءٌ على يديه .

فقال حائرًا : وإلى أين أذهب ، وهنا تجارتى وأحمالى ومالى ؟!

فقالت مهيبةً به تستحثه على الإسراع بالهرب :

أسرعْ وإلا ذهبت نفسُك ومالُك وتجارتُك ، والإبقاء على النفس أوْلَى من الإبقاء على المالِ ، وما قيمة مال قارون إذا تلِفَتْ نفسُك ؟! وأنت إذا قدِّرَ لك أن تعيش أمكنك أن تعوِّض ما تفقده من تجارتك ومالك .

فنهض وصار يتجه يميناً ويجرى شمالا ، لا يدرى من أين يفِر ؟ ولا مِن أىِّ مَنفذ ينفذ ؟ وأخيرًا قال :

إننى لن أهربَ ، ولن أفرَّ ، وأدعكِ هنا وحيدة بين أيديهم ، فسأبقى معك ، وليكن ما يكون .

فصرخت فيه قوتُ القلوب قائلةً :

لا تكن أبلَه قلت لك إننى لن يصيبنىَ مكروه ، أما أنت فستكون فى كفة القدر ، وتحت رحمة الخليفة ، والخليفة قاسٍ غيور ، ولن يُمْهِلَكَ

حتى أفهمَه الحقيقة ، ولكنه سيبادر بإهلاككم ، فانج بنفسك أولًا ، ودع ما بعد ذلك على الله .

فقال : وإلى أين أتجه ؟! وأين المفر ؟! وقد أحاطوا بالدّار من كل جانب .

فقالت : لا تخف ، وتنكر فى ثياب رجل مِسكين ، واخرج من بينهم قبل أن يَدُقُّوا علينا الباب ، ويعرِفوا أنّا فطنّا إليهم ، فيكشفوا أمرَك .

وبأسرع من لمحِ البصر ألبستْهُ ثيابًا بالية ممزَّقةً ، وأتتْ بِسَلةٍ بها بعضُ اللحم الذى كان منذُ لحظةٍ يأكلان منه كما وضعتْ بعضُ كِسر الخبز وبقايا الطعام .

وقالت : انفذ الآن من بينهم مصحوبًا بالسلامة .

ولم يتّسع الوقتُ بينهما لوداع ، فأخذتْهُ من يده وصارت به إلى الباب وفتحتهُ له ، وهى مُتوارية خلفه ، وأخرجتْهُ منه .

وكان جماعة من الجند عَلَى وشك دقِّ الباب واقتحامه .

فرأوا رجلًا مِسكينًا خارجًا منه ومعهُ فضلة طعامٍ ، فظنُّوه ذا حاجة ، وتركوهُ يمضى لشأنهِ ، وأسرعوا هُم بالدُّخولِ إلى الدّارِ ، لمباغتةِ أهلها . . .

وكانت قوتُ القلوب قد كرَّت إلى الداخل فسوَّت من هيئتها ،

وجمعت حُلِيَّها وجواهرها إلى أموال غانم وتُحفه وطرائفه ، ووضعتها في صندوق .

وكبسَ الوزيرُ ورجاله الدار ، وصاروا يفتشون في حُجُراتها ، فقابلتهم مُظهرة الدَّهشةَ من دُخولهم ، والفزع من هُجُومهم ، فلما وقعت عيناها عَلَى الوزير ، وعرفها وعرفته — تقدَّمت منه ، وجثت أمامه ، وقبَّلت الأرض بين يديه تبْجِيلًا له ، وقالت :

يا سيِّدِي جرى القلمُ منذُ القِدم بما حَكم الله .

فأنهضها الوزيرُ وقال :

لا بأس عليك ياَ سيِّدتي . إنه ما أوصاني إلا بالقبض عَلَى غانم بن أيوب . !

فقالت : يا سيِّدي إنه ليس هُنا ، وقد أخذ تجارته ، وذهب بها إلى دمشق .

فقال دهِشًا : كيف ذلك يا سيِّدتي ، والعلم عندَنا أنه هُنا ؟ !

فقالت : إن خبرهُ ما أخبرتك ، ولا عِلْم لي بغير ذلك .

فقال : وكيف أعودُ بك إلى الخليفة من دُونه ، وما غريمهُ إلا هو ؟ ! !

فهزت كتفيها غير مبدية رأيًا ، وأشارت إلى الصندوق الذي جمعت به ما جمعت من نفائس ، وقالت :

رجائي أن تحفظ لي هـذا الصندوق ، وتسلمهُ لي عند وصولنا إلى

قصر أمير المؤمنين ، فهو مِلكى الخاص .

فقال : لك ذلك .

ثم صحبها ، وأمر أتباعه بحمل الصُّندوق ، وأركبها فرسًا ، وسار بها إلى قصر الخليفة ، عزيزةً كريمةً ، مصونةً ، بعد أن أباح للجنود نهب دار غانم بن أيوب .

ولما وصل الوزيرُ بقوت القلوب إلى القصر . أدْخَلها إحدى قاعاته مع نفرٍ من رجاله ، ودخل هُو إلى الخليفة وأعلمه بما تمّ .

اشتدّ غضبُ الخليفة ، وحنقُه على غانم لإفلاته من يده . وبدأ يسخَط عَلَى قوت القلوب ، لظنّه أنها كانت تُقيمُ عند غانم بن أيوب برغبتها ومحض إرادتها .

فأمر بإفراد غُرفةٍ لها وحجزها فيها ، ووكلَ بها امرأة عجوزًا لقضاء حاجاتها .

وأرسل كتابًا إلى عامِله بدمشق ، يطلب منه القبض عَلَى غانم بن أيوب حال وصول الكتاب إليه .

فما أن وصل الكتاب إلى عاملِ دمشق ، حتى أرسلَ المنادى ينادى فى الأسواق :

« من أراد أن ينهب فليِأتِ بدار غانم بن أيوب » .

وتوجه الجندُ إلى دار غانم ، فوجدوا أمّهُ وأخته جالستين تندبانِهِ ، وتبكيان عليه ، لغيابه الطويلِ ، وانقطاعِ أخباره عنهما ، فقبضوا عليهما ،

ونهبوا دارهما ؛ وذهبوا بهما إلى الوالى .

وسألهما الوالى عن غانم ، فأخبراه أنهما لم يرياهُ منذُ فارقهما من سنةٍ للاتجار ببغداد .

فأمرَ بإخلاء سبيلهما .

فلما عادتا إلى دارهما وجدَتاها قاعًا صفصفًا ليس بها درهم يُنفقُ ، ولا حَبةٌ تؤكل ، ولا خَاقةٌ تستر عورة .

فزادت أحزانهما ، وتضاعفَ وجدهما ، وخرجتا إلى الطريق هائمتين وهما تبكيان من جفنٍ مقْروح ، وتنعيان من كبدٍ مجروح ، وتشكوان إلى الله ظلم الجبَّار للضعيف .

(٤)

أما الحالُ والمآل اللذان صار إليهما غانم فكانا أسوأ حال ، وأشنع مآل.

هام على وجهه فى الطرقاتِ ، يتلصَّصُ تلصّصَ المُجرمين ، ويختبئُ اختباء المشبوهين . ينشَطُ فى الظلام ، ويختفى فى النهار كالخفافيش .

ولفظَته الطرقات إلى العَراء ، فهام بين الرمال والكُثبان ، يتوجَّس من كل عابر خِفية ، ومن كل مار ريبة .

عَضَّه الجوعُ فوهَن جلده ، وأحرقه الظمأ فالتهب حلقُه ، وَأرمضه الهجيرُ فاستَعَرَ جسده ، وقادته قدماه الواهنتان مع دخول الليل إلى

حدود إحدى القرى ، فارتمى بجانب جدار مسجدٍ بها ، يعانى وَقْدَة الحُمّى ، ويُقاسِى تباريحها .

وأتى المصلون إلى المسجد يصلون الفجر ، فسمعوا صوتاً يَئِنُّ ، ورأوْا جسداً يرتجفُ ، فاقتربوا من صاحبه يتعرّفون حاله . وأدركوا أنه غريب مريض . فقال له أحدهم مَن أنت ؟! ومِن أين أقبلت ؟! وما سبب مرضك ؟! ففتح غانم عينيه ، ونظر إلى مُحدِّثيه ، وبكى ولم يرُد جواباً .

فأدرك أنه مريض وجائع ؛ فذهب ، وأتى له بعسل وماء ، وأطعمه وسقاه . ثم نقله هو ورفاقه إلى غرفة ملاصقة للمسجد ومرضوه على قدر ما يعرفون ، ثم انصرفوا إلى أعمالهم ، ومضوْا إلى حال سبيلهم .

وما زال هذا شأنُهم ؛ يسألون عنه ، ويعودونهُ ، ويتناوبون كل يوم فيما بينهم إحضار شيء من الطعام والشراب اللذيْن يُصْلِحَانه ، ويُناسبان مرضه ؛ وظلوا كذلك شهرًا كاملا .

أما هو فقد ازدادت حالتُه سوءًا على سوء ، واشتد جسمه ضَعفا فوق ضعْف ، وبدا عليه الهُزال . فغارت عيناه ، وبرز خدّاه ، وذاب شحمُه ، ودَقّ عظمه ، وصار جلدًا على عظم ؛ تقتحمه العين ، ويبذؤه النَّظر ، ويزكم الأنفَ نَتْنُ الرائحة المنبعثة منه ، وتتألم النفسُ حسرة عليه ، وتتقززًا من أدْرانِه .

واجتمع نفرٌ من أهل البلدة يتشاورون فى أمر هذا الغريب العليل ، وما ينبغى عليهم فعله معه ، وما تُمْليه المروءةُ إزاءهُ . فارْتأوْا أن يحملوه

إلى دَار الطبِّ ببغدادَ ، لعله يجد هناك من عناية الأطباء والممرضين ما يزيل عنه عِلَّتَه ؛ وكان الليل قد أقبل فأجَّلوا ذلك إلى الصباح .

وفى تلك الليلة حطت بجوارِ المسجد امرأتان بائستان ، لا تسترُهما غير أسمالٍ بالية ، تبغيان من جِداره سِتارًا يسترُهما ، ومن حائطه مَلْجأً تأويان إليه حتى الصباح .

ووصلت إلى اذانهما أناتُ العليل الخافتة المتقطعة ، فرثَتا لحالِه ، وخفَّتا إليه ، تسألانه ما به ؟ ! وحاولتا العملَ على تخفيف آلامه . فقد أشعرهما بُؤْسُهما مقدار بُؤْسه ، وأحسَّتا لآلامهما مبلغ آلامه .

وإن كان لا يزال بالمريض بقية إدراك ، وفضلةٌ ضئيلةٌ من إحساس بالحياة — أعانته على أن يدرك أن فى نفسه حنانًا لا يدرى سببه نحو هاتَيْن المرأتَيْن البائستَيْن، أو أدرك أنه يضمُهما وإياه البُؤْسُ والحرمان ، والضَّنَى والآلام ، وظُلْمُ المجتمع القاسِى الذى لا يرحَمُ ؛ وما أشد قسوتَه وأمَرَّها إذا أذاقها بريئًا لم يرتكب ذنبًا ، ولم يقترف إثمًا .

وحاول أن يتحدَّثَ إليهما فلم يستطع أن يفعلَ أو يردَّ جوابًا ؛ وإنما استطاع أن يُشير لهما إشارةً خفيفةً إلى حيث كان بجانب رأسه بعض فضلات من طعام ، وكسرات من الخبز ، جاد عليه بها أهل الخير ، ولم يستطع أن يذوقها لشدَّة مرضه ، فلعلهما تجدان فيها زادًا يردُّ جوْعَتَهما .

ولم ترفضْ الفقيرتان ، لأن كَلَبَ الجوُع عضَّهما ، فأكلتا من طعامه ، وقضيتا ليلتهما بالقربْ منه .

ولما أصبح الصباحُ حضر إلى المسجدِ نفرٌ من أهلِ البلْدَةِ ، ومعهم جَمَّالٌ وجمَل ، وأتَوْا إلى غَانمٍ فحملوُه فيما بينَهم عِظاماً ملفوفةً فى ثياب مُهلهلةٍ قذرة ، حالَ لونُها مما تراكم عليْها من أوْساخ . يظهرُ من بينها وجهٌ معْروقٌ ، يتوسطه عينانِ مُسْبلتَان كادَ يخْبُو منهما بريقُ الحياةِ . ووضعوه فوقَ الجملِ ، وقالوا لصاحبه :

اذهبْ بهذا المريض إلى بغدادَ ، وأنزله أمامَ بابِ المارستانِ ، لعَلَه يعالج ، وتُصيبه العافيةُ ؛ ولك عند الله الأجر والثوابُ .

فقال الجمال : سأحْمِله إلى المارستان ، وأجْرى على الله ، وإن كنتُ لم أُرْزَق فى هذا اليوم شيئاً . وسار به الجمال ؛ والمرأتانِ الفقيرتان تنظُرانِ إليْه ، وتبكيان لحاله ، وتقول كبراهما : إنى لأجدُ ريح غَانم .

فترد الصُّغرى ! وفى وَجْهه مَلامحُه وقَسماتُه ، وفى صوْته الخافت نبراته ، وفى جَفنيه المنكسرين الذَّابلين ألحاظه ، وتحومُ حولَ شفتيه ابتسامةٌ شاحبة كأنها ابتسامته ! كأنه هو .

ثم تنصرفان تجددان الحزنَ ، وتُطْلِقان الدُّمُوع .

الكُبرى على ولدِها ، والصُّغْرىَ على أُخيها .

وكان الولدُ ، والأخُ . هو غانمُ بن أيوب .

وكان أمامَهما ، وبين يدَيهما ، ولكنهما لم تعرِفاه ، ولم يعْرفْهما ، فقد نالَ منه البؤسُ حتى غيره ، ونال منهما الحزن حتى غيرهما ، فلم تعرف الأم ولدها ، ولا الأختُ أخاها ، إلا أنهُما وجدتا ريحه ، وأحستا عطفاً

عليه ، وحنانًا إليه ، لم تُدْرِكا سَببه . ووصل الجمال بالعليل إلى بغداد ، وسار به إلى المارستان ، وكان الوقتُ ليلًا ، وأنزله ببابه ، حتى يخرج الخدَم فى الصّباح فيجدوه بالبابِ ، فيأخُذُوه ، ثم تركه وانصرف .

ولما دبّت الحياةُ فى الطرقات ، وخرج التجارُ إلى متاجرهم ، وجدوا غانمًا مُلْقى أمامَ باب المارستان تتردد أنفاسُه ببطءٍ وخُفُوتٍ .

فاجتمعوا مِن حَوْله بعضهم يقول إنَّه رجُلٌ مَيِّتٌ ، وبعضهم يقول إنه لايزال على قيدِ الحياةِ .

وكان شيخُ السوق مارًّا ، فلما رأى الناسَ مجتمعين ، فسألهُم عَلاَم يجتمع هؤلاء الناسُ ، فوصَفوا له حال المريض ، ففرّق الناس ، ونظر إلى وجه المريض وقال: إن هذا المريض يحتاجُ إلى أيد رحيمة ، وعناية بالغةٍ ، ولو تلقته أيدى الخدم بالمارستان يوما واحدًا لما اهتموا به ، ولمات أمامَهم كما يموت الحيوان ، فإنهم قساةُ غلاظ القلوب ، لا يعرفون رحمة ، ولا شفقة .

وكان هذا الشيخُ رجلاً ذا مُرُوءةٍ ، ورحمةٍ ، فأمر غلمانه بحمل المريض إلى داره فحملوه إلى الدار ، وهو معهم ، فلما وصلوا ، قال لامْرأته :

رَجَائى إليك أن تمرضى هذا المريض لعله يُشفى ، وسَيكون جَزاؤكِ عند الله عظيما .

فقالت : سمعًا وطاعةً ، وعلى الرَّحْبَ والسَّعة .

وكانت المرأة لا تَقِلُّ عن زوجها عطفًا وشفقةً ورحمةً ، فتهيأتْ لهذا الأمر راضيةً ومنحت المريض كثيرًا من وقتها ، وعنايتها ، ورعايتها .

فأتت بماء ساخن ، وغسلتْ له أطرافه ، واستبدلتْ بملابسه ملابس أخرى نظيفة بمعونة بعض خدمها ، ورشَّتْ على وَجْهه ماء الورد ، فأفاق من غَشيته ، وفتح عينيه فسقتهُ شرابًا دافئًا أنعش جِسْمَه ، وأجرى فى عُروقِه دمُ الحياةِ ، فأرقدته على فراش ، ودثَّرته بالأغطية .

(٥)

وظَلَّت قوتُ القلوبِ بمحبسها بعد غَضب الخليفة عَليْها ما يُنيف على الثمانين يومًا، تُعانى الوَحْدة ، وتتعَلَّلُ بالآمالِ إلى أن كان يومٌ اتفق مرور الخليفة فيه بمكانها ، فطَرقَ سمْعه صوتها تُنْشِد الأشعارَ الحزينة ، وتترنَّمُ بالأصوات الباكية ، فتمهَّلَ فى سَيْره يسْتَمعُ ، فسمعها تقول وهى تبكى :

آه يا غانم ! ! ما أحسنك ! ! وما أعفَّ نفسك ! ! أحسنتَ إلى من أساء إليكَ ، وحفظت حرمة من ضَيَّع حرْمَتَك ، وحفظتِ ودَّ من لا يحفَظُ الوُدّ ، وجامَلْتَ من لم يُجامِلك ، وسَباكَ وسَبى أهلك ؛ ولابد أن تقف أنت وأمير المؤمنين بين يدى حاكم عادل ، وتنتصِفُ منه ، يوم يكونُ القاضى هو الله ، والشهودُ ملائكةُ الله .

فلما سمع الخليفة قولها ، وبكاءها ، خشع قلبه ، وأدرك أنه غبنها ، وظلمها فقصد إلى جناحه ، وأمر باستِدْعائها إليه .

فأتت ووقفت بين يديه مُطرقةً حزينةً .

فقال لها : ياقوتَ القلوب ، أراكِ تتظلمين منى ، وتَنسُبيننى إلى الغدر

وتزعمين أني أسأت لمن أحسن إليَّ، فمن هو الذي حفظ حرمتي، وانتهكت حرمته، وستر حريمي، وحفظ عليّ عِرْضي، فلم أحفظْ عِرضه، وجاملني، ولم أجامِلْهُ ؟ .

فسكتت، وأطرقت، وانهمر من عينيها دمعٌ غزير.

فقال: تكلمي، ولا تخافي، أريحي قلبي، أرح قلبك.

قالت: هو غانمُ بن أيوبَ، فإنه أنقذ حياتي، وآواني، وما مسّني منه سوء، وأراد أن يتزوج مني، فلما علم أنني مملوكةُ الخليفة أحجم، وتهيب احتراما له، وعاملني معاملة الأخ الكريم.

فقال الخليفة، بعد أن أطرق هنيهة: سبحان الله!! وأين هو الآن؟

فقالت: لا علم لى بمكانه، وقد انقطعت عنى أخبارُه، وأظنه شريدًا طَرِيدًا، هائمًا على وجهه، فإنه لا مال معه، ولا مأوى له، فقد سمعت أن رجالك نهبوا داره بدمشق، وشردوا أهلَهُ.

فعاد الخليفة إلى إطراقه مفكراً، ثم رفع رأسه إلى قوت القلوب، وقال: حقًّا. لقد ظلمناكِ، وظلمنا صاحِبَكِ، وعَلَيَّ أن أعوِّضَك عما لحقك فتمنى عَلَيَّ يا قوت القلوب، تنالى ما تتمنين.

فقالت قوت القلوب: أحقًّا يا مولاى تنيلني ما أتمنى، ولا تبخل عَلَيَّ بِهِ ؟!

فقال: إنى وعدتك وعد رجل حُرٍّ، ووعد الحرِّ دينٌ عليه.

قالت: تمنيتُ عليك يا أمير المؤمنين غانم بن أيوب.

قال : إنَّهُ فى أمَان .

قالت : وإن أحضرْتَهُ تهبُنى له ؟

قال : أهَبُكِ له هِبةَ من لا يرجعُ فى عطائِه .

فكادَتْ أن تَطيرَ من فوقِ الأرضِ من شدَّةِ الفَرحِ ، وقالت : إذن ائذَنْ لى فِى البَحْثِ عنه .

قال : افعلى ما بَدَا لَكِ .

وخرجتْ قوتُ القلوبِ من لَدُن الخليفةِ لا تَسعُها الدُّنيا ابتهاجًا وسُرُورًا ، فقد نالتْ ما كانتْ تحلمُ به .

نالتِ الحُرِّيةَ ، وأخذتِ الأمانَ لغانِم ، ووُهِبَتْ له .

آه ما أحْلَى الحياةَ ، لو كانَ بِجوارها الآن غانم .

وصدمتها الحقيقة المُرَّة .

أين منها الآن غانم ؟ ! ما أدراها ! ! إنه قد يكون خلفَ الديارَ هربًا مما جرى عليه بسببها ؟ من يعلمها بمقره ؟

وانقلب فرحها ترحًا ، وسرورها حزنًا ، وابتهاجها غمًّا ونكدًا .

لا بدّ لها أن تجد فى البحث عنه ، باذلةً فى سبيل ذلك الجهد ، والوقت والمال . ولم تتوان ، فاتجهت من فورها إلى صندوق مالها ، وأخذت مبلغًا كبيرًا منه ، وأرسلت رسلها إلى المساجد ، ومجالس الفقراء ؛ فأعطت ، وتصدقت ، ووهبت ، مفتتحة عملها وسعيها بفعل الخير ، وترجو من ورائه أن يعثرها اللهُ عليه بين هؤلاء .

وفي اليوم الثانى ، أخذت مبلغاً آخر ، وأرسلت به رسلها إلى السوق التى كان يتجر فيها غانم،وأمرتهم أن يذهبوا إلىشيخ السوق ، وأن يعطوه المال ، ويقولوا له : تصدق بهذا المبلغ على الغرباء ، وكل من كان منهم فى عوز ، أو ضائقة ، فالسيدة قوت القلوب تسد عوزه ، وتفرق ضائقته .

وفى اليوم الذى يليه ، أرسلتْ رسلها إلى شيخ سوق الصّاغة ، وعملُوا معه مثل الذى فعلوه بالأمس .

فقال لهم : أبلغوا سيدتكم هل لها أن تذهب إلى دارى ، وتنظر فى أمر شابٍ مسكينٍ غريبٍ عندى ، ألحَّ عليه المرضُ ، وأضنته العلّةُ .

فلما أبلغوها حديث شيخ سوق الصّاغة ، خفق قلبها ، وأحست به يتمشى بين ضلوعها ، وخطر لها أن يكون هذا الغريب المريضُ غانم بن أيوب .

فذهبتْ إلى الشيخ ، وقالت له : حباً وكرامة . أرسل معى أحدَ غلمانك يرشدنى إلى منزلك ؛ لأرى هذا الغريب المكروب .

فأرسَل معها صبيًا صغيرًا ، أوصلها إلى الدار ، فدخلت إلى زوجة الشيخ ، فعرفت أنها قوت القلوب ، جاريةُ الخليفة ؛ فقامت إليها ، ورحبت بها ، ولما عرفت ما تريد صحبتها إلى القاعة التى بها غانم .

ونظرت قوت القلوب إلى غانم ، ولكنها أنكرته ، وغُمَّ عليها الأمر ؛ رأت جسداً ضامراً تحت الأغطية لا يكاد يرى ، يعلوه رأسٌ معصوبٌ بعصابَة ، تبرزُ فيه عظمتان ناتئتان هما وجنتاه تنحدران إلى أخدودين

غائرين وهوتين داكنتين ، هما عيناه ، فقالت :

رباه ! كن فى عون هذا المريض البائس ، واكتب له الشفاء .

يا ترى من يكون ؟؟

هذا ما تمتمت به قوت القلوب بينها وبين نفسها ؛ ثم التفتت إلى امرأة الشيخ وقالت لها :

من أين جاءكم هذا الغريب ؟؟

أجابت : وجده زوجى ملقى فى الطريق ؟ ولا نعرف من أمره شيئاً ، وإن كُنا نرجح أنه كان من أهل العز والنعمة ، وجار عليه الزمان .

فقالت قوت القلوب راثيةً : حقاً إن الغرباء مساكين ، وإن كانوا أمراء فى بلادهم ، ثم سألتها عما يتناوله من أغذية وعلاج ، فعرفتها بما تعده له ، فعاونتها فى إعداده وتحضيره ، وبقيت بجوار المريض بعض الوقت ، ثم انصرفت ، وفى قلبها شعور غامض من الحنان والحب والشفقة بعد أن وعدت صاحبة الدار بمعاودة زيارتها للمريض .

ودأبت قوت القلوب على تقصى الأخبار عن غانم والسؤال عنه ، ولـكن دون نتيجة ، فلم تقع له على خبر ، ولم تسمع عنه نبأ .

وفى ذات يوم أتاها شيخ السوق الذى يأوى فى داره غانماً ، وكانت بمقامها بقصر الخليفة ، فاستأذن فى الدخول عليها ، فأذنت له ، فقال لها :

يا سيدة المحسنات ، قد دخل مدينتنا اليوم ، امرأةٌ وابنتُها ، تنطق سماتُهما بالبؤس والشقاء ، وتعبر قسماتُهما عما لقيتاه من ذِلَّةٍ وهوان ، ويكسو

وجههما الخجل والحياء ، ويقيني أنهما كانتا من أهل النعمة والثراء ، وغدر بهما الزمان . وهما لابستان ثياباً من شعر ، وفي رقبة كل منهما مخلاة من خز ، وقد أتيت بهما إليك ؛ لتأويهما ، وتكفيهما شر التسول ، ولكِ عند الله حسنُ الجزاء .

فقالت قوت القلوب :

يا سيِّدى ، لقد عطفت قلبي عليهما ، فأين هما ؟

قال : بالباب .

قالت : إليَّ بهما .

وأمرت الخادم باستدعائهما .

فلما دخلتا عليها ، ونظرت إليهما ــ وجدتهما ذواتى حسنٍ وجمال ، رغم شحوبهما وهُزالهما ، ورأت علامات الحزن مرتسمةً على وجهيهما ، فرثت لحالهما ، وقالت :

مرحباً بكما ، من أنتما ؟

فردَّت الصغيرة : أنا اسمى فتنة ، وهذه أمى .

فقالت قوت القلوب : إنك فتنة للناظرين كاسمك يا فتنة ، ومن أين أقبلتما ؟

فانهمرت الدموع من عينى الفتاة ، وخنقتها العبرات ، فلم تستطع الرد .

فقال الشيخُ : لا بأس عليك يا بنيتى نحن نحب الفقراء ، ونأخذ بيد ذوى الحاجة والضعفاء ، فسرى عنكِ ، ولا تبتئسى ، والله يكلؤكِ ،

ويرعاك . ولعل الله أراد خيرًا حينما ألهمنى أن آتى بكما إلى أعطف النساء، وأرقهن قلبًا وأكثرهن حنانًا .

فقالت قوت القلوب ، وقد أثر فيها ما هُما عليه من البؤس وَالضَّنك : صدقت يا سيدى ، فإنهما من أهل نعمة وعزٍّ وجاهٍ .

ولم تتمالك المرأتان نفسيهما ، فأجهشتا بالبكاء ، فبكت لبكائهما قوت القلوب ، ثم قالت :

لا تخافا ، ولا تحزنا ، فسيعوضكما الله خيرًا ، وسيبدل لكما بالبؤس نعيما ، وبالذل عزًّا ، وبالضيق سعة .

فقالت الأم : واجمعنا يا إلهى بحبيبنا وعزيزنا ولدى غانم بن أيوبَ .

فبُهتت قوت القلوب لقول المرأة ، وعرفت أن هاتين المرأتين هُما أم غانم ، وأخته ، وأنهما مشردتان فى الأرض تبحثان عنه ، وأن مطلبهما هو مطلبها ، وأن غايتَهما هى غَايتها .

فاهتزّ قلبُها حنانًا لهما ، وازدادت نفسُها حسرةً عليهما ، وعلى ما آلت إليه حالهما ، ولا سيما أنها كانت السبب الأول فيما أصابهما من سوء ، ووَقع بهما من محنة .

فتنهدت ، وأطرقت برهةً إلى الأرض ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

لا بأسَ عليكما ؛ فاليومُ أولُ سعادتكما ، وآخرُ شقائكما ، وسيجمعكما الله قريبًا بمن تحبان ، فلا تيئسا من رحمة الله .

ثم طلبت من الشيخ ، أن يأخذهما إلى منزله ، ويوصى زوجته بهما

خيرًا ، ولتعمل على إكرامهما ، فتدخلهما حماماً ، وتلبسهما ثياباً حسنة ، وتفرد لهما حُجرةً ، وأعطته نظير ذلك جملة كبيرة من المال .

وفى اليوم الثاني ركبت قوت القلوب ، ومضت إلى منزل الشيخ ، فقابلتها زوجته بالترحاب ، ووجدت أم غانم ، وأخته جالستين ، وقد أظهرتهما الملابس النظيفة الثمينة فى مظهر جميل ، وبدت عليهما مخايل النعمة والجاه . فجلست معهما تتحدثُ وقتاً ، ثم قالت لصاحبة الدار :

ما حال مريضك ؟

فقالت زوجة الشيخ : على ما هو عليه .

قالت : هيَّا بنا إليه لنعُودَه .

فقُمن إليه جميعاً ، وجلسن عنده .

وكان غانمٌ قد ابتدأ يصْحُو ذهنهُ ، ويتذكرُ حاله ، وحبه ، ولوعته ، وتشرده ، فترتسم أمام عينيه صورة جميلةٌ قبيحةٌ مضيئةٌ مظلمةٌ ، ليس لجمالها ونورها حدودٌ ، وليس لقبْحِها وإظلامها حدود كذلك .

وبينما هو راقدٌ شاردُ العقل ، مختلطُ الفكر ، سابحٌ فى تأملاته ، يستعرض ماضيه ، طرق سَمْعه صوت النِّسوة ، وهُنَّ يتحدثْن ، وسَمِعهنَّ ينادين قوت القلوب .

فخفق قلبه ، وفتح عينيه ، وأدار رأسه إلى ناحيتهن ، ونادى بصوت ضعيف خافت : يا قوت القلوب :

وبدافع لاشعورى هبَّت قوت القلوب ملبيِّةً النداء ، قائلة :

نعم ياحبيبي .

ونظرت إلى وَجهِهِ فتيقّنَته ، فقالت :

إنه غانمُ بنُ أيوب !

فقال : نعم أنا هو ! اقتربى منى ! تعالى إلىّ ! ناولينى يدكِ !

فاتجهت إليه ، ووقعت مغشياً عليها .

وسمعت الأُم صوت غانم ، ورنَّت فى أذنها نبراته ، والتقت عيناها بعينه ، فصاحَتْ :

غانم ! ! ابنى ! ! حبيبى ! ! قلبى ! ! كبدى ! ! حياتى ! ! نور عينى ! !

وكذلك سمعت الأخت صوت غانم ، ورن فى أذنها نبراته ، والتقت عيناها بعينه ، فصاحت :

غانم ! ! أخى ! ! عضدى ! ! ساعدى ! !

ثم سقطتا مغشياً عليهما من شدّة الفرح .

ولما أفقن التففن حول غانم ، وأخذت أمّه ، وأخته تُقَبِّلانه ، وتسألانه عن حاله ، وصاحبة الدار تهنئهن جميعاً باجتماع شملهن بعد طول الغياب .

وأخبرت قوت القلوب غانماً بعفو الخليفة عنهما بعد أن عرف منها طيب خصاله ، وحسن أخلاقه ، وبأنه قد وهبها له ، وبأنه يود أن يراه

ففرح غانم ، وانتعشتْ نفسه ، وقويتْ رُوحه ، واشتد عزمهُ ، وشعر أنّ الشفاء يُعاوده سريعاً ، فقامَ ، وجلس معهُن ، يسمعُ منهن ،

ويسمعْن منهُ ، فكأنه لم يدخل جسمه مرضٌ . وكأنهن لم يتعذّبن من أجله ، فبردت القلوب ، وارتوت الأكبادُ ، واستروحت النفوس .

واستمهلتهم قوتُ القلوب بعض الوقتِ ، وخرجتْ ، ثم عادتْ ومَعها صندوق الجواهرِ والمالِ والأشياء التى جَمعتها من دار غانم ، يومَ قبض عليها .

وأخرجت للشيخ مبلغاً من النقود وطلبت منه أن يبتاع لكلٍّ من من غانم وأمه وأخته حُللاً من أنفس ما فى السُّوق ، وأقامتْ فى منزل الشيخ بضعة أيام تعنى بأمر غانم وأمّه وأخته ، وتطعمهم مساليق الدجاج والفاكهة ، وتسقيهم ماء السكر والزَّهر .

وكان قرب قوت القلوب من غانم من أكبر العوامل التى ساعدت على إصلاح نفسْه وعجلت بشفائها .

أمّا أمه وأخته فقد فاضت بهما الهناءةُ والسعادةُ ، وعادت إليهما صحتهما وحيويتُهما ، وزادت فتنةُ ففاضت ملاَحتها ، وصارت حقاً ، فتنة للناظرين .

وعادت قوت القلوب إلى قصر الخليفة ، وطلبت الإذن لها بالدخول عليه ، فأذن لها .

فدخلت عليه ، وقصّت له خبر غانم وأمه وأخته .

فقال لها : علىّ بغانم .

فرجعت إلى غانم وأعلمته رغبة الخليفة ، ثم أعدّت له الحمام فاغتسل

وألبسته حلة جميلة ثمينة ، وأعطته مبلغاً كبيراً من المال ، وقالت له :

ابذل العطاء لحاشية الخليفة ، ولا تبخل ، وعليك فى حضرة أمير المؤمنين بثبات الجنان وفصاحة اللسان ، وعذب الكلام .

ثم صحبته هو وأمه وأخته إلى قصر الخليفة .

وكان الخليفة فى مجلسه يحيط به وزراؤه ، وأرباب دولته ، وأعلن الحاجب اسم غانم بن أيوب ، وكان جميع الجالسين يعلمون غضب الخليفة عليه ، ثم رضاه عنه ، فشخصت أبصارهم نحو الباب ، يتلهفون على رؤيته

ودخل غانم ؛ فرأوه شابا وسيما فارعا ، وإن كان به بعض الضمور والشحوب من أثر مرضه النفسى الطويل .

ونهض الوزير الذى ذهب يوما للقبض عليه ، فقدمه إلى الخليفة والجالسين ، وألقى غانم التحية ، ثم أطرق إلى الأرض ، وتحدث بلسان فصيح ، ومنطق سليم ، سر الحاضرين ، وبدا على وجه الخليفة الرضا عنه ، وقال له :

قص على ياغانم قصتك ، واذكر كل ما لاقيت ، وما قاسيت .

فقص غانم قصته من يوم أن خرج بتجارته حتى مثوله بين يديه .

فعجب الخليفة والسامعون أشد العجب وقال :

حقا يا غانم ، لقد قاسيت كثيرا ، وظلمك الزمن ، وقسا عليك ، وإن شئت فقل : إننى أنا الذى ظلمتك وقسوت عليك ، وسأكفر لك عن هذا كله لأبرئ ذمتى ، وأرضى ضميرى .

فقال غانم : يا مولاى ، العبد وما ملكت يداهُ لسيِّده .

فَسُرَّ الخليفة منه ، وسأله عن أمه وأُخْتِه ، فقال :

إنهما بِرضاه فى أسعدِ حالٍ ، وأهنأ بالٍ ، وأرغد عيش ، وأكرم مَنْزل .

فأنعم عليه الخليفة ، وخلع عليه ، وأمَرَ بإفْرَاد قصر له ولأمه وأخته .

وبعد عدَّة أيام دَعا الخليفةُ غانمًا إليه ، وكان قد سمعَ بفَرْط جمال أخته فتنة ، وقوَّة جاذبيَّتها ، وكثرة أدَبها ، ورجاحة عقْلِها ؛ فخطبها منه

فَفَرِحَ غانمٌ ، وقال : يا مولاى إنه شرفٌ ليْس فوقَهُ شَرَفٌ تَغمُرُنا به ، فهى جارِيَتُك ، وأنا مَمْلوكَكَ .

وفى الغد حَضر القاضى ، واجتمع الشهود .

وعقد للخليفة على فتنة .

وعقد لغانم بن أيوب على قوت القلوب .

وانتقلت قوت القلوب من قصر الخليفة إلى قصر غانم .

ولكنها لم تخل مكانها من قصر الخليفة ، ولا من قلبه .

فقد أحلَّت محلها فتنة التى احْتلَّت من قلْبه المكان الأوَّلَ .

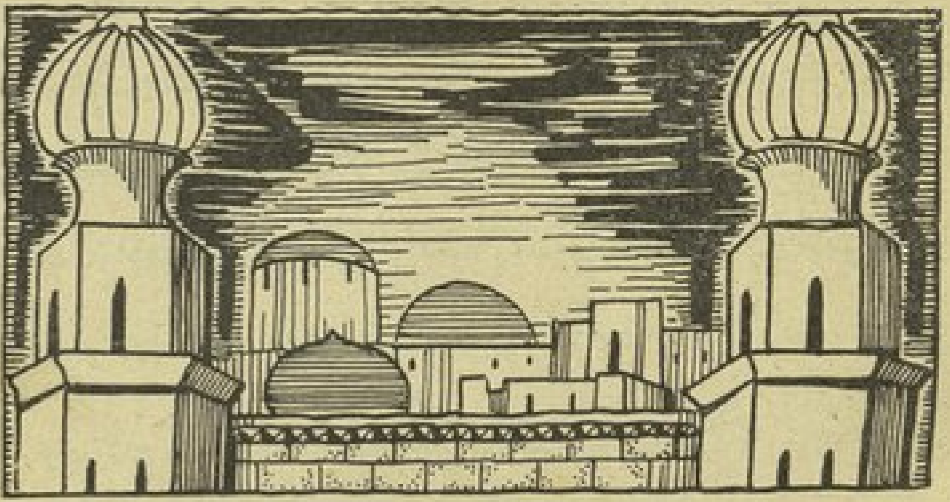

مدينة النحاس

(١)

كان فى الأيام الخوالى بدمشق خليفةٌ يُسمَّى عبد الملكِ بن مروانَ ، وكان يجتمعُ إليه أكابر دولته ومُسامِرُوه كلَّ ليلة فى دار ضيافته وسَمَرِه ، يتناولون بالحديث طرائف الحوادث ، وأخبارَ الأمم السوالف ، ومرَّ بهم الحديثُ على سيدنا سُليمانَ بن داودَ عليهما السلام ، وما وُهِبَ له من مُلك لا ينبغى لأحدٍ من بعده ؟ فسخر الله له الرياحَ تجرى بأمره رُخاء حيثُ أصاب ، والشياطين كلَّ بناء وغواص ، وعلَّمه مَنطِق الطير ، وعنَتْ له الوحوشُ وغيرها من صنوف الحيوان ، وكانَ يحبس العُصاةَ من مردة الجنّ فى قماقم نحاسية ، ويحكم غطاءها ويختمها بخاتمه ، ثم يلقيها

فى البحر ، جزاءً بما اجترحوا من سيئات وارتكبوا من آثامٍ ، فقال أحد السّامِرَة ، وكان طالِبَ بن سهل :

رَكِبَ جماعة فى فلكٍ لهمْ ، وجرى بهم على أَدِيم البحر يؤمّونَ به بلادَ الهندِ ، وفى ليلةٍ طويلة تراكمتْ ظلماتها ، إذا أخرج أحدُهم يده لم يكدْ يراها ، هبّتْ عليهم ريح عاتية ، فساقتْ فُلكهُمْ إلى أرض أخرى لا يَعرفُونها وهُمْ فى فزَعهم مُستسلمون .

وما لاح لَهمْ وجه الصباح حتى جاءهُمْ من مغاراتٍ فى تلكَ الأرض قَومٌ سُود عُراة ترتفعُ أصواتهم ببلبلة لا يفقهونَ لها مَعنى ، ولا يفهمون لهم حركةً أو إشارة ، فخرجوا بذلك من فزع إلى فزع ، ومن شِدَّة إلى شدة ، وكادتْ قلوبُهم تسقط من صُدورهم تحت أقدامهم ، وسرعان أن سَرّى عنهم رئيس القوم الذى كان يَعرف اللغةَ العربية ويتكلّمُ بها من دون قومهِ ، فناداهم أنْ يحضروا بين يديْه ، فلمْ يجدوا مناصاً من الاستجابة لندائهِ والحضور إليه ، فحياهُم وتلطّف فى الحديث مَعَهم حتى أَنِسُوا واطمأنتْ قلوبهم ، ثم سألهم عنْ دين الإسلام ، فقالوا : لا نَعرف عنه شيئاً ، إذ كانوا ممنْ لم تبلغْهم رسالتُه ، ولم يتدينوا به ، فقال : وما جاء بكم إلى هذه الأرض التى لم يطأها قدمُ لأجنبىٍّ من بنى آدمَ قبلكم ؟ فأخبرُوه حادثةَ الريح الشّديدة التى ساقتهم إلى تلك الأرض كرْهاً ، فقال : لا خوفَ عليكم فأنتم آمِنُون ، وأطعمهم لحم طيرٍ وسمكٍ ووحشٍ مما يأكلُ القوم .

ثم سار بهم في مناحي أرضه يتفرجون ، فرأوا فيما رأوا صياداً أخرجت شبكته من البحر قمقما نحاسياً ، ولما فض غطاءه خرج منه دخان كثيف أزرق ، جعل يمتد ويعلو حتى كاد يبلغ عنان السماء ، وسمع صوت من خلاله يقول : التوبة ، التوبة ، يانبي الله ، ثم تحول الدخان إلى شخص عظيم الخلقة ، بشع المنظر ، لايراه أحد حتى يذوب رعباً ثم اختفى ، ففزع منه أصحاب الفلك ولكن الصياد لم يحفل به وكأنه لم يجده شيئاً ، فسألوا رئيس القوم عن هذا فقال :

كان سليمان بن داود عليهما السلام إذا عمل الجن شيئاً وغضب عليهم حبسهم في قماقم نحاسية وختم غطاءها بخاتمه وألقاها في البحر ، وكثيراً ما يخرج الصيادون بشباكهم قماقم منها ، فإذا كسروا قمقما أو أزالوا عنه الغطاء خرج منه الجنى المحبوس على نحو ما رأيتم ، وهو يعتقد أن سليمان لايزال حياً ، فيعلن توبته كما سمعتم .

فقال الخليفة عبد الملك وعلى وجهه سمات رغبة ملحة : بودى لو رأيت شيئاً من هذه القماقم ! فقال طالب بن سهل : ذلك على أمير المؤمنين هين ، ومن اليسير أن يأتيك كثير منها وأنت في مقر ملكك لا تريم ، فأرسل إلى أخيك عبد العزيز بن مروان أن يكتب إلى موسى بن نصير بإحضار ما تطالب من تلك البقعة التي فيها القماقم ، فهي متصلة بالأرض التي جعلته واليا عليها ، فاستراح الخليفة لهذا الرأي وقال : ليس لهذا الأمر غيرك ياطالب ، فلتكن أنت رسولي إلى موسى بن نصير ولك ما تشاء من

المالِ ، وسأخلفكَ فى أهلِكَ حتى تعود سالماً بفضل الله ، فقال طالب : ليس أحبَّ إلى نفسى من طاعة أمير المؤمنين .

أمَدَّ الخليفةُ طالب بن سهل بالمال الكثير وصَالحى الأعوانِ والرجال وناوله كتابين أما أحَدُهما فإلى والى مصرَ يوصيه بطالب بن سهل خيراً ، وأما الآخر فإلى مُوسى بن نُصير يأمره أن يُحضِر بعضاً من القماقم مَهما يبذلْ فى سبيلها من المال والجهد ، ويُعلمُ أنه لنْ يقبل فى عدم إحضاره مَعاذيرَ مهما يكنْ من أمرها .

ولما قرأ موسى كتاب أمير المؤمنين قال : سمعا وطاعة ، وجمع ذوى الرأى والمشورة من رجال ولايته ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فأجمعوا رأيهم على أنَّ هذا الأمرَ لا يقومُ به إلا الشيخ عبد الصمد القدّوس ، لخبرته بالقفار والبحار ، ومعرفته سكان الأقاليم والأقطار ، وكثرة ما قاسى من الأسفار ، فبعثَ مُوسَى فى طلبه ، فجاءه من فوره ، وكان شيخاً كبيراً حنكته التجاربُ وصَقلتْه الأيام .

فلما جاءه قال له : إن خليفتنا أمرنا أن نبعثَ إليه بعضا من قماقم سُليمانَ بن داود عليهما السلام ، ولا أعرفُ مكانها ، وقد قيلَ لى : إنك أعلمُ الناس بالأرض ومسالكها والأقطار وما فيها ، وإنك رجلٌ مجربٌ حكيم ، فهل لك رغبةٌ فى قضاء ما طلب منا أمير المؤمنين ؟

فقال الشيخ : ولكنَّ الطريق وعرة محفوفةٌ بالمخاوف ، والشقةُ بعيدة وأهوالها ثقيلة ، وأنت رجل مجاهد فاتح ، وأعداؤك من الأمم

الأخرى على مقربة من بلادك وهم ينتهزون الفرص لغزوها .

فقال مُوسى : كم من الزمن تحتاجُ هذه الرحلة ؟ فقال : سنتين وشهراً ذهابا ومثلها جيئة ، وإذا كان لامَفرّ من الرحيل فعليك أن تستخلف فى البلاد من يُغنى غناءك ويكون قذًى فى عين أعدائك .

فقال : سأستخلفُ ابنى هارون فيها ، وهو رجلٌ كما تعرفُ شديدُ البأس جليل القَدر واسع الحيلة ذو عَزمٍ وفطانة .

فقال : يسّرَ اللهُ لنا الأمر ، ووقى البلادَ فى غيبتنا كل مكروهٍ وضُر وربما لبثنا فيها من الزمن أقل مما سمعتَ وعرفتَ ، ولنعتمدْ على الله مُخلصين له أعمالَنا ، راجينَ منه أن يُهيئ لنا من أمرنا كل يُسْرٍ وخير .

سار مُوسى بن نصير ومعه حامية من جُندِهِ ومن رغب فى الرحيل معه من صَحبِهِ ، والشيخُ عبد الصمدُ يجتاز بهم ربواتٍ وسهولا ، وغابات موحشةٍ ترتعدُ منها الفرائص رُعبا ، حتى كانوا أمام قصر مُنيف واسع الرقعة ، يحسبه القادِمُ إليه سورا عالياً من الحجرات يحوى بداخله بلداً ، وبابه من السعة والعظمة بحيث يتلاءم وهذه البِنْية الضخْمة الممتدة ، يَصعد إليه الداخلُ فى سُلمٍ من الرخام الأبيض المصْقول المُصَفّى ، وكانَ مفتوحا على مصراعَيْه،وقدوضِعتْ بعاليهلوحةٌ رخاميةٌ كبيرة بها كتابةٌ باللغة اليونانية وكان الشيخ عبد الصمد يحذقها ويعرفها ، فأمره موسى أن يقرأ ما فيها فقرأ .

هؤلاء قومٌ يندبُ مصيرهم مُلكا كبيراً نزع من أيديهم ، ونعيما

واسماً فارقوهُ رغمَ أنوفهم ، فلا ترى كلاً منهم إلا حبيس قبر وضجيعَ حجر ، فتأثر موسى وقال : لا إله إلا الله الحى القيوم بديع السموات والأرض ، ودخلوا إلى ردهةٍ فسيحةٍ فرشتْ أرضها بالرخام الملوّن ، وحُلى سقفها بنقوش الذهب والفضة ، وعلى جانبيها صُور وتماثيل بديعة الصنع رائعة الجمال ، تنتهى إلى باب آخَر به لوحة مكتوبٌ فيها :

كم من معشرٍ أقبلت عليهم الدنيا فتمتعوا بها قليلا أو كثيرا ، ثم كان مَصيرُهم إلى الفناء .

فبكى موسى متأثراً وقال : لا إله إلا الله ، مَا خُلِقنا عَبثاً ، وإنما خُلِقنا لأمر عظيم ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعُون ، ثم نفذوا من هذا الباب إلى فناء واسع تطل عليه أبنية القصر الذى لم يروا فيه أحدا ولم يسمعوا هَمْسا ، ووجدُوا فى وسط الفناء قبةً ضخمةً عالية ، ومن حَولها قبورٌ يُجاوزُ عددها أربعَمائة ، وهى غارقةٌ فى سكون عَميقٍ يبعثُ فى النفس الرهبة وكان من بينها قبرٌ كبير من الرخام كتب عَليه :

ما أكثرَ ما شهدت من كائنات ! وما أكثر ما لَهوتُ ولعبْت واستمتعت بالغانيات ! وما أكثر ما أمرتُ ونهيتُ وبنيت من حُصون مانِعات ! غرتْنى الدنيا وزينتها فغفلتُ عما هُو آت ، فحاسب أيها الفتى نفسك قبل أن تَشرب كأس الممات ، فعما قليل يُهال عليك الثرىَ وأنت فى حسرة على ما ضاع من عمرك وفات .

فبكى موسى ومن معه ، ثم دنَوا من العتبة فوجدوا لها ثمانية أبواب

مصاريعها من خشب الصندل المرصع بالذهب والفضة والجواهر الكريمة وقد كتب على باب منها : طالما جمعتُ المال مغتبِطا ، وضننت به على ذوى الحاجة من الأقربين والأبعدين ، وقد خلّفته من بعدى ، لا تكرّما ولا تفضُّلا منى ، ولكنه حكم القضاء الجارى ، وما دفع عنى الموت كثرة المال ولا قوة الجنود والرجال ، وسأسألُ عن هذا المال يوم الحساب ، فاحذر أن تخدعك الدنيا وتلهيك عن الآخرة .

ودخلوا من هذا الباب على قبر مُستطيل كبير عليه لوحٌ من الحديد المموه بالصينى وقد كتب عليه :

باسم الله الأحد الصمد الذى لم يَلِدْ ولم يُولَد ولم يكن له كفواً أحد . أما بعد فاعتَبر يا من زرت هذا المكان، بما تراه من طوارق الحدثان ، واعلمْ بأن الدنيا بالبلاء محفوفة ، وبالغدر معروفة ، ترمى أهلها بسهامها وتفنيهم بحمامها، وما هى إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فقد ملكت فيها أربعة آلاف حصان ، وتزوجت ألف بنت من بنات الملوك الأقمار ، ورزقت بألف ولدٍ كأنهم الأسود شجاعة وقوة وعمرت فى الدنيا ألف سنة ، وجمعت من الأموال ما إن مفاتيح خزائنه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، ولبثنا فى هذا القصر مطمئنين منعمين ، حتى أخذتنا صيحة الحق ، فكان يموت منا اثنان كل يوم ، فلما رأيت الفناء قد دبَّ دبيبه فينا ، كتبتُ هذا ليكون موعظة لمن يزورنا ، وقد جمعت جنودى وسألتهم أن يدفعوا عنى الموت بأسلحتهم فما استطاعوا وما فعلوا ،

فسألتهم أن ينقذونى من الموت بما أملكه من الأموال ، أو يؤجلوا آخرتى يوما واحدا فما أغنى عنى ما أملكه شيئا ، فامتثلت لحكم القضاء . وسكنت هذا الضريح ، وأنا كُوشُ بن شَداد بن عادٍ الأكبر ، بعد أنْ حكمت البلاد ، وقهرت بجيوشى العباد ، فاحرص على أن تنفق عُمرك فى صالح الأعمال ، فهى التى تؤنسك فى وحدتك ، وتنجيك يوم مَسألتك .

فبكى موسى ومن معه متأثرين ، وأخذوا يطوفون فى نواحى القصر ، فعثُروا على سفرة ذات أربع قوائم مكتوب عليها : أكل على هذه السفرة ألف ملك أعور وألف ملك سليم العينين ، وقد سكنوا جميعهم القبور .

وقد أمر موسى بكتابة كل هذا وخرج من القصر هو وجماعته ولم يأخذوا معهم إلا تلك السفرة ، وأخذوا يسيرون حيث يدلهم الشيخ عبد الصمد ، حتى أتوا رابية عالية وفوقها فارسٌ من نحاس أصفر ، لرمحه سنان عريض براق كتب عليه :

أيها السائر ، إن كنت لا تعرف الطريق إلى مدينة النحاس فافركْ كف هذا الفارس فإنه يدور ثم يقف ، فإذا ما وقف فاسلك الطريق الذى يولى وجههُ شطرها إلى مدينة النحاس وأنت آمِن .

ففرك موسى كفه ، ودار الفارس ثم وقف ، فسلكوا الطريق التى ولّى وجْهه شطرها ، وما زالوا سائرين حتى وجدوا عموداً من حجر أسود ، به شخص غاص فى الأرض إلى إبطيه ، وله جناحان عظيمان ، وأيد أربعة ، اثنتان كأيدى بنى آدم ، واثنتان كأيدى الأسد ، وفى رأسه

شعر كأذناب الخيل ، وعيناه تتوقدان كاللهب ، وله عينٌ ثالثةٌ فى جبهته كالجمْرةِ ، وهو أسودُ اللون ، وسمعوه ينادى :

سُبحان ربى العظيم الذى حكم علىَّ بهذا العذاب الأليم إلى يوم الدين ، فلما سمعوه فروا مبعدين هَاربين خائفين .

وسأل موسى الشيخ عبد الصمد عنه فقال : لا أعرف عنه شيئا ، فأمره أن يذْهبَ إليه ويكشف لهم عن سِرِّه فقال :

إذا كان قد أزعجنا أجمعين فكيف أجْرؤ وحدى أن أذهب إليه وأنا أجهلُ أمره ؟ .

فقال موسى : لا أرى سبباً للخوف ، فهو مكفوفٌ عنا بما هو فيه ، ولنذهب جميعاً إليه معَك ، فذهبوا ودنا منه الشيخ عبد الصمد سائلا :

أيها الشخص ، من أنت ؟ وما شأنك ؟ .

فقال : إنى عفريتٌ من الجنّ يسمى داهش بن الأعمش ، محبوسٌ فى مكانى هذا على نحو ما ترى بقدرة الله تعالى ، وإنّ لى حديثاً عجباً : وذلك أنه كان لولد من أولاد إبليس صنم من العقيق وُكل إلىّ أمره ، وكان عاكفاً على عبادة هذا الصنم ملِكٌ من مُلوك البحر عظم خطره وكثُر جنده ، وفى طاعته ألفُ ألفٍ من الجان ، وكان هؤلاء يطيعوننى ويأتمرون بأمرى ، وقد عصوا سليمان بن داود عليهما السلام وتمرّدوا ، وكنت أدخل جوف الصنم فآمرهم وأنهاهم ، وكان لهذا الملك بنت فاتنة الجمال لاتنى عن السجود لهذا الصنم وعبادته فذكرت أمرها إلى سليمان

عليه السلام ، فأرسل إلى أبيها أن يزوجه منها ، وأن يكسر الصنم الذى يعبدونه من دون الله ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن سليمان نبى الله ، وقال : فإنْ فعلتم كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتُم جئتكم بجنودٍ لا قِبَل لكم بها ولا طاقة لكم بلقائها .

فاستكبر الملك وجمعَ وزراءه وعرض عليهم رسالة سليمان وقال : انظروا بماذا تشيرون ؟ فقالوا : لن يستطيع سُليمان أن يصيبك بمكروه ، فأنت فى وسط البحر الأعظم ومعك الألوف من مردة الجان ، ومَعونة الصنم الذى تعبده ، ومع هذا فمن المستحسن أن تستشير الصنم فى أمر سليمان هذا ، ولننظر ماذا يقول ، فقَرَّب الملك إلى صنمه القرابين وذهب إليه يستشيره ، فقال :

يا ربى إن سليمان يروم كَسْرَكَ ، والانصراف عن عبادتك ، وينذرنى إن لم أستجب له هلاكا ونكالا ، فمرنى بما تشاء ، قال العفريت : وكنت لجهلى وقلة مبالاتى بسليمان وجنوده قد سبقت الملك إلى الصنم ودخلت جوفه ، فلما سأله الملك أجبته : لا يهمنى أمر سليمان فى قليل أو كثير ، وإن يُرِدْ حربى فسأصبُّ عليه الويل والثبور .

فاشتد عزمُ الملك وأصرَّ على أن يقاتل سليمان عليه السلام . وآذى رسول سليمان وضربه ، وأرجعه إليه يحمل تهديده ووعيده .

غضب سليمان غضبة كريعة ، وامتطى البساط هو وجنوده من الجن

والإنس والوحش والطير والهوامّ ونزل بأرض الملك فى جزيرته ، وأرسل إليه يقول :

لقد أتيت إليك ، فراجعْ عقلك ، وتدبّر مصيرك ، فإنْ آمنت بالله ونَبيِّهُ ، وكسرْتَ صَنمك ، وزوجتنى ابنتك لأنقذَها بالإيمان باللهِ من عـذاب الله — سلِمْتَ وسلِمَتْ جُنودُك ، وإلا فليست حصونُك بمانعتك مِنّى ، فقال لرسول سليمان : ارجع إلى مَن أرسلك وبلّغه أنّ الأسبيل إلى ما يَطْلب ، وإنى خارجٌ إليه فملاقيه . وجمعَ الملك جُموعه ونفَر إليه فى ألوفٍ من الجنّ ومردَة الشياطين .

وأما سليمانُ فإنه بعدَ أنْ بلّغه رسُولُه إجابة الملك نظّم جنـوده ، وقسمَ الوحوش قسمين عن يمينٍ وشِمال ، وأمرها أن تفترس خيولَهم ومن تلقاهُ منهم ، وأمَرَ الطيرَ أن تفقأ عيونَهم بمناقيرها ، وتضربَ وجُوهَهم بأجنحتها ، وجلس هو على سرير من المرمر مرصّع بالذهب والجوهر ، وجعل وزيرَه آصفَ بنَ برَخيا عن يمينه ووزيرَه الدّمرْياط عن يسارِه . وحشَدَ الجيوش أمامه .

قال العفريت : وزحف علينا زحفةً قامت على أثرها حربٌ طاحنة تنشقُّ لها المرائر وبرز الدمرْياط فانفردتُ بقتاله حتى أعيانى وأعييتُه ثم ضَعُفتُ أمامه ، وشَرِبَ ملكُنا كأس الهزيمة وكنّا لسليمان غنيمة ، ولم أستطع البقاء فى ميدان القتال فطرتُ بين يدى الدمرياط ولكنّه تبعنى حتى أدركنى فأسَرنى وحبَسنى فى هذا العمود كما ترى .

(٢)

ولما انتهى الجنىُّ من قصةِ حَبسهِ فى العمودِ ، سألهُ الأميرُ مُوسى وجماعتُه ، عن الطَّريقِ إلى مدينةِ النحاسِ ، فأشارَ إليها ، فسلكوها حتى نزلوا أمامَ سورِ المدينة ، فوجدوهُ متيناً ضخماً ، كأنهُ حديدٌ مَصبوبٌ ، أو جبلٌ ممدود ، وليسَ فيه أثرٌ لبابٍ يوصلُ إلى المدينة ، فقال الأميرُ موسى لطالب بن سهلٍ وزيرِهِ : لا بُدَّ أنْ ندخُل مدينةَ النحاس ، فعليكَ أن تحتال لدخولها ، وتهيِّئ سبيلا إلى الاغتمارِ فيها ، فقال طالب : يسّرَ اللهُ أمر الأمير ، وشرح صدرَه ، أمهلنى يومين أو ثلاثة ، أنظُر فيها وجهَ الحيلة ، وستجدها إن شاء اللهُ لديك حاضرة ، فلم يُطق الأميرُ موسى أن يصبرَ هذه المدة ، وأمر غلاماً له ، معروفاً بالشجاعةِ والقوة ، أن يركب جمله ، ويطوفَ حولَ سورِ المدينة ، لعلّه يجدُ آثار بابٍ لها ، أو يعثُر على قصر بجوارها ، يكونُ له صلةٌ بها .

أرخى الغلامُ الزمامَ لجمله ، وجعل يطوف حول السورِ يومين وليلتين ، حتى أشرف على القوم ثالث يوم ، وقال : أعزَّ اللهُ الأمير ، أسهلُ مكانٍ تستطيعُ الوصول منه إلى هذه المدينة ، أو معرفةَ شىء عنها ، ذلك المكانُ الذى أنتم فيه الآن .

وكانت المدينة جاثمةً فى وادٍ ، أمامَ جبلٍ مُمتدّ فى السماء ، فصعد فيه الأمير ، وصحبه طالبُ بن سهل ، والشيخُ عبد الصمد ، مُحاولين الاطلاعَ

عليها ، من موضع بالجبل قريب منها ، مشرف عليها ، فرأوا مدينة غارقة في عظمة صامتة ، بادية في قصورها الفخمة العالية ، وقبابها المبعثرة الزاهية ، وحدائقها الزاهرة ، وأنهارها الجارية ، وأشجارها العالية الناضرة ، وأزهارها اليانعة ، وثمارها الشهية الناضجة ، ولكنها خالية من السكان والحركة ، فلا تسمع فيها إلا أصوات الطيور المتجاوبة ، كأنها تندب أهلها ، وتنعى من بناها ، فدهش الأمير موسى لهذه الحال العجيبة ، وأسف على خلو المدينة من الإنسان ، وجعل يتنقل ببصره فيها هنا وهناك ويقول :

سبحان الحي القيوم ، بديع السموات والأرض ، خالق الخلق ، مدبر الأمر ، له الملك وإليه المصير ، ثم وقع بصره على سبعة ألواح من الرخام الأبيض على كل منها كتابة واضحة ، فأمر الشيخ عبد الصمد أن يقرأها ، فوجدها سطرت بآيات بينات ، من عظة وذكرى لأولى الألباب ، ووجد اللوح الأول مكتوباً فيه :

« يا ابن آدم ، ما أعظم غفلتك عما أنت إليه صائر ! لقد ألهاك التكاثر ، حتى زرت المقابر ، أما علمت أن المنية جائعة لك تترصد ، وأنها مدركتك ولو كنت في برج مشيد ، فانظر ما قدمت يداك قبل أن يطويك قبرك ومثواك .

فوجل قلب الأمير موسى ، لما سمع من تلك الموعظة ، وقال : والله

إن المرء لا ينفعه إلا زهده فى الدنيا، وعدمُ الاغترار بها، وأمر أن تكتب هذه الموعظةُ فى قرطاسٍ يحفظ عنده.

وكان قد كتب على اللوح الثانى:

يا ابنَ آدم، ما غرَّكَ بربكَ الكريمِ الذى خلقكَ فسواكَ، وما ألهاكَ عنْ أجَلٍ يدنُو منكَ ولا ينساك؟! أما علمتَ أن الحياةَ الدنيا لهوٌ ولعبٌ وما لأحدٍ فيها منْ قرار؟ فاذكرْ من عمَروا الأرضَ وملكوها، ثم دعاهم داعى الفناء فلبُّوه، وبلغُوا من الأرضِ منزِل وحدتهم، ومحطَّ حُفرتهم، وما أغنَى عنهم أموالُهم، وهلكَ عَنهمْ سُلطانُهم.

فبكى الأمير موسى بكاء مرًا وأمر أنْ يكتب هذا له أيضاً، وقال والله ما خُلق الإنسان إلا لأمرٍ عظيم قد يكونُ الناس عنه فى غفلةٍ.

أما اللوحُ الثالث فقد كان مكتوباً فيه:

يا ابن آدم، غرَّتك الدنيا فاشتريتها بآخرتك، وخدعكَ الهوى فأنساك ذكرَ ربِّك، ألم يجعلْ لك عينين، ولساناً وشفتين؟ فكيف تنكر الالهَ، وتكفرُ بنعمائه، وهو المنعمُ الوهاب، وإليه المرجع والمآب؟!!

فزاد بكاء الأميرِ، وعظمتْ مخافته، وأمر أن يكتب ويُحفظ.

وقرأ الشيخ عبد الصمد ما باللوح الرابع فإذا هو:

يا بن آدم، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، وكثيراً ما أمهلك

وأملَى لك ، وليس بعد الإمهال إلا النكال ، فخذْ من صحتك لمرضك ، ومن غناكَ لفقرك ، ومن حياتك لموتك ، واحذر أن تركن إلى الدنيا فليس لها ثبوت ، وماهى إلا كبيت العنكبوت .

فعظمت خشيةُ الأمير واشتدَّ وجله ، وأمر بكتابةِ هذا وحفظه ، ثم نزل هوَ وصاحباه إلى مُعسكرهم ، وهناك جمع الخواصَّ من رجاله ، وجعلوا يبحثون عن حيلةٍ تمكنهم من دخول المدينة ، فقال الأمير لهم : إنَّ للعقل نورًا يثقبُ أحلاك ظلمة ، فاهتدوا به للعثور على حيلة ، ندخلُ بها تلك المدينة ، لنرى عجائبها وغرائبها ، ولعلَّنا نجدُ فيها ما نتقربُ به إلى أمير المؤمنين ، فقال طالبُ بنُ سهلٍ وزيره :

أدامَ الله نعمة الأمير ، نصنع سُلمًا نَصعدُ فيه إلى ذِروَةِ السور ، وعسى أن نجد بابًا للمدينة من داخله ، فقال الأميرُ : نعمَ الرأىُ ، وقد خطرَ منْ قبلُ ببالى وأعجبنى ، ثم أمرَ النجارين والحدادين أن يَصنعوا سُلمًا متينًا فى أقصرِ مُدةٍ ، وبعدَ شهرٍ أتموا صُنعهُ ، وأسندوه إلى السور ، فأصبح فى استطاعةِ أىّ إنسانٍ أن يصعدَ فيه إلى قمةِ السُّور ، ويَمشىَ فوقه حيثُ يشاء .

فرح الأمير بذلك ، وقال لمن معه منْ منكم يحبّ أن ينزل المدينة ؟ ويحتال فى فتح بابٍ نلجهُ إليها ، لنعرف سرّها ، وغريبَ شأنها ؟ فتقدم أحدُهم وأخذَ على عاتقِه ، أن يكونَ فتحُ باب المدينةِ على يده ، وما لبثَ أن وقفَ على قمةِ السورِ حتى رأوْهُ يحدقُ ببصرهِ إلى المدينة ، ويُصفقُ بكفيهِ قائلاً :

أنت مليح ، ثم ألقى بنفسه داخلَ السّور ، فأيقنَ الأميرُ أنه نزل إلى أرضِ المدينة جثةً هامدة ، ولم يتخلف عن هذا اليقينِ منهم أحَد ، وقال الأمير : لئنْ كان هذا مَصيرَ كل رجلٍ يصعَدُ فلا ريْبَ أننا هالكون ، وسيلتقمُنا الموت واحدا فى إثرِ واحد ، حتى لم يبقَ منا أحد ، ولهذا يحسنُ أن ننجوَ بأنفسنا ، ونرحلَ عن هذه المدينة ، فلا حاجة لنا بها ، ما دمْنا عاجزينَ عن دخولها ، فقال بعض رجاله فِى حماسةٍ بادية :

لعلّ غيره أثبت جنانا ، وأقدر على تحقيق رغبتنا ، فقال : لا بأس أن نجرب غيره فقد يكونُ الفتح على يده ، وتقدمَ اثنا عشرَ رجُلا، أحدُهمْ بعدَ الآخر ، وكانَ مصيرهم مصيرَ الرجل الأول ، الذى حملقَ وصفقَ ونزل ، فتحمسَ الشيخ عبد الصمد وقال :

ليس لهذا الأمر أحد غيرى ، ولا يستوى رابطُ الجأش ومن قلبُه هواء ، ولا يستوى المجربُ وغيرُ المجرّب ، فقال الأمير : ولكنى لا أرضى بصعودِكِ ،لأنكَ دليلُنا ، وإن متَّ هلكنا أجمعين ، فقال الشيخ : لا تخفْ أيها الأمير،فإن ثقتى بنفسى ، واعتمادى على ربى ، كفيلان بتحقيق مآربى ، وحمايتى من كل خطر ، ووافقَ هذا القولُ رغبةً فى نفوس الجماعة ، وبخاصةٍ فقد اشتدتْ رغبتُهم فى دخول المدينة ، ليقفوا على مَصير أصحابهم الذينَ هوَوْا إليها .

وقام الشيخ وهوَ يتلو فاتحةَ الكتاب ، وغيرَها من آياتِ القرآنِ الكريم ، حتى كان فوق سُورِ المدينة ، وصحبُه شاخصون إليه ، ولما

رأوه قد حدَّق ببصره، وصفَّقَ بيديه. فزعُوا وصاحوا : لا تلقِ بنفسك، لا تلقِ بنفسك ، ولكنه ضحكَ فى صوتٍ مرتفع، وجلسَ على السورِ يتلو ما تيسّرَ من آيِ الذكر الحكيم ، ثم قامَ وصاح رافعاً صوته ، لا خوف علينا وعليكم، فقد صرف الله كيد الشيطانِ عنى وعنكم ، بفضلِ اعتمادِي عليه ، وما تلوت من آياتٍ بينات ، فقال الأمير : وماذا رأيت يا شيخ عبد الصمد ؟ فقال :

رأيتُ عشر جوارٍ ، كأنهن الأقمار ، يشرنَ إلىَّ بأيديهن أنْ أقبل إلينا ، وخُيلَ إلىَّ أن تحتى بحراً ، وهممتُ بإلقاء نفسى ، كما فعلَ أصحابنا السابقون ، ولكنى رأيتُ الجوارىَ ميتات ، فأحجمتُ عن إلقاء نفسى ، وتلوت شيئاً من كتاب الله تعالى ، فصرف عنى كيدهنّ وسحرهن ، ولا بُدّ أنْ يكون هذا سِحرَ أهلِ المدينة ، فعلوه لحمايتها من كل طارق ، وليصرفوا عنها كل راغبٍ فى الوصول إليها ، وهؤلاء أصحابُنا موتَى .

ثم مشى الشيخُ على السورِ حتى وصلَ إلى برجين من نحاس ، لهما بابان من ذهب ، ولكن لا قفلَ فيهما ، ولا أثرَ عليهما يدلّ على فتحهما ، فوقف الشيخُ أمامهما طويلا ، مفكراً متأملا ، فرأى وسط الباب صورة فارسٍ من نحاس ، له كفٌ ممدودة ، كأنه يشيرُ بها إلى شىء ، ورأى كتابةً فقرأها ، فإذا هى : افركْ المسمارَ الذى فى سرةِ الفارس اثنتى عشرة فركة ، يفتح لك باب البرج ، ولما فركه الشيخُ انفتحَ الباب ، وكان لفتحه أزيزٌ كأنه الرعد ، فدخلَ منه الشيخ عبد الصمد — وكان عالماً بجميع

اللغات — إلى دهليز طويل ، يحركُ سكونُه الرعبَ فى نفس سالكه ، وينتهى إلى سلمٍ ذى درجاتٍ معدودات ، فنزل منه إلى مكانٍ به أرائكُ جميلة ، عليها أشخاصٌ موتَى ، وفوق رءوسهم تروسٌ وسيوفٌ وقِسِيٌّ وسهام ، ووجد به بابَ المدينة ، ومن خلفه عمودٌ حديدىّ ، ومتاريس خشبية متينة ، وأقفالٌ رقيقة ، وآلات محكمة ، فظنّ الشيخ أن مفتاح الباب عند هؤلاء الأشخاصِ الموتى ، وكان من بينهم رجلٌ يبدو عليه أنه أكبرهم سنا ، وقد جلسَ على أريكةٍ عالية ، فقال فى نفسه : لعل هذا الرجلَ بوابُ المدينة ، ومعه مفتاحُها ، وهؤلاء الآخرونَ أعوانُه ، وتحت إمرتِه وسلطانِه ، فدنا منهُ ورفع ثيابه ، فوجد المفاتيحَ معلقةً فى وسطه ، ففرحَ فرحاً عظيما ، وأخذ المفاتيح ، وذهبَ إلى البابِ ففتح أقفاله ، وأزال المتاريسَ وما خلفه من الآلات ، وجذبَ البابَ إليه جذبةً قوية ، فانفتحَ وأطلّ الشيخُ على صحبِه ، فكبّرَ وكبروا معه ، وكانَ فرحُهم عظيما ، لنجاةِ الشيخ وسلامتِه ، وفتح بابِ المدينة وهمُّوا بالدخولِ جميعُهم ، ولكنّ الأميرَ موسى نادَى فيهم :

يا قوم ، لا نأمنُ على أنفسنا إذا دخلنا جميعُنا دفعةً واحدةً ، ولكنْ من الحزمِ أن يدخلَ نصفُنا ، وينتظرَ النصفُ الآخر .

(٣)

ودخل الأمير موسى ومعه نصفُ جماعته، يحملونَ آلاتِ الحرب، فوجدوا أصحابهم ميتين فدفنوهم، ووجدوا البوابين والخدمَ والحجّابَ موتى راقدين؛ على فرش من حرير ثمين، ثم ساروا نحو بنيةٍ ضخمة، عاليةٍ ممتدة، ذات أبواب فسيحةٍ عديدة، فدخلوها فإذا هي سوق المدينة، مفتحة الدكاكين، معلقة الموازين، مصفوفة البضائع، لاينقصُها إلا حركة البيع والشراء، فهذه سوقُ الخز، جَمعتْ كثيراً من ألوانِ الديباجِ المنسوج بالذهب والفضة، وأصحابها موْتى رقودٌ على أنطاع الأديم، يكادون لسلامةِ أجسامهم ينطقون، وهذه سوقُ الجواهر واللؤلؤ واليواقيت. كأنها من البريق الوضاء عيونٌ تنظر إلى أصحابها الموتى من تحتها، وهذه سوق الصيارفةِ الموتى على فرشٍ من الحرير والإبريسم، تموجُ دكاكينُهم بالذهب والفضة، وهذه سوق العطارين تملأ الجوّ بعبير المسكِ والعطر، والند والعنبر، وغيرها من خلاصة الأزهار الذكية، وكأنها تندبُ بأنفاسها تجارَها الرقودَ في غيرِ حياة.

وخرجوا من سوق المدينة، فرأوا بالقرب منها قصراً مُنيفاً، يعتزُّ بفخامتهِ وضخامتهِ، فذهبوا إليه، فوجدوا له باباً زُينَ بأشكالٍ زخرفية من المعدنِ اللامع. ولما دخلوه رأوا في دهاليزه أعلاماً منشورة، وسيوفاً مجردة، وقسياً مُوترة، وتُروسا ربطتْ إلى سلاسل من ذهب وفضة،

وخُوَذاً أحكِمَ طلاؤها بالذهب الأحمر، كما وجدوا فى تلك الدهاليز أرائك من العاج المكسوّ بالذهب والإبريسم، وعليها رجالٌ يحسبُهم الناظر نياماً ولكنّهم أمواتٌ غير أحياء.

وقف الأميرُ موسى دَهِشاً من عجيبِ ما رأى، وبديع ما نظر، بهذا القصر الذى أُحكِمَ بناؤُه، وأُبدِعَ تنسيقُه، وأحسن نقشه. وزاده عجباً أن وجَد هذه العبارةَ قد جُمِّلتْ بها صفحات جدرانه: «أنظروا واعتبِرُوا قبلَ أن ترحلوا، وما تقدمُوا لأنفسكُم من خيرٍ تجدوه، وكل امرىء بما كسَبَ رَهِين، والمرء مجزِىٌّ بعمله يوم لا ينفع مالٌ ولا بنُون، إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم، ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون، وكل من عليها فانٍ ولا يَبقَى إلا وجهُ ربك ذى الجلال والإكرام».

فزادت الأميرَ هذه العبارةُ إيماناً وخشية، وأمر أن تُنقَلَ فى قرطاسٍ له، ثم وجدوا فى هذا القصر أربعة مجالسَ، فسيحةَ الجنبات، ذاتَ قوائمَ مرْفوعةٍ عالية، وأوْضاعٍ متقابلةٍ، زُينتْ بنقوشٍ ذهبية وفضية، يتوسطُها فسقيةٌ من المرمَر، ضربتْ عليها قبةٌ من الديباج، ومن خلفِها فساقٍ منْ رخامٍ مختلفٍ ألوانُه، ومن تحتها أنهارٌ أربعة، تجرى إلى بحيرة واسعة، يشف الماء عنْ صفاء رخامها، فقال موسى:

هيّا بنا ندخل تلك المجالسَ، فوجدوا المجلسَ الأول مملوءاً فضةً وذهباً، ولآلئ وجواهر، وغيرَها منْ نفيس المعادن، وصناديق مملوءة من

حرير غالٍ مُختلفِ ألوانه . ووجدُوا فى المجلس الثانى خزانةً انفرَجَ بابها عنْ كثيرٍ من أنواع السلاح وأدواتِ القتال؛ من خُوَذٍ مذهبة ، ودروع سابغاتٍ داودِيَة ، وسيوفٍ هندية ، ورماح خطيّة ، ودبابيسَ خُوار زمِيّة إلى غير ذلك من أدوات الجهادِ والكفاح ، والحرب والقتال . وشاهدوا فى المجلس الثالث خزائن ذات أقفالٍ مغلقةٍ ، ومن فوقها ستائرُ مطرزة ، ففتحوا خزانةً منها ، فرأوها مملوءة بالسلاح النادر وجوده ، لفرط الجمال فى زخرفته ونقشه . ورأوا فى خزائن المجلس الرابع كثيراً منْ أدواتِ الطعام والشراب ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وصافى البلّور ، وخالص العقيق ، من قدورٍ وصحافٍ وأكوابٍ وغيرها .

وجَعلوا يحملون من كل أولئكَ ما أعجبَهم واستطاعوا حملَه ، ثم خرجوا من تلك المجالس إلى بابٍ مصنوعٍ من السَّاجِ المطعّم بالعاج والأبنوس والذهب البراقِ اللامع ؟ أسْدِلتْ عليـهِ ستائرُ من حريرٍ زُيِّنَ بأنواعٍ جميلةٍ من النقش والتطريز ، وبه أقفالٌ من فضة ، تفتحُ بالحيلة من غيرِ مفاتيح ، فتقدم إليها الشيخُ عبد الصمد ، وفتحها بحيلته وبراعته ، ودخلَ القومُ منهُ إلى دهليزٍ رخامِيّ جميل ، على جوانبِهِ براقعُ ذاتُ صورٍ بديعة، من ذهبٍ وفضة ، تحكى صنوفاً من الوحشِ والطير ، وأعينُها من الدرّ والياقوت ، تستميل إليها منْ رآها ، وتلقِى فى نفسِه العجبَ والدهشة ، ثم ساروا فيه حتى انتهَوْا إلى قاعةٍ أرضُها من رخامٍ صافٍ مصقول، مُزخرفٍ بالجواهر ، يحسبه الناظر إليه لجة ، ويخشى أن تزلقَ فيه قدمه ، إذا مشى

فوقه، فأمر الأمير موسى أن تفرش تلك القاعة، حتى يمكنهم أن يمشوا فيها، ووجدوا فى تلك القاعةِ الواسعة، قبةً عظيمة، فسيحة النواحى، بنيت بحجارةٍ مطليةٍ بالذهب الأحمر، وفاقت بحُسنها فى نظر القومِ جميعَ ما شاهدُوا، وفى وسط تلك القبة قبةٌ كبيرة أيضاً، وهي من المرمر، وفى مُحيطها شبابيك منقوشة، رصِّعتْ بقضبانٍ من زمُرد، تَعجزُ نفقاتُها قدرةَ الملوك، وفيها خيمةٌ من الديباج، نصبت على أعمدة من ذهبٍ أحمر، وفيها طيورٌ أرجلُها من زمردٍ أخضر، وتحت كلِّ طيرٍ شبكةٌ من لؤلؤ رطبٍ طرىّ، تُجلِّلُ فسقيةً وُضِعَ فوقها سريرٌ مرصعٌ بالدر والجوهر والياقوت، وعلى ذلك السريرِ جاريةٌ، كأنها الشمس وضاءةً وحُسناً، عليها ثيابٌ من لؤلؤٍ رطب طرىّ، وعلى رأسها تاجٌ من ذهبٍ أحمر، وعصابةٌ من الجوهر، وفى جيدها عقدٌ برّاقُ اللآلئ، وعلى جَبِينِها جوهرتان لهما نورٌ ساطع، كأنه نور الشمس، وكان يخيلُ إلى القوم أن الجارية تنظر إليهم يميناً وشمالاً، وكادوا يستيقنون أنها حيةٌ؛ لنظراتها، وحمرة خديها؟ وسواد شعرها، ولهذا قال لها الأميرُ موسى:

السلام عليك أيتُها الجارية، ولكن طالبَ بنَ سهلٍ قال له: أصلح اللهُ شأن الأميرِ وعافاه، هذه جاريةٌ ميتة، فلا تردّ تحية، ولقد أُحكِمَ تدبير نظراتها، وذلك بأنْ نُزِعتْ عيناها بعد موتِها، ثم أُعيدتا بعد أن وُضِعَ تحتهما قليلٌ من الزئبق، فهما تختلجان وتتحركان، ومن أجل ذلك يخيل إلى الناظر إليها أنها حية، وليس فيها شيءٌ من الحياة، فقال الأميرُ موسى:

سبحان من قهر عباده بالموت .

وكان لسرير الجارية دَرَجٌ ، عليها عبدان ، أحدهما أبيضُ اللون ، والآخرُ أسودُه ، وبيد أحدِهما آلةٌ فولاذية ، وبيد الآخر سيفٌ مرصّعٌ بالجوهر ، يخطفُ الأبصارَ بريقهُ ، وبينهما لوحٌ من ذهب كُتبَ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدُ لله الذى خلق الإنسان ، وعلمهُ البيان وجعل له السمعَ والأبصار والأفئدة ، أحاط بكلّ شىء علما ، وهو القاهر فوق عبادِه لا يُعجزِه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، وهو على كل شىء قدير ، يُدبِّرُ الأمر يُفصّلُ الآيات لعلهم بلقاء ربهم يوقنون ، يا ابن آدم ، ما أشدّ غفلتك عن حلول أجلك ؟ أين الذين كانوا من لهو الدنيا ونعيمها فى غَمْرة ؟ أين من كانوا يقولون : مَنْ أشدُّ منّا قوّة ؟ لقد استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، واتخذوا من التراب أكفاناً ومن الرّفات جيراناً ، وظعنوا بأعمالهم من الحياة الفانية ؟ إلى الحياة الدائمة الباقية ، فخذوا من حياتكم لمماتكم ، واستعدوا للحساب ، يوم لا يغنى المرء فيه ماله وما كسب ، ولا يجزى والدٌ عن ولد ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً . يا هذا ، إن كنت لا تعرفنى ، فأنا أعرفك باسمى ونسبِى ؛ أنا ترمزان بنتُ عمالقة الملوك ، ملكتُ ما لم يملكهُ أحد ، وعدلت فى القضية وأنصفتُ بين الرعية ، وأعطيتُ ووهبت ، وواسيتُ وأعنت ، وعشت طويلا فى سرورٍ وعيشٍ رغيد ، وأعتقت الجوارىَ والعبيد ، حتى نزل بساحتى طارقُ المنايا وحلت بين يدىّ الرزايا ؛ وذلك أنه قد توالت علينا

سبعُ سنين دأبا ، لم ينزل علينا فيها من السماء ماء ، ولا أنبتت الأرض نباتا فأكلنا ما كان عندنا من القوت ، ثم عطفنا على المواشى والدواب فأكلناها حتى لم يبق شىء منها ، فبعثت بالمال مع الثقات من الرجال ، وطافوا به الأقطار فى طلب القوت فلم يَجِدُوا ، ثم عادوا إلينا بالمال بعد طول الغيبة فأظهرنا أموالنا وذخائرنا على نحو ما ترى ، وأغلقنا مدينتنا ، وأسلمنا إلى الله وجهنا ، وفوضنا إليه أمرنا ، فمتْنا جميعاً كما ترانا ، تاركين ما عمرنا وما ادّخرنا ، وهذا هو الخبر ، وما بعد العين إلا الأثر ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، واذكروا هادِمَ اللذات ، ومفرِّقَ الجماعات ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له لعلكم تفلحون . اعلم أيها الواصلُ إلى هذا المكان ، ومن رآنا على هذه الحال ، أنهُ لا ينبغى لامرئٍ أن يغترّ بالدنيا وزينتها ، فإنها خوّانة غدّارة ، لا تعقبُ إلاّ الحسرة والندامة ، فمن سهل الله له دخول مدينتنا فليأخذ من المال ما يقدرُ على حمله ، ولا يمسُّ من فوق جسدى شيئاً ، فإنه ستر لعورتى ، وليتقِ الله ولا يسلبْ منه شيئاً ، وإلاّ أهلك نفسَه ، وقد جعلتُ ذلك نصيحةً منى إليه ، وأمانةً بين يديه ، والسلام على من اتبع الهدى .

فأثرت هذه العظات فى نفس الأمير موسى حتى أبكته وأمر أن تكتب له ، وأن يأخذ صحبُه ما يشاءون من الأموال والتحف والجوهر ، فقال طالب بن سهل :

لا ينبغى أنْ نترك ما على هذه الجارية ، فهوَ شىء ثمين لا نظير له

وأعظم هدية نتقربُ بها إلى أمير المؤمنين .

فقال الأميرُ : ألم تقرأ ما أوصتْ به الجارية ؟! لقد جعلته أمانةً ، وَما نحن بأهل غدرٍ وخيانة .

فقال طالبٌ : وهل نترك ما عليها ، من أجلِ كلمات كتبتْها ؟! وماذا تصنعُ به تلك الجاريةُ وهى مَيتَة ، ويكفيها ثوبٌ من القطن تستر جِسْمَها به ، ونحنُ — معشر الأحياء — أحقُّ بكل ذلك منها ؟! ثم تقدمَ وصعد فى سُلمٍ حتى كان بين العبدين ، وإذا أحدُهما يضربهُ فى ظهرِه ؟ والآخرُ يحزّ عُنقه بسيْفِهِ ، فوقع مَيتاً لا حراك به ، فقال الأميرُ موسى : ليسَ وراء الطمع إلاّ الخسرانُ والفزع ، لقد كان لك فى هذه الأموالِ ما يكفيك.

وبعد أن حملوا ما شاءوا من الأموال والجواهر ، أمرهم أن يغلقوا باب المدينة كما كان ، ثم ارتحلوا وساروا على السّاحل ، حتى أشرفوا على جبل عال مشرف على البحر ، وفيه مَغارات كثيرة ، بها قومٌ من السودان ، يلبسُون نطوعاً ، وعلى رءوسهم برانِسُ من نُطُوعٍ أيضاً ، ويتكلمون بلغةٍ لا يعرفُها أحدٌ ، فلما رأوا موسى وعسكرَه فروا إلى مغاراتهم هاربين ، وكان لهم مَلِكٌ يعرفُ اللغة العربية ، وسأل الأمير موسى الشيخ عبد الصمد حينئذ عن هؤلاء فقال :

إنهمْ طَلبةُ أمير المؤمنين ، فحطوا رحالهم ، وضربوا خيامهم ، وما كادوا يستقرون فى منازلهم حتى جاءهم ملكُ السودان ، فتلقاهُ الأمير موسى لقاء حَميداً ، ثم قال ملكُ السودان : أنتمْ من الإنسِ أم من الجنّ ؟ فقال الأمير موسى:

نحنُ من الإنس ، أما أنتم فيظهرُ لى أنكم من الجنّ ، لانفرادكم فى هذه المغاراتِ المنقطعة ، ولعظيم خلْقكم ، وضخامةِ أجْسامِكم ، فقال ملكُ السودان : ونحنُ إنسٌ من أولاد حام بن نوح عليه السلام ، وأما هذا البحرُ فإنه يُعرفُ بالكركر ، فقال موسى : أراك الآن تعرف شيئاً ، فكيف جاءكم العلمُ إلى هذا المكان ، وهو منقطِعٌ عن العُمران ، فقال ملكُ السودان : اعلم أيها الأمير أنه يظهرُ لنا من البحْرِ شخصٌ له نورٌ يضيء مكاننا هذا ، وله صوتٌ يسمَعهُ القريب منّا والبعيد ، فينادى : يا أولادَ حام استحيُوا ممنْ يَرَى ولا يُرَى ، وقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنا أبو العباس الخضر ، فاستجبْنا لندائه ، وآمنّا وصدقْنا ، وكنّا من قبلُ يعبدُ بعضُنا بعضاً ، وقد علّمنا كلماتٍ نعبُدُ الله تعالى بقولها ، فقال موسى :

وما تلكَ الكلمات ؟ فقال : « لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، يحيي ويُميتُ ، وهو على كلّ شيء قدير » ونحنُ لا نعرفُ شيئاً نتقربُ به إلى اللهِ غيرَ هذه الكلمات وكلّ ليلة جمعةٍ نرى على الأرض نوراً ، ونسمَعُ صوتاً يقول : سُبُّوحٌ قدوسٌ ، ربّ الملائكةِ والروح ، ما شاء اللهُ كانَ وما لم يشأ لم يكنْ ، كلُّ نعمةٍ من فضل الله ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليّ العظيم ، فقال له الأمير موسى :

نحنُ أصحابُ ملك الإسلام ، عبد الملك بن مروان ، بعثنا لنُحْضِرَ إليه من بحرِكم هذا قماقِمَ محبوساً فيها العفاريتُ من عهدِ سليمان بن داود عليه

السلام ، فقال ملكُ السودان : مرحباً بكم ، وبعلك الإسلام ، حاجتُكمْ مقضية ، فاستريحُوا أنتم واطمئنّوا ، وأمرَ الغواصِين أن يحضِرُوا له ما يستطيعون إخراجَه من القماقِم السُّليْمانية ، ثم أحضرَ لهمْ طعاماً من أنواع السمك ، فأكلوا جميعُهم حتى شبعُوا ، وكان الغواصونَ قد أحضروا اثنى عشر قمقما ، ففرح بها مُوسى وصَحبُه ، وتبادلَ الأميرُ موسى وملكُ السودانِ الهدايا ، ثم ارتحلُوا مُشيّعينَ بالحفاوةِ والإجلال ، ومعَهمْ هدية من سمَكٍ على صورة إنسان .

وَصَلَ موسى ومنْ معهُ إلى بلاد الشام ، ودخلَ على أميرِ المؤمنين ، وحدثَهُ عما رأى ، وما حصلَ لطالبِ بن سهلٍ ، فعجبَ وقال : ليتنى كنتُ معكم ، فأفوز بمشاهدة ما شاهدتم ، ثم أخذ القماقم ، وجعلَ يفتحُها قمقما فى إثر قمقم ، والعفاريت يخرجون قائلين : التوبة يانبىَّ الله ، ولنْ نعودَ إلى مثل ذلك أبداً ، وجعل أميرُ المؤمنين للسمَكِ الذى على صورة إنسان حِياضاً مملوءةً بالماء ، وألقاه فيها ، ولكنّهُ لم يستطع الحياة فيها فمات ، ثم وزّع أميرُ المؤمنينَ ما أحضرَه موسى من الأموالِ والجواهرِ على المسلمين

وقد طابَ موسى إلى أمير المؤمنين أن يستخلِفَ ابنَهُ مكانه ، ويعفيَهُ من عملِه ، حتى يذهَبَ إلى القدس ، يعكُفُ هناكَ على عبادة الله ، فلبّى رغبَته ، وذهبَ موسى إلى القدس وعكف على عبادةِ الله فيه حتى مات .

وإلى هنا ينتهى حديثُ مدينة النحاس .

أبو محمد الكسلان

كانَ هرون الرشيدُ جالساً يوماً على عرشِهِ ، ورجالُ الدولةِ وقوادُ الجيش يحفُّونَ من حَولِه ، فدخَلَ عليه غُلامٌ منْ صِغار الخِصْيان، وعلى يديه تاجٌ من الذهب المرصع بنفيسِ الدر ، وغالى الجوهر ، فتقدمَ الغُلام ، وأدّى فروضَ الإجلال والاحترام ، وقال سيدتى زبيدة تقرئك السلام وتقول : إنها أمرتْ بِصُنْعِ هذا التاج ، فجاء بَديعاً مُعجِباً ، ولكنْ ينقصُه جوهرةٌ كبيرة ، وقد فتشَتْ فى خزائنها عن الجوهرةِ الكبيرةِ التى تريدُها فلمْ تجدْها ، فأمرتْنِى أن أُحضرَ بالتاج بين يدَىْ مولاىَ الخليفة ، ليأمرَ بإحضار الجوهرةِ الكبيرةِ التى تنشُدُها. فقال أحدُ الجالسين: لاتوجدُ

هذه الجوهرةُ إلا فى البصرةِ ، عند رجلٍ يسمى « أبا محمد الكسلان » فأمر الخليفةُ بإحضاره بين يديه .

وكتب جعفرٌ كبيرُ وزرائه إلى محمد الزبيدى والى البصرة ، كتاباً أمره فيه أن يُرسلَ إلى أمير المؤمنين أبا محمد الكسلان ، وبعث بهذا الكتاب عَبداً من عبيد الخليفة يسمى مسرورا

وسافر مسرور من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة ، وهناكَ ناولَ الوالى محمداً الزبيدى ، كتابَ جعفر البرمكيِّ ، كبير الوزراء ، فلما قرأه أمرَ فى الحال ثلاثةً من جنودهِ أن يصحبوا مسروراً إلى دارِ أبى محمد الكسلان ، لإحضارهِ إليه ، وتبليغهِ أمرَ الخليفة .

ولما طرَق مسرور باب دار أبى محمد الكسلان ، خرجَ إليه غلامٌ من غِلمانه ، فقال له : أخبرْ سيدَك أنَّا رُسُلُ الخليفة ، جئنا فى طلبه ليحضُر إليه ، تنفيذاً لأمره ، فتلقاهم أبو محمد ، والبشرُ يترقرقُ فى وجهه ، ويتألقُ فى عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة ، لأمرِ الخليفة ، ولكن تفضلُوا لتريحوا ظهركم ، حتى أتجهزَ للرحيل معكم ، ثم سار بهم فى بهو فسيح زُيِّن بستائر من حريرٍ مطرزٍ بالذهب ، إلى أن أجلسهم فى حجرة واسعة ، فرشتْ بالبسُط الحريرية ، وصفت فيها مقاعد فاخرة ، وتدلتْ من سقفِها قناديلُ نحاسِيّة مُموهَةٌ بالذهب ، ولم يجلسوا غيرَ قليلٍ من الزمن ، حتى وُضعَ أمامهم سِماط ، عليه ما تشتهيه الأنفسُ من أنواعِ الطعام ، فى أوانٍ مذهبة متألقة ، وبعدَ أن طَعمُوا جعلَ أبو محمد يُحيّيهم ويُسَليهم ، وزادهم إكراماً

وحُظوة ، فأعطى كلاً مِنهم خمسةَ آلافِ دينار ، وباتوا فى داره حتى الصباح ، ثم ذهبوا جميعُهم إلى دار والى البصرة ، واستأذنوه فى السفر إلى بغداد .

وكان أبو محمد الكسلان قد ركب بغلةً سرجُها من ذهب ، ومعه بغلةٌ أخرى ، تَحمِلُ ما شاء من الهدايا ، وجَدّوا فى المسير حتى دخلوا مدينة بَغدادِ وكان مسرورٌ فى عجَبٍ من هذا الغِنَى العظيم .

دخلَ أبو محمد على الخليفة فحيَّا وعَظَّم ، فأمره بالجلوسِ فجلسَ فى احترام وأدبٍ جَمّ ، ثم استأذن الخليفةَ فى الكلام فقال : جئتُ أميرَ المؤمنين بهدية صغيرة ، ولكن قبولك إياها تجعلُها كبيرة ، فقال الرشيد : قبلنا هديتَك وشكرناك . فأمرَ الكسلانُ بإحضار صندوق من الصناديق التى معه ، ثم فتحهُ فأخرجَ منه تفاحاً ، على أشجارٍ من ذهب ، وأوراقُها من زُمرد ، وثمارها لؤلؤ أبيض ، وياقوتٌ أحمرُ وأصفر ، ثم أمرَ بإحضار صندوقٍ آخر ، فأخرج منه خَيمةً من ديباج مرصَّع بكريم الجوهر ، على أشكالٍ تمثل طوائفَ من الحيوانِ والطيْر ، فأبدَى الخليفةُ بذلك سرُورَه وإعجابَه ، ثم قال الكسلان : ما أحضرتُ تلك الهدية خائفاً ولا طامعاً ، ولكنى وجدْتها لا تصلحُ إلا لأمير المؤمنين أعزّ اللهُ جُندَه ، وأيدهُ بنصر من عندِه وإن أذِنتَ لى عرضت عليكَ شيئاً جديدا أقدِرُ عليه ، فقال الرشيد : افعلْ ما شئت يا أبا محمد ، فحركَ شفتَيْه ، وأومأ إلى ستائرِ النوافذِ فتحركتْ نحوه ، ثم أشارَ إليها أن ترجِعَ إلى مكانها فرجَعت ،

ثم نظر إلى الأبوابِ والنوافذِ المفتَّحةِ ، فظهرت كأنها مُقفَلة ، ثم تمتم كأنه يتكلَّم ، وإذا بأصوات طيورٍ تُسمعُ كأنها تجيبُه ، ثم نظر نظرةً أخرى ، فرجَعَ كل شيء إلى ما كان عليهِ .

أثارَ كلُّ أولئكَ دهشةَ الرشيد ومَن معهُ ، فقال : كيفَ أصبحتَ يا أبا محمد على هذه الحال ، وما عرفتُ عنك إلا أنك كسلانٌ ، وأن أباكَ كان حلاقاً يخدمُ في حمام ؟ ! فقال : حَديثي عَجيب ، إن أذنَ لي أميرُ المؤمنين قصصتُه ، فقال الرشيد : حَدِّثْ بما تَشاء . فقال :

كان أبي حلاقاً ، عاش فقيراً ، ومات فقيرا ، وكُنتُ أكسلَ مخلوقٍ في الدنيا ، لا أبرحُ مكاني ، إلى عملٍ لي أو لغيري ، وكانت أمي تخدمُ في بيوت الأغنياء وتُطعِمني وتسقيني .

وذات يوم جاءتني أمي في مكاني الذي لا أفارقُه ، وفي يَدِها خمسةُ دراهم ، وقالت لي : إن التاجر أبا المظفَّر عزم على رِحلةٍ إلى الصين للتجارة ، وهُو يحبُّ الفقراء ويَعْطفُ عليهم ويُساعدُهم ، فخذْ هذه الدراهم الخمسة ، واذهبْ إليه ، واسألهُ أن يشتري لك بها شيئاً من بلاد الصين ، عسى أن يكون لك فيهِ ربحٌ يُساعدُنا على المعيشة ، فقلتُ لها :

إني هنا قاعِد ، ولا أحب أن أذهبَ إلى أَحَد ، وما يمنَعُك أنت أن تذهَبي إليه وتقولي له ما تشائين ؟ ! فأقسمتْ يميناً لم تتركْ ريبَةً في نفسي ، لتَكُفَّنَّ عن إطعامي وخِدمتي إن لم أطِعْها ، فقلت : على شرط أن تُلبسيني حذائي ، وتُقيميني من قُعودي ، وأن أتوكأ عليك حتى نَصلَ إلى أبي

المظفر ، ففرحت وقالت : سأفعلُ ما تشاء ، وسأصحبُك حتى تعودَ إلى مكانِك ، ولا تُغضِبْ بقُعودِكَ أمَّك ، فيغضب عليك ربُّك ، فسَخَطُ الرب فى سخط الوالدين .

ولما وصَلنا إلى أبى المظفر — وكانَ إذ ذاكَ على ساحلِ البحر — سَلمتُ عليه ، وسألتُه أن يأخُذَ منى الدراهمَ الخمسة ، ليشترىَ لِى بها حاجةً من الصين ، يكونُ لِى فيها ربحٌ ينفعُنا ، فسأل أصحابَه عنى ، فقالوا : هذا أبو محمد الكسلان ، وما رأيناهُ قد خرجَ من منزلِه إلا هذه المرَّة ، فأخذ منى الدراهمَ قائلا : بِاسمِ اللهِ وعلى بركةِ الله ، ثم رجعتُ أنا وأمى إلى دارى .

وسافر أبو المظفِر وأصحابُه إلى الصين ، وهُناكَ باعُوا واشتروا ، وربحُوا من المال الوفير ماشاء لهم القدر ، ثم ركبُوا سفينتَهم راجعين ، وبعد ثلاثة أيام من مَسيرهم فى البحر ، تذكَّرَنِى أبو المظفر ، فقال لرفقائِه : قِفُوا ، فقالوا : ماذا جرَى ؟

فقال : نسيتُ أن أشترىَ شيئًا لأبى محمدٍ الكسلان ، فارجعُوا بنا لنشترىَ له شيئًا قد يَكونُ له فيه مَنفعَة ، فقالوا :

لقد لقينا من أهوالِ البحر كلَّ نصَبٍ ومَشقةٍ ، ثلاثة أيامٍ متوالية ، فخذْ منا أضعاف الدراهم الخمسة ، ولا تَرجعْ بنا ثانية ، فنزل على رأيهم ، وجمعَ لأبى محمد الكسلان مالاً غيرَ قليل منهم ، ثم ساروا بالسفينة حتى رستْ على جزيرةٍ عامرَةٍ بأهلها وسكانها ، فنزلوا فيها ليشترُوا شيئًا من

بضائعها ومُنتجاتها ، وبينما هم يسيرون فى الجزيرة ، رأى أبو المظفر رجُلا جالساً ، وأمامه عددٌ كثيرٌ من القردَة ، ومن بينها قِردٌ منتوف الشعرِ ، لا تسكتُ القِرَدةُ عن ضَربه وإيذائه ، فأشفق عليه أبو المظفر وقال لصاحبه : أتبيعُنى هذا القرد ؟ فقال : اشْتر ، فقال : إنّ معى خمسةَ دراهمَ لصَبى يتيم ، فهل ترضى أن تأخذها ثمنا لهذا القرد؟ فقال: رَضيتُ وبُورِكَ لكم فيه، ثم أخذوه مَعهم، وربَطوهُ فى مركبهم، واستأنفوا فى البحر مَسيرَهم حتى رستْ بهم على جزيرةٍ أخرى ، يستخرِجُ الناسُ عِندها من البحر اللؤلؤَ وغيره من الأحجار الكريمة .

وهناكَ استأجر أبو المظفر ورفقاؤه الغطاسين ، فجعلوا يغطسونَ ويخرجون ما يَجدونه فى قاع البحر من الجواهر ، فلما رأى القردُ ما يَصنَع الغطاسون حلَّ قيده وغطس مثلهم، فظن أبو المظفر أن القردَ أفلت وغرق وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله ! لقد فقدنا القردَ الذى اشتريناهُ بمالِ الغلام الكسلان ، ولكنه لم يلبثْ أن رآه قد خرجَ من البحر ، يحملُ كثيراً من الجواهر ، وتقدّم بها ووضعها بينَ يَدى أبى المظفر ، فعجب وقال : إنّ لهذا القِرد سرّاً عظيما ، ثم ركبوا سفينتهم وجَرتْ بهم حتى أرسَوْها على جزيرة يقال لها جزيرة الزنوج ، وهم قومٌ يأكلون لحوم البشر ، وما كادُوا يرَوْنهم حتى جاءوهم مسرعين ، وأحاطوا بهم فى البر ، وفى البحر على قواربهم الكبيرة ، وأوثقوهم بالحبال وساقوهم إلى مليكهم

فأمر بذبح جماعة منهم ، وبات الباقونَ فى غمٍّ وحزنٍ عظيمين ، ومخافةٍ منْ مصيرهم الذى يتوقعون ، وكانَ القردُ معهم ، فنهضَ فى منتصف الليل ، وحل قيدَ أبى المظفر ، فلما رأى التجارُ أن أبا المظفر أصبحَ حرًّا طليقا ، قالوا له :

لقد قيّضَ الله لكَ من نجاك ، وأصبحتْ نجاتنا الآن فى استطاعتِك ومتناول يديك ، فقال لهم :

لقد جعلَ الله خلاصى على يدِ هذا القرد ، فجعلتُ لصاحبه لقاء ذلك من مالِى ألفَ دينار ، فصاحوا جميعُهم قائلين :

وقدْ شرَوْنا نجاتنا بأموالنا ، ففكَّ قيودنا ، وسرِّحنا من رِبْقنا وعُقُلنا ، على أن يهبَ كلٌّ منا لصاحب هذا القرد ألف دينار ، فلما سمع القردُ ذلكَ منهم ، قام إليهم وحلّ قيودَهم ، وأخرجهم من رِبقهم وعُقالِهم ، ففرّوا إلى مركبهم ، وأقلعوا سالمين ، ثم طلب منهم أبو المظفر أن يَفوا بما وعدوا ، فأعطاه كل منهم لصاحب القرد ألفَ دينار ، واجتمع له من هذا مالٌ وفير ، واستمرت بهم السفينةُ سائرة ، حتى وصلوا إلى مدينةِ البصرة ، ورجع كل منهم إلى بيته .

قال أبو محمد الكسلان : وبينما أنا فى دارى ، وفى مكانى الذى لا أفارقه دَخلتْ علىَّ أمى وقالت :

جاء أبو المظفر ، فاذهبْ إليه ، وسلّمْ عليه ، واسألهُ عن الحاجة التى كلفتَه بها ، فعسى أن يكون لك فيها نفع عظيم ، فقلت : إن كنتِ قد

نَسيتِ شَرْطى فلستُ بذاهب إليه ، فقالت : إن طلبت منى أن أحملكَ على رأسى فإنى راضية ، فتوكأتُ عليها ، وأنا من الكسل كأنى أحملُ جبلا ، ولما رآنى أبو المظفر قال :

أهلا بمن كانتْ دراهمه سببا فى نجاتى ، ونجاة رفقائى ، من موتٍ عاجلٍ محتوم ، خُذ هذا القرد ، واذهبْ به إلى بيتك حتى أجىء إليك ، فاعترانى لذلك همٌّ ناصِب ، وحزنٌ أليم ، ثم رجعنا إلى البيت وأمى ساكتة لا تَنطِقُ بكلمة ، لِمَا حاق بها من حيرة ودهشة ، فقلتُ لها : أليس القعودُ خيرًا من الحركة ؟ لقد كنت تطعمينَ أبا محمد الكسلان وحده ، فأصبحتِ مكلفة بإطعامِه وإطعام القرد معه ، وهذه تجارتكِ التى طمعت فى ربحها ، فلم تجِبْنِى بكلمة ، وكأنها لم تسمع منى قولا .

وبينما أنا جالسٌ فى بيتى إذ أقبل أبو المظفر وأخذنى معه إلى بيته ، وهناكَ أمر غلمانه أن يُعطونى المال فى صناديقه ، وناولنى مفاتيحها وقال : هذا ربح الدراهم الخمسة ، ثم أمر غلمانه أن يحْملوا الصناديق إلى بيتى ، وما رأتها أمى حتى فرحتْ فرحا عظيما وقالت :

أليست الحركةُ خيرا من القعود ؟ ! ألم أحـذرْكَ عاقبة الكسل غيرَ مرة ، وأنت لا تسمعُ ولا تُطيع ؟ ! فخجلتُ منها ، وعرفتُ أن الكسلَ طريق إلى الفقر ، ونَسْخٌ لآية الحياة . وعزمت على أن أنزعَ عنى لباسَ الكسل ، وأن أشتغل بالتجارة من ذلك الحين .

استأجرْتُ دكانا فى سُوق المدينة ، وصَحبنى القرد فيها ، فهو يشاركنى

فى الجلوسِ والأكل ، غيرَ أنه كان يتركُ الدكان كل يوم من الصباح ثم يأتينى ظُهرا ، ومعهُ ألف دينار ، واستمر على ذلكَ مدةً طويلةً من الزمن ، حتى جمعَ لى مالا كثيرًا ، اشتريتُ به المزارعَ والبساتين ، وكثيرًا من المنازل والقصور ، والمماليكِ والجوارى ، وأصبحتُ من أكابر الأغنياء فى المدينة ، بل أَغناهُم وأَوفرهم ثراء ، وأوسَعهم نعمةً وجاهًا ورَخاء .

وذات يومٍ رأيت القردَ فى الدكان يلتفِتُ يمينًا وشمالا على غير عادة ، فنظرتُ إليه ، وكأنى أسأله عن ذلك ، فقال :

يا أبا محمد ، فلحقنى منه رُعبٌ وفزع ؟ فقال : لا تخفْ ، وسأخبرُكَ عن أمرى ، واستمر قائلا : أنا ماردٌ من الجن ، وقد صحبتُك لإصلاح حالك ، وأنت الآن من أكابر الأغنياء ، وأُحبُّ أن أشيرَ عليك بأمر فيه كلُّ خيرٍ لك ، فقلت : وما هوَ ؟

فقال : أُريدُ أن أزوجك فتاةً كأنها البدْر ، وستكونُ هى سببًا فى زيادة نعمتِك ، وكثرة مالك ، وعظيم راحتك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال :

اذهبْ إلى سوق العلافين ، واسألْ عن دكان الشريف ، فإذا جلست إليه فقلْ له : إنى راغبٌ فى زواج ابنتك ، فإن قال : لا أزوجها إلى رجلٍ لا مالَ له ولا حَسب ، فادفع له ألف دينار ، فإن طلب المزيدَ ، فأعطه ما يريد .

لبِستُ أفخرَ ما عندى من ثياب ، وركبتُ بغلتى وعليها سَرج من ذَهَب ، وذهبتُ إليهِ فى عشرة من عبيدى ، فلما سلمتُ وجلستُ قال :

لعلّ حاجةً جاءت بكَ إلىّ ؟

فقلت : جاء بى إليك ، رغبتى فى زواج ابنتِك .

فقال : لن أزوّجَ ابنتى لرجل لا مالَ له ولا حَسَب .

فناولته كيسا فيه ألفُ دينار قائلا : ذلك حَسبُ من لا حسبَ له .

فأطرق الشريف ثم رفع رأسه قائلا : إن كنت تريدُ الزواج فأعطنِى ثلاثة آلاف دينار أخرى .

فأرسلتُ عبداً أحْضرها من بَيتى ، ولما أخذها أغلق دكانه ، ودعا أصحابه ، وذهبنا جميعا إلى بيته ، وهناكَ أبرمنا عقدَ الزواج ، واتفقْنا على أن أدخل بها فى بيتهِ بعد عشرةِ أيام ، ثم قَفلتُ راجعا ، وقصصْتُ على القرد جميع ما جرى . ولما دنا موعدُ دخولى بالفتاه قالَ القرد : إذا كانتْ لى حَاجةٌ عِندكَ ، فهل أنا واجدٌ عندكَ رغبةً فى قضائها ؟ فقلت : لا يُحجمُ عن قضاء حاجةٍ لك إلا لئيم جاحِد ، فقال : وإنْ أنت قضيتها فلك عندى ما تشاء ، فقلت وما حاجتك ؟ فقال : : فى الحجرة التى تدخُلُ فيها ببنتِ الشريف خِزانةٌ من الحديد ، وفى بابها حَلقةٌ من نُحاس ، ومَفاتيحُها تحت هذه الحلقة ، فإذا فتحتَ الخزانةَ وجدت داخلهاَ صُندُوقا من الحديد ، على أركانه الأربعةِ ، أربعُ رايات من الطلسَم ، ويتوسطُ الراياتِ وعاءٌ مملوء بالمال ، وبجانبه سكين ، وفى

وَسط الوعاء ديكٌ أفرقُ أبيضُ ، والذى أريدُه منكَ ، أن تذبحَ الدّيك بهذهِ السكين، وتقطع الرايات، وتقلب الصندوق، فإذا انتهيْتَ من ذلك فاذهبْ إلى زوجك ، واستمتعْ بها ليلتَك ، فقلتُ له : ذلكَ شىءٌ يَسير لا يُساوى شيئاً صَغيراً من معرُوفِك ، وسأنفذُه كما أردْت .

وفى الليلة الموعُودة كنت أنا وزوَجتى فى تلك الحجرة ، فجلسنا نتحادثُ فى شئونٍ عِدة ، حتى غلبَها النومُ واختطفَها من يَدى ، فانتهزت هذه الفُرصَة ، وفعلتُ ما أشارَ به القرد ، ولما استيقظت مِنْ نومها ورأتنى فعَلتُ ما فعلتُ قالت فى ألمٍ وحَسْرة : لاحَول ولا قوةَ إلا بالله ، أخذنى الماردُ ، وما أتمتْ كلامها حتى كانَ الماردُ قد خطفَها ، وكان قد أحْدَثَ فى القصر ضجةً شعرَ بها والدُها ، وعرَف عاقبتَها ، فجاءنى حَزيناً غاضباً وقال : أهذا جزاؤُنا مِنك ؟ لقد عمِلتُ هذا الطلسمَ لأَصُون بنتى من ذلكَ الماردِ الذى يُحاول اختطافَها منذُ ستِّ سنوات ، والآنَ فاذهبْ إلى بيتك ، وكفانا هذه النكبةُ التى أصابتنا بسببك .

ولما رجعتُ إلى بيتى فتشتُ عن القرد لعلّه يساعدُنى فى إرجاع زوجَتى ، فلمْ أجدْ له أثرا ، فعلمتُ أنه هو الذى خطف الفتاةَ ، وأنه هو الذى خدعنى ومكرَ بى ، حتى فعلتُ بالطلْسَمِ ما أمرَنى به ، فلمْ أُطِق البقاء فى بيتى ، وخرجتُ أمشى على غيرِ هدى ، وبينما أنا سائر وجدتُ حيّتين تتقاتلان ، إحْداهما سَمراء وكانت الباغيةَ الغالبة ، والأخرى بيضاء وكانت المغلوبة ، فأخذتُ حجراً وضربتُ به السمراء الظالمةَ فماتت ، أما البيضاء

فإنها غابتْ قليلا ثم عادتْ ومعَها عشرُ حياتٍ بيض ، فاجتمعن حول السمراء المقتولة ، وجعلنَ يقطعنها قطعةً قطعة ، ثم انصرفنَ إلى حيثُ لا أدرى . وكنتُ قد شعرتُ بالتعبِ فاضطجعتُ فى مكانى ، وسمعتُ صَوتًا لا أعرفُ مصدرَه يقول : أرِحْ نفسك من التفكير ، فلا مفر من المقدُور ، ولا بقاء على حال ، فدوامُ الحال من المحال ، فانتبه وِجْدانى وأخذت أتبيّنُ صاحبَ هذا القول فلمْ أجِدْ له أثرا ، فأطرقتُ إطراقةَ انكِسَارٍ وحَيرَة فإذا بالصوتِ أسمَعُه يعيد هذا القول مرةً أخرى . فقلتُ على أثَرِه : سألتكَ باللهِ أن تظهرَ لى يا صَاحبَ هذا الصوت ، فإنى فى حاجةٍ إلى الائتناس برؤيتك ، كما ائتنَسْتُ بقولك ، فإذا بإنسانٍ قد وَقف أمامى قائلا : نحنُ من الجنِّ المؤمنين ، وقد فعلتَ بنا مَعروفا ، فجِئنا إليك لنكون فى خدمتك ، وقضاء حاجتك ، اعترافا منا بجميلك وفضلك ، فقلت :

لى حاجةٌ عظيمةٌ ، والأمل فى قضائِها ضعيف ، فقد أُصبتُ بمُصيبةٍ كانتْ من صُنع يدى ، ومخادعتى ممنْ وضعتُ فيه ثقتى ، ولا مخلص لى منها ، فقال : ألَستَ أبا محمد الكسلان ؟

فقلتُ : بلَى وَربّى ، فقال : أنا أخو الحيةِ البيضاء التى قتلتَ عدوها ، وأنا وأخواتى الحيات نشكرُ لك هذا الجميل ، واعلم أنّ القرد الذى كان عندكَ ، هو الذى خَطفَ زوجك ، وهو ماردٌ من الجن ، وقد احتالَ عليك وخدعك حتى أفسدتَ الطلسم ، ليتمكن مِنْ خطفها ، ولكنَّا

سنقتُله ونردُّ إليك زوجك ، ثم صاح صيحةً عظيمة ، فحضر على أثرها جماعة من الجن ، فسألهم : أين الماردُ الذى خطف الفتاة زوجة أبى محمد الكسلان ؟ فقال أحدُهم : إنهُ فى مدينة النحاس ، ثم التفت إلىّ قائلا : سيحملك ماردٌ على ظهره ، ويطيرُ بك إليها ، وسيُعرِّفك كيف تُحضرها ، ولكن احذرْ أن تنطق بكلمةٍ وهو طائر بك ، فإنك إن نطقت بكلمة أهلكته وكنت معه من الهالكين .

ارتفع المارد بى فى الجو حتى خيل لى أنى قريبٌ من السماء ، وإذا بشخص فى الجو قدْ لبس ثوبا أخضر ، ولهُ وجهٌ جميلٌ ، وفى يده حربة يتطايرُ منها الموت ، فنادانى قائلا :

يا أبا محمد ، قُل : لا إله إلا الله محمد رسولُ الله ، ولم يكدْ ينتهى من قوله حتى وجدتنى أنطق بالشهادتين ، ثم ضرب المارد الذى يحملنى بحربته ، فمات لساعته ، وصار رَمادا ، ووقعتُ فى بحرٍ واسع ، على مقربةٍ منْ مركَب به خمسة رجال صيادين ، فأسرعوا لإنقاذى من الغرق ، وحملونى فى مركبهم ، وجعلوا يكلمونى وأنا لا أفهمُ لواحدٍ منهم قولاً ، فأشرت إليهم أنى لا أعرف لُغتهم .

ولما وصلوا بى إلى مدينتهم ، وأدْخلونى على مليكهم ، وكان يتكلم باللغة العربية ، منحنى خلعةً وقال :

قد جعلتك من أعوانى ، وأمر وزيره أن يطوف بى فى أنحاء المدينة لأعرفها وأعرف ما فيها ، وكانت من مُدنِ الصين ، يقال لها هناد ، وكان

سكانها الأولونَ كفارا ، فمسخهم الله حِجارة ، وأقمت فيها مدةَ شهر مُكرما ، وأنا لا أدرى سببا لهذا الإكرام .

وبينما أنا جالسٌ ذات يوم على شاطئ نهرٍ ، أقبلَ علىَّ فارسٌ وحيانى تحيَّتَه ، ثم قال : ألستَ أبا محمد الكسلان ؟

فقلت: بلى وربّى ، فقال : لقد فعلت بنا جميلا ، فقلت : ومن أنت ؟ فقال : أنا أخو الحية البيضاء التى قتلتَ عدوّها ، ولا تخفْ فأنت الآن على مقربةٍ من زوجتك التى خطفها المارد ، وسأعينك على الوُصول إليها ، ثم ألبَسنى ثوبا من ثيابه ، وأردَفنى خلفَه ، وأرخى العنانَ لفرَسه ، فطارَ بنا ينهبُ الأرض نهبا ، حتى وصلنا إلى بريّةٍ واسعةٍ ، يشرفُ عليها جبلان ، فأنزلَنى وقال :

سِرْ بين هذين الجبلَيْن حتى تصلَ إلى مـــدينةِ النحاس ، التى فيها زوجَتُك ، ولا تدخلْها حتى أجيئَك .

أخذتُ أسيرُ بين الجبلَين حتى وصَلتُ إلى مَدينةٍ سُورُها من نحاس، فعلمتُ أنها المدينة المقصودَة ، فطفتُ حول سورها فلم أجِدْ فيه بابا ، وبينما أنا فى دهشةٍ منْ أمرِ هـذه المدينة التى لا باب لها إذ أقبلَ أخو الحية ، وناولنى سيفاً مطلسَما ، يقينى الشرَّ ويمنعُ عنى الأذى ، وكان معه إخوته ، فقالوا :

ألا ترى هذا الجدول الجارى ؟ فقلتْ : نعم ، فقالوا : سِرْ معه حتى تراهُ انْعرج نحو المدينة ودخلها من فَجْوةٍ فى الأرض ، فألقِ نفسك فيه ،

وادخلها مع مائه ولا تخف شيئاً ، فنفذتُ ما أشاروا به ، حتى كنتُ في وسط المدينة ، فرأيت بُستانا : أشجارهُ من الذهب ، وأثماره من الجواهر الكريمة ، ولما دنوت منه رأيت زوجتي جالسةً فيه على مقعد ذهبي جميل ، تحت قبةٍ موشاةٍ بالذهب ، فجريت نحوها ، ولما رأتني عرفتني وجرت نحوى قائلة :

أهلا بزوجى ، وأجلستنى على مقعدٍ بجوار مقعدها ، ثم سألتنى :

كيف وصلتَ إلى هـذه المدينة ؟ فحكيتُ لها ما جرى لى بعد خطفها ، وقصت هى قِصتها ، وكيف حملها الماردُ إلى هـذه المدينة ، ثم قالت :

إنّ هذا الماردَ الملعونَ من كثرة حبه لى أطلعنى على سِرّه ، وما يضُرُّه وما ينفعُه ، ولقد هممتُ مرارا بالهرب بالوسيلة التى دلنى عليها ولكنى خِفتُ الإخفاق ، وما يعقبه من غضبه وانتقامِه مِنى ، ومادمتَ قد جئت فسأدلك على وسيلة تنجينا من هذا المارد ، وتمكننا من العودةِ إلى أهلينا بالبصرة ، وذلك أن تذهبَ إلى ذلك العمود القائم بالحديقة — وأشارت إليه — وستجدُ عنده تمثالا صغيرا لعقاب ، وعليه كتابةٌ لا أعرفها ، فإنْ أنت أخذتَ هذا العقابَ وبخرته بالمِسْكَ ، حضر إليك العفاريتُ من كلّ فجّ ، وكانوا طوع أمرِك ، وفى استطاعتهم أن يخلصُونَا منْ هذا المارد ويوصلونا إلى البصرة .

فقمتُ إلى ذلك العمود ، وفعلتُ بالعقاب ما أمرتنى به ، وحضر

العفاريتُ من كل ناحية ، وقالوا : نحنُ فى طاعتك ، فمرنا بما تُرِيد ، فأمرتُهم أن يقيدوا المارد الذى خطف زوجتى بالأغلال والسلاسل ، حتى لا يبرح مكانه، ولما فعلوا ما أمرتُهم به رَجعتُ إلى زوجتى ومعى العُقاب، وخرجتُ بها من الطريق الذى دخلتُ منه إلى المدينة ، فوجدتُ إخوةَ الحية البيضاء فى انتظارى ، فساروا بنا نحو البحر ، وأحضرُوا لنا مركبا حَمَلنا إلى مدينة البصرة ، فذهبتُ بزوجتى إلى بيتى ، وعَلِم بذلك أبوها وأهلها ، فجاءونا مُسرعين ، يُهنئونا بالعَوْدةِ سالمين .

وبعد أن استرحنا فى بيتنا آمنين ، بخّرْتُ العقابَ بالمسكِ فحضرَ العفاريتُ قائلين : لبيك لبيك ياسيدنا ، فمرنا بما تريد ؛ فأمرتهم أن ينقلوا إلى بيتى ما فى مدينة النحاس من ذهب وجواهر ومال ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم جعلتهم يحضرون المارد الذى خَطف زوجتى ، فلما حضر أمرتهم أن يحبسوه فى قمقم ضيّقٍ من النحاس ، وأن يحكموا إغلاقه بالرصاص ، ففعَلُوا ثم سَرّحتُهم ، وأصبحتُ بفضل الله فى هذا الغنى الواسع ، وأصبح العفاريتُ فى طاعتى وتحت أمرى ، بسبب العُقاب الذى عندِى ، وهذه حكايتى يا أمير المؤمنين .

فعجب الخليفة ، ثم أكرمه وخلّى سبيلَه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واللهُ ذو الفَضل العظيم .

عبد الله البرى وعبد الله البحرى

(١)

زَعموا أنه كانَ فى البَصرة — إحدى مُدنِ العراقِ — صيَّادُ سمكٍ اسمُه عبدُ الله ، وكانَ عائِلا ذا بنين وبناتٍ ، فقيرًا ؛ يعيشُ عِيشةً ضَنْكا ؛ ولكنه كانَ قليلَ الشكوى ؛ يقْنعُ باليسير ، ويرْضىَ بالقَليلِ ؛ وكانَ يغدُو كلَّ يومٍ إلى البحرِ ، ثم يرُوحُ بما اصْطادَهُ من سَمك ، يبيعُه ، ويَشتَرى بثمنه رِزقا لزوجِهِ الحُبْلَى ، وأطفاله الصِّغار .

وجاء زوجَه المخاضُ ، فى يومٍ آذنَتْ شمسُه بالمَغيب ، وانطَلَقت ريحُه عاصفةً قاصفة ، ووَمضَ برقُهُ لامِعًا خاطفًا ، وهَطَلَ مطرُه متداركا متتابعًا .

وما طَلَعَ الفجرُ أوكاد- حتى وَضَعت زوجُه ولدا ، وأصبحَ عائلَ عَشرة، لا يكسبُ أكبرهم قوتَ يومه ؛ فلم يبتئس عبدُ الله ، لأنه يَعلَم أن « الذى شَقّ الأشداق ، متكفّلٌ بالأرزاق » .

وبات عبد الله ليلته ساهدًا ساهرا ، لم يَذُق النوم إلا غِرارًا ، ولم يقعد به ما عَنَاهُ عن تبكيره فى طَلَبِ الصيد كعادته .

فخرج إلى البحر مع الصباح ، وظلّ يرمى شبكته دائبًا لا يَعرفُ فتُورًا ، حتى أدركَهُ الليلُ ، وأمسى المساء ، ولم يفتح الله عليه بسمكةٍ واحدةٍ ، فقفل راجعًا كاسفَ البال ، ضيِّقَ الصدرِ ، لا يدْرى ما السبيلُ إلى طعامِ زوج نُفَساء وأطفالٍ زُغْبِ الحواصلِ جِيَاع .

ولكنه مرّ فى رواحه على حانوت خبّاز فوجد عليه جماعةً من الناس يتدافعون بالمناكب ، وسرْعانَ ما عطرتْ رائحةُ الخبز معاطسه، فصاحت عصافيرُ بطنه ، وأطرق متنهداً ؛ فتوسّم الخبازُ ما فى نفسه ، فناداه :

ياصيادُ ! أتريد خبزاً ؟

فسكتَ عبد الله لايحير جوابًا .

فقال له الخبازُ :

لا تستنكفْ أن تطلبَ خبزاً بثمنٍ مؤجل إلى أمرٍ قريب أو بعيد .

فقال له عبدُ الله فى كثير من الحياء :

أشكرُ لك كرمَك ، ولكنّ نفسى لا تطوعُ لى هذا ، فخذ شبكتى

هذه رَهْناً عندك ، حتى أوفيك ثمن خُبْزِك .

فقالَ الخبازُ : كيفَ ترهَن شبكَتكَ يا مسكين ، وَهي عُدَّتُكَ وعَتادُكَ ؟ !

فقال له عبد الله : صدقتَ ، وأبقى على الشبكة ، وأخذَ من الخباز ما يكْفِي أهلَ بيته من الْخُبزِ ، ونفحه الخبازُ عشرةَ أنصاف فِضَةٍ للنَّفقةِ .

ظَلَّ عبدُ اللهِ على هذا الحالِ أربعين يوماً يَغْتَدِي إلى البحر ، ثم يروح خاوى الوِفاضِ ، لم يَصِدْ سمكةً واحدةً ، ثم يمرُ على الخبازِ مستَخْيِيا ، يحُث خُطاه ، حتى لا يراهُ ؛ ولكنَّ الخبَّازَ يُناديه ، ويُعطيه ما تعوَّدَ أن يُعْطيَهُ من خُبزٍ وفِضَةٍ ، من غير أن تخبُثَ نَفْسُه ؛ فيعرضَ عنه ، ويمنَعَه رفدَه .

وفى اليوم الحادى والأربعين استيقظَ عبدُ الله مبكّرا ، وتناوَلَ طعام الصَّباح ، وتلَكأَ فى الخروج .

فقالتْ له زَوْجُه : مالك لا تُعدُّ العُدَّةَ للخروج إلى البحر كعادتك ؟

فقال لها ، وقد بدا البؤسُ واليأسُ على وَجْهه :

لقد مَلِلْتُ الصيدَ فى غيرِ جدوى ، وكَرِهتُ أن أمرَّ على الخبَّاز كل يومٍ ؛ فيُعْطيني خُبزًا وفضة .

ثم ثارتْ ثائرته ، وهَمَّ بتمزيق الشبكة ، لولا أنْ حالَتْ زوجُه بينه وبينها ؛ وقالَتْ له :

أقَنطتَ من رحمة ربِّك ؟

فقال لها : أعوذُ بالله أن أكون من القانطين ؛ ولكنى أكاد أذوب حياءً من الخباز كلما تصدق عَلَىَّ ، وليس لى طريقٌ إلى البحر إلا طريقه .

فقالت له زوجُه : هل مَنَّ عليكَ ، أو آذاكَ بكلام ؟

فقال لها : معاذَ الله ! إنه لَنبيلٌ كريم ولكن إلى متى يتراكم علىَّ الدَّينُ وهو (هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار) ولا ألمحُ فى أفق الأمل رجاءً فى أدائه .

فقالتْ : هوِّن عليك فسيكْفيكَهُ الله ، ويرزقُك من حيثُ لا تحتسب .

فسمعَ الصيادُ لزوجه ، ولقى كلامها منه قبولاً حسناً ، فحملَ شبكتَهُ ، وذهب إلى البحر ورماها يصْطاد ، فشَعر بعد قليل بثقل فيها ، فهشَّ واستبشر ؛ ثم عالجها ؛ حتى أخرجها بعد عناءٍ شديدٍ ؛ ولكنه وَجدَ فيها حِماراً ميّتاً ؛ فقال :

لا حولَ ولا قوّة إلا بالله .

ثم انتبذَ مكاناً قصيًّا ؛ حتى لا تأْخذه رائحة الجيفَة ، ورَمى شبكته ، ثم جذبها فوجدها ثقيلة ، فأخذ يُعالجها حتى أَخْرجها ، وقد أدمَت يديه ؛ فإذا فيها مخلوق عجيبٌ ظنه مارداً يبغى به شرًّا ؛ فَسرت الرِّعدةُ فى جسمه ، ورمى الشبكة على الأرض ، وولَّى هارباً ؛ يصيحُ من الخوف ، يَرجو المعونةَ والغوثَ ؛ فانبعث من الشبكة صوتٌ يناديه :

لا تخف يا أخا البشر ، فإنى لَستُ ماردًا ، ولا شَيْطانًا ، ولكنِّى عبدٌ من عبادِ الله المؤمنين سكانِ البحر ، لا أريق دمًا ، ولا أوذى إنسانًا فتعال خَلِّصْنى من شبكتك ، فقد أَضرَّت بى حبالها ، ولك من الله الأجر ، ومنى الحمد والشكرُ .

فلما سمع عبد الله كلام البحرى سكن روعُه ، واطمأن قلبه ، وسرى عنه ؛ ورجع إلى شبكته ، فخلص البحرى منها ، وتبيَّنه ، فإذا هُو فى نصفه الأعلى إنسانٌ كاملُ الخلقة ، له لحية كَثَّة ، وشاربان محفُوفان ، وأنف أَقنى وعينان واسعتان براقتان ؛ ثم هو فى نصفه الأسفل سمكةٌ لها ذنب ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين .

فقال له عبد الله : من أنت ؟ !

فقال البحرى : أنا عبدُ الله ، أسكُنُ البحر ، وأسبحُ فى جنباته ، كما تسكُنون أنتم معشر الإنس الأرضَ ، وتمشون فى مناكبها ، وقد رميت على شبكتك فى أثناء تجوالى ، وكان فى وُسْعى أن أقطعها ، ولكنى خفت الله ، وقد صرتُ فى يدك ، فافعل بى ماتشاء ، ولو أعتقْتَنى ابتغاء مرضاة الله ، لكُنتُ لك من المخلصين : أغوصُ فى البحر وآتيك كل يوم بما تشاء من در وزمُرّد ، وياقوتٍ ومرجان .

فأطْلَقَ عبد الله البرى عبد الله البحرى ، بعد أن تآخيا ، وتعاهَدا على أن يأتى عبد الله البرى فى مطلع الفجر ، ومعه بعض ما تنبتُ الأرض من تين ، وعِنب ، وسفَرجل ، وتُفاح ، وكمثرى ، وبلح ، ورُمان ؛ ليلقَ

عبد الله البحرى ، ومعه بعض ما يخرج البحر من در ، وزُمرد ، وياقوت ، ومَرْجَان .

وغَاص عبدُالله البحرى فى البحر ، بعد أن قال لعبد الله البرىّ :

البثْ قليلًا ، آتك ببعض ما عندنا من جواهرَ قيمتُها عندنا قيمة الحصى والحصباء عندكم .

ولبث عبدُ الله البحرى بضع دقائق ، خالَها البرى ساعاتٍ طويلة ، فهجست فى نفسه الهَواجسُ ، وندم على أن صدق البحرى ، وعلى أنْ تركه يفلت من يده ، فما يدْريه ؛ لَعَلَّهُ أن يكون خبًّا مخاتلا ، خدعه بزخرفِ من القولِ .

وبينما هو كذلك ، تساورُه وساوسه إذ خرج البحرىُّ فى كلّ من يُمناهُ ويُسْراه قبضةٌ من الجواهر الكريمة ؛ فلما رآهُ البرى تهلل وجهه بشرا ، وندم على أن ظنّ بصاحبه سوءا .

ثم كان بينهما موقف وَداع ، فغاص البحْرى فى البحر ، وعاد البرى أدراجه بعد أنْ ألقى بالشبكة فى الماء .

ومرّ الصياد على الخباز ، فناداهُ كعادته ، فلبَّى نداءه ، ولما أعطاه الخبز والفضة أعطاه نصف ما معه من جواهر ، وقال له :

خذْ هذه الجواهر جزاء وفاقًا لكرمك ، وطيب عنصرك ، ونبل أخلاقك .

ففغر الخباز فاه دهشا ، وأخذ منه ما قدّم له ، ثم دعا له بالسعادة ، وطول العمر .

ولما وَصَل عبد الله إلى بيته ، ورأتْ زوجُه وبَنُوه ما معه من جواهر خرَّت المرأة ساجدةً لله ، وانهمرتْ من عينيها دُموع الفرح ، ورقَصَ الصِّبْية جذلاً وحبورا .

وبعد أن أوَى عبد الله إلى مَضْجعه ، واستَجمَّ قليلا ، حمل جوهرةً ثمينةً ، وذهب بها إلى كبير الصَّائغين ، يعرِضُها للبيعْ ؛ فلما رآها الصائغُ في يَدِه ، حَدجه بنظَرة فاحِصَة لا تخلو من عجب ودَهشة ؛ ثم سأله :

من أين لك هذه الجوْهرة ؟

قال : هيَ جوهرَتي ، وعندي منها كثير .

فنادى الصائغُ الشرطيَّ ، وكلَّفه أن يقبض على عبد الله متهماً إيّاه بالسطو على بيت الوالي ، وسرقة جواهر زوجه ، وكان اللصُوص ، قد سَطَوْا عليه بالأمس ، وسرقوا ما عثَروا عليه من حُلًى وجَواهر .

وسيق عبد الله إلى بيت الوالي مكبَّلا بالحديد ، فسأله الوالي :

من أين لك هذه الجوهرة ؟

فروَىَ له قصته في تفصيل لم يدعْ منها شيئا .

فعجب الوالي جدَّ العَجَب ، وأمر ، فعُرِضَت الجوهرةُ على زوْجه ؛ فَشهدَت بأنها لا تُشْبه أيَّ جوهرة من جَواهِرِها المسروقة ؛ فثَبَتَتْ بذلك براءةُ عبد الله .

وظلَّ عبدُ الله يتردَّدُ على البحر ، ويلْقىَ صديقه البحْري في الزَّمانِ والمكان الذي يَتفقان عليه كلَّ مرة ، فيُقَدِّمُ هُوَ له ما يحمِلهُ من صنوفِ

الفوَاكه، ويُقَدِّم له البحرىُّ جملة من ثمين الجواهرِ، ويجلسان بعض الوقت يتحدثان ويتسامران، ثم يُسَلِّم كلٌّ منهما على صاحبه، ويفترقانِ على ميعاد.

وباعَ عبدُ الله البرى بعض ما كان يأتيه به البَحْرى من جواهر، واختصَّ بها صِغارَ الصَّائغين، وحرم كبيرهم من شرائها، جَزاءً وِفاقاً لسوءِ ظنِّه بالنَّاس، وتسرُّعِهِ فى اتِّهامهم، وإهمال الرَّوِية فى الأمر الجسيم.

واشْتَرى ببعض ماصارَ له من ثمنها ضياعاً عريضةً، ورياضاً أريضة، وحدائق غلبا، وبنى قصُورا لا تأخذُها العينُ، وذكرَ الفقراء والمساكين واليتامى والأيامى، فأجْرَى عليهم أرْزاقاً، وبنى لهم مُستَوصفاتٍ، وملاجئ؛ يفزعون إليها إذا تنكَّرَ لهمُ الدهرُ، أو عثر بهم الجد، فمضهم المرضُ، وألحتْ عليهم العلة.

وشاع بين الناسِ اسمُ عبد الله، ولمع نجمُه، وعلا كعبُه، ولقَّبُوه بالغَنِى الكريم، وقرَّبه الوالى إليه، وعَرَض عليه أن يزوِّجه من ابنته، فقال عبد الله:

«معاذَ الله أن أضار من أحسنَتْ عشرتى فى السَّرَّاء والضرَّاء، ومن كنتُ إذا ضَلَلتُ هَدَتْنى، وإذا سئمتُ الحياةَ بعثتْ الأمل فى نفسى؛ هل آكلُها لحماً، وألقيها عظماً؟! والله لا يكونُ هذا أبداً».

فأكبر الحاكمُ وفاءه، وبالغَ فى إكرامه، وقال له:

ما أردتُ بزواجِكَ من ابنتى إلا أن يَعْلُوَ شأنك، وتسموَ إلى

درجة الأمراء ، فلا يكيد لك كائد ، ولا يَطمعُ فى مالك طامع ، فإن المالَ يغرى الناس ، وإذ قدْ رغبت عن أن تكونَ أميرا ، فإنى جاعِلك وزيرا .

فشكرَ عبدُ الله للوالى عطفه عليه ، وحَدَبه به ، وإكرامه له ، ودَعا له بالعزّ والتأييد ، وبَسْطَة السُّلطان .

(٢)

اغْتَدى عبد الله البَرى إلى البحر يوما كعادَته ، ومعه غُلامُه الأمينُ يحمل سلّة مملوءةً بالفاكِهة ، فوجد عبد الله البَحْرى فى انتظاره ، فتبادلا التحيةَ ، وقدَّم إليه الفاكهة ، فأخذها ، وغاص بها فى البحر ، ثم رجع بعد قليل ومعه السلّة ملأى بالأحجار الكريمة ، فأعطاها البرىّ فتاه ، وأمره أن يتوجه بها إلى القصر ، وجلس يتحدث إلى البحَرى ، ويستمع إليه ، والحديث ذو شجون :

قال البحرى : هل حججت البيت الحرام ، وزرت النبىَّ الكريم ؟

فقال البرى : لا ، لأنى كنتُ فقيرًا ، لا أستطيعُ إلى ذلك سبيلا .

قال البحرى : إنى أعجبُ لكم معشرَ البريّين ، يُلهيكم التكاثرُ حتى ترووا المقابِر !! (وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدُوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرا) ، فليتنا نستطيعُ نحن البحريين أن نحُج البيتَ أو نزورَ قبرَ النبى !!

فقال البرَى : جزاكَ الله يا أخى خيرا ، فلقد بَصَّرتَنِى بواجبٍ مقدَّس

أعاهدُكَ على أدائهِ فى القريب إذا شاء الله ، وسأدعُو لكَ حين أستلمُ الحجرَ الأسودَ أن يشرح الله لكَ صدرَكَ ، ويرفعَ عنك وزرك ، وأذكرُكَ بخير فى الروْضة الشريفة .

فقال البحرى : خار اللهُ لكَ فيما عزمتَ عليه ؛ وسأحمِّلكَ أمانةً تملِّقُها بيدِكَ فى الحرم النبوىّ ، وهى أكبرُ درّةٍ احتوتْ عليها البحارُ ، فهيّا معى إلى دَارِى أسلمكَ هذهِ الدرة اليتيمة .

قال البرى : إنى لا أستطيع معك صبرا على الماء ، فإنه يغرقنا ، ولا يُغرِقكم .

قال البحرى : إنه لكذلك ، ولكنى ذاهبٌ إلى دارى ، وسآتيكَ بدِهَان عندِى يعصمك من الغرق ، ولا عاصمَ إلا أن يشاء الله .

قال البرى : لكَ ذلك .

وغاص البحرى فى الماء ، ولم يطل به المقامُ حتى عاد وفى يده صدفة كَبيرةٌ فيها دهان أصفرُ كالذهبِ ، طيِّبُ الرائحة .

قال البرى : ومِمّ يُصنع هذا الدّهان ؟ !

قال البحرى : يُصنعُ من شحم نوع من السمك يسمى (الدّندان) وهو أضخم دواب البحر جِسمًا ، وأعظمُها قوةً ، وأشدُّها فتكا ، وأضْراها لنا عداوة .

فقال البرى : وهل عِندكم من (الدندان) كثير ؟

قال البحرى : هو فى البحر كالرّمل فى الصحراء .

قال البرى : إنى أخاف أن يأكلنى (الدندان) إذا أنا غُصتُ معك فى البحر .

قال البحرى : لا تخفْ ؛ فإنه لا يخافُ من شىء خوفه من الإنسان ؛ فإذا رآك معى ، فرَّ هاربا لا يلوى على شىء .

وخلع البرىُّ ثيابَه ، ودهَنه البحرىّ بالدّهان ، وغاصَ البحرىّ فى الماء ، وتردد البرىّ .

فناداه البحرى :

أقدم يا أخى ، وتوكّلْ على الله .

فاستخارَ الله ، واندفع فى الماء ، فألفى جسمه خفيفا ، وغاص فيه ؛ فوجد نفسه بريئا من الضِّيق الذى كان يشعرُ به حين كان يغوصُ فى الماء ، يطلب الصيدَ فى سِنيه العجاف ؛ فاطمأنت نفسه ، وتبعَ البحرىَّ ، ومشيا معاً على قاعِ البحرِ ؛ فشاهد عبدُ الله البرى جبالاً شاهقة وهضاباً مبسوطةً ، وسهولا فسيحةً ، ووِدْياناً عميقة ، ورأى أنواعاً من السمك لا يُحصيها العد ، قد تباينَتْ حُجُومها ، واختلفَتْ ألوانُها ، منها ما يُشبه الفيلةَ ، وما يُحاكِى البقر ، وما يضارع الكِلاب ، وما يضاهِى الثعابين ورأى حيوانا عجيبا له نحو خمسين ذراعا يتلوَّى فى الماء كما تتلوَّى ثعابينُ البر ، ورأى ألوانا لم ير لها فى البرّ شبيها ولا مَثيلا ، من أبيضَ ناصع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر ناضِر ، وأصفرَ فاقع ، وأسودَ فاحِم ، وألوانا أخرى لا يعرِف لها أسماء .

وسُرعان ما وصَلاَ إلى أول مدينةٍ من مدائن سُـكَّان البحر ، فوجد شوارعَهَا متّسعةً منَسّقةً مستقيمةً تشُق المدينةَ من أقصَاها إلى أقصاها ، وبَهرَتهُ الحدائقُ كثيرةً رائعةً ، والبساتينُ نَضرَةً بارعةً ، والمدارسُ جميلةً واسعةً وهاله أن يرَى المساجدَ مبنيةً بأحجارٍ كريمة ، يكاد سَنا نورِها يخطِف بالأبْصار .

وكانا كلَّما قابلا بحريًّا ابتسما وحنَا رأسَه إجلالاً لهما واحتفاء بهما ، ولـكن فى كثير من الدَّهش والعَجَب ، ومنهم من كان يقترِبُ من البحَرى ، فيكلمُه كلاماً لا يفهمه البرَى ، ثم ينطلِقُ إلى سبيله .

قال البرى للبحرى : عم يسألُونَك ؟!

قال البحرى : يسألوننى عنك ؛ لأنهم يعجَبُون كيف خلقكَ الله من غير ذنب .

قال البرى : سُبحانَ الله ! هم يعجبون لخلْقِي من غير ذَنب ، وأنا أعجب لخلقِهم بأذناب !

وغادر البحرى والبرى المدينة ، وضرَبَا فى مسالكِ البحارِ حتى أشرفا على مدينةٍ ذات أسوارٍ عالية ، لها أبوابٌ ثقيلةٌ مصفحةٌ بالحديد وما كادا يقتربَان منها ؛ حتى أهاب بهما حُراسُهَا أن قِفَا فوقَفَا ، ثم انحرفا عن طريقها .

قال البرى للبحرى : وما خَطبُ هذه المدينة ؟

قال البحرى : هذه مدينة المذنباتِ من النساء ؛ فإن كل أنثى

تقترفُ ذنباً مهما يكُن صغيراً ، تغادرُ أهلها وبلدها وولدها (إن كان لها ولد) من تلقاء نفسِها إلى هذه المدينة ، تقضى فيها حياتَها ، تقومُ الليلَ ، وتصومُ النهارَ ، عسى الله أن يغفرَ لها ذنبها .

فعجب البرى ، وقال : وهل عندكم مدينةٌ للمذنبين من الرجال ؟!

قال البحرى : نعم !

قال البرى : وهل عندكم كما عندنا قُضاة ، وشُرَط ، وعَسَس ، وخُفَراء ؟!

قال البحرى : لا . إن كلَّ بحرى يعرف قوانينَ البحرِ ، ويؤمنُ بها ، فلا يخالفُها ، ولا يحاولُ الخروجَ عليها ، إلا قليلا ؛ ومن يخالفُها طوعاً ، أو كرهاً ، رجلٌ أو امرأة يُغادرُ أهلَه وبلدَه وصحبَه إلى مدينةِ المذْنبين من الرِّجال ، أو مدينةِ المذنبَاتِ من النساء .

قال البرى : وَكُلكم سواءٌ فى الغنى ، وبسطةِ المال ؟

قال البحرى : لا . مِنا الغنى ، ومنّا الفقير ، وسببُ الغنَى واحد ، وهو الكدُّ والجِد ، وسببُ الفقرِ واحد ، وهو الكسلُ والخمولُ .

وما زالا سائرَينِ ، إلى أن وَصَلاَ إلى بَلدِ عبد الله البحرى ، وهى حاضرةُ مَلكِ البحريين ، فرأىَ فيها مِنَ العجائبِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلب برَى .

وأكرمَ عبدُ اللهِ البحرىُّ مثوى صاحبه ، وعرَّفَه بزوجه وبناتِه وبنيه ، فرأى فى زوْجه جمالا وكمالاً ، وعِفةً وحياء ، لم يعهدها بينَ

البريِّين ، ورأى فى بَنيه عِلْماً وأدَبا ، لم يألفهما فى بَنى قومه .

وانتهى خبرُ البرىّ إلى مَلكِ البحريين ، فبعثَ فى طلبهِ فصحبَه عبدُ الله البحرىُّ إلى قصرِ الملك ، وقصَّ على الملك قصةَ صاحبه ، فعجبَ الملكُ جدَّ العجب من شكله ، وتلطفَ معه فى القول ، واستأذَنَا فى الانصرافِ ، فأذن لهما ، فرجعا إلى دارِ عبد الله البحرى ، وحان وقتُ الغداء ، فقدم البحرىُّ لصاحِبه ألواناً من السمكِ كثيرةً ، فعافها البرى ؛ وقال : إننا معشر البريِّين ، لا نأكل السمك نيئًا .

قال البحرى : ليس فى مُكنتنا أن نشعلَ النارَ فى البحر .

فقال البرى : هذا فراق ما بينى و بينك .

فشاع الحزنُ فى وجه البحرِى على فِراق صاحبه ، وقد كان بوُدِّه لو استطاع المُقام معه أيامًا ، ودخل فى غُرفة ، ثم خرج منها ، ومعهُ جوهرةٌ تكادُ لتألقها تُضىء ، فأخذ سناَها ببصره .

فقال للبرى : هذِه هى الأمانة التى حدثتُكَ عنها .

وقبل أن يُغادر البرىُّ دار صاحبه ، سمع غناء فى بيتِ جارِ صاحبه البحرى ، فطرب له ، وسأل عنه ؛ فقال البحرى :

إن جارى قد أدركته منيتُه ليلة أمس ، فأهله لذلك يطربون ، ويقْصِفون .

قال البرى : إن أمرهم عجب ! يفرحون بموت أبيهم ؟ !

قال البحرى فى كثيرٍ من العجب : وماذا تصنعون أنتم معشر البريين إذا مات أحدكم ؟

قال البرى : إذا ماتَ أحدُنا ، حَزِن أهله ، وبكاه خِلاَّنه ، وقد يدفعهم الأسَى إلى لطمِ الخدود ، وشقِّ الجيوب .

فقال البحرى : نعوذ بالله . إنكم لظالمون ، كيف تحزنُون حين يستردُّ الله وديعتَه ؟!

ثم قال فى لهفة : أين الأمانة ؟ هاتِها ؛ فلستُم أهلا لهاَ ، وهذا فِراق بينى وبينك .

وخرج عبد الله البرى من البحر ، فوجد ثيابه حيث تركها ، فلبسها ، وذهب إلى بيته ولبث فى أهله يفكر فيما رأى فى البحر من عجائب ، ظل يرويها فى المجالس ، ويتندر بها فى المنتديات ، إلى أن قضى نحبه حين وافاه أجلُه المحتوم .

أنس الوجود والورد فى الأكمام

(١)

كان الملكُ شامخٌ ملِكا مرهوب الجانِب ، عزيزَ السُّلطانِ ، يحكُم بلادَه حكْماً عادلاً ويَسهرُ على مصلحةِ شعبه ، ويعملُ على رفاهيتِه ، وجَلْبَ الخيرِ له ، متى وَجَدَ إلى ذلك سبيلا ، ويدفعُ عن بِلادِه الأعداء والطامعين بدُربة ودِراية . لذلك كان محبوباً من شعبه ، مرمُوقا من رَعيَّتِه .

وكان الملكُ شامخٌ إلى جانب عنايَته بأمرِ الحكمِ فى بلادِه يُعنى بتهذيبِ قومِهِ وتعليمهم ، ورفع مستوى الثقافة بينهم .

وكان يحبُّ الأدب والأدباء ، ويكرم الشعر والشعراء ، وحبَّذ الألعابَ الرياضية ، وشجع الرياضيين .

فكان كثيراً ما يجتمعُ بقصره العلماء والأدباء والكتّابُ والشعراء ، يسمرون ويتناقشون ويتناظرون ، وكانت تمتدُّ جلساتهم مع الملك إلى وقتٍ متأخر من الليل ، والملك لا يسأمُ مُجالستهم ، ولا يملُّ محادثتهم ، بل كان يستزيدهم بأسئلةٍ تدلُّ على علمٍ غزير ، واطلاع واسع ؛ وكان يحاجُهم فى كلِّ بابٍ يطرقونه على الرَّغم مما يحمل من مشاق طول يومه فى تصريف شئون دولته .

كما كانَ من عادة هذا الملك أن يُقيمَ لفنُونِ الألعاب والرِّياضة المختلفة كالفرُوسية وألعاب السيف والصَّولجان والكرة حفلاتٍ وحلبَاتٍ يحضرها بنفسه تشجيعاً للهواةِ على الاشتراك فيها ، وحفزًا لهم على إتقان ضروبها.

وكان لهذا الملك وزيرٌ لا يقل عن مَلِكه علما وفضلاً ، إسمُه إبراهيمُ ، كانت له ابنةٌ وحيدةٌ ، تنبأتْ طلعتُها يومَ مولدِها على أنها ستكونُ فريدةً فى الحُسْنِ والجمالِ ، فسمَّاها « الوردُ فى الأكمام » ونَشَّأها على العلم والأدب والتهذيبِ والتَّقوى ، فنشَئت بعقل مُثقفٍ راجحٍ ، ونفس وثابةٍ للعلا ، متفتحةٍ للأخذ من كلِّ منهل يزيدُ فى ثقافتها ، مشوقةٍ للارتشاف من كل ينبُوع تأنسُ منه ريًّا يطفئُ وَقدة ظمئها إلى المعرفة .

وكان الملكُ يحنو عليها ويدلِّلُها وهى طفلةٌ ، فلما كَبرت ولمس فيها شِدّةَ وَلَعها بالعلم وحبها للآداب — شملها برعايته وخصَّها بعنايته ، وأخذ بيدها فى كل ما استغلَق عليها فهمهُ ، وأنزلها من نفسه منزلة الابنة .

وكانت عادةُ الملك أن يقيم حفلات رياضية ، يتسايفُ فيها الرجالُ ،

ويتسابق الفرسانُ ، فى ساحةِ قصره ؛ ويشهدها كثيرٌ من خاصَّته ، وكان النساء يشهدْنها من شُرُفات القصر .

ولم يحدُث قط أن تخلفتْ الوردُ فى الأكمامِ عن حُضُور أىّ حفلة يُقيمها الملكُ لتشجيع أىّ ضربٍ من ضُروبِ الرياضة ، بل كانَتْ دائماً فى مقدّمة المشاهدات من النساء ، محتلةً مكانها من شُرفَتها المشرفةِ على الساحة المعَدّة للاحتفالات .

وكان المعتادُ فى أمثال هذه الاحتفالات التى يشرفها الملكُ أن يحضرها جميعُ رجال قصره وحَرَسه ورجال دَوْلته وجمعٌ كبيرٌ من الكُبراء والأعْيان .

ولفتَ نظر الورد فى الأكمام فى هذه الحفلات مرأى شاب وَسيم ، فارع الطول ، عريض المنكِبين ، جميل الوجه ، مَليح التقاسيم ، وكان دائما فى الصفوف الأولىَ بين رجال الملك ، ولم تكن تعرف منْ هو ، وكانت كلما همّتْ بسؤال من يكُن معها من النِّساء استحَتْ من ذلك .

ثم أقيمتْ حفلةٌ لِلَعبِ الكرة ، وكان الشابُ على عادته ، أتى وجلس فى مكانه بين رجال الملك . والوردُ فى الأكمام أتتْ ، واحتلتْ مكانها من شُرفتها ، لا تصحَبُها فيها غيرُ قهرمانة لها ، فتشجعت وسألَتْ القهرَمانة :

من يكون هذا الشاب الواقفُ بين رجال الملك ؟

فقالت القهرمانة ، وهى تنظر إلى ناحية رجال الملك :

أيّ شاب تعنين ياسيدتى ؟!

فقالت الورد فى الأكمام :

الشابُ الوسيمُ الجميلُ ، الخفيفُ الظل ، العذبُ الرُّوح ، الذى لا تُفارق شفتيه ابتسامةُ الرضا والإيمان .

فقالت القهرمانة وهى تضحك :

إن جُلَّهم يا بنتى مليحٌ وجميلٌ ، وإنهم جميعاً ذوُو رُوح عذْب ، وعلى شِفاههم ابتسامات تدل على الرّضا والإيمان ، فأيهم تقصدين ؟!

فقالت الورد فى الأكمام : انتظرى حتى أشيرَ لك عليه .

وكانتْ بيدها زَهرةٌ تَسَلى بشمّ رائحتها فألقتْها إلى ناحِيتَه ، فسقطتْ بالقُربِ منه ، ورآها الشاب وهى تسقط ، فرفعَ بصره بنظرة خاطفة يتطلع إلى مصدرِها ، فلَمحَ الورد فى الأكمام وقهرمانتها تتكلمان معاً ، وتنظران إليه ، فعلم أنه موضوعُ حديثهما .

فاختلس نظرةً إلى الشرفة ، فراعه ما عليه الوردُ فى الأكمام من جمال خَلابٍ ، وحُسْنٍ باهرٍ ، ونَظرٍ ساحر .

وكانت نظرةً . لم يستطعْ بعدها أن يغضّ من بَصرِه ، أو أنْ يتحكَّم فى قلبه الذى اشتدّت خفقاته ، وتتابعتْ ضرباته تتابُعاً سريعاً .

وكانت القهرمانة حينئذٍ تقولُ للورد فى الأكمام :

هذا الشابُ يا بنتى اسمه أنسُ الوجُود ، وهو من أصْفيـاء الملك وخُلَصائه المقـرَّبين إليه يُحبه ويُؤْثرُه لحسن شمائِله ، ودَماثة خُلقِه ،

وَوَدَاعته ورقته ، وخلابة حديثه ، وَسعة أُفُقه ، وغَزارة عِلْمه ، وطيبِ عُنْصُره .

والتقتْ عينا الورد فى الأكمام بعينى أنس الوُجود ، فقرأتْ فى عينيه فرط إعجابه بها ، وعرفتْ من الابتسامة الخفيفة التى رفّتْ على شفتيه حين التقتْ عيناهُما سرعة شعوره ، وتأثره بها .

فاضطربتْ ، وعلا خدَّيْها حمرةُ الحياء ، ورجفَ قلبُها رجفةً ما كانت تتوقعُها ، وارتعشتْ يدُها ، فخشيتْ أن يلمَحَ أحدٌ تلك الحالة النفسية التى فاجأتها ، فأسدلتْ نقابَها على وجهها حياء وخجلا .

أما أنسُ الوجود فقد ارتسمت على وجْهه صورٌ متباينةٌ لشتى الانفعالات والمشاعر التى اعْتَمَلَتْ فى نفسه ، فقد غَضَّ من بصره حياء وخجلا ، وحاول أن يُخفى ما ألمّ به فى نفسه وفى قَلْبه عن رُفقائه حتى لا يَفطِنُوا له .

ولم تستطعْ الوردُ فى الأكمام أن تَتَبعَ المباراة ، واختلط أمام ناظريْها الغادى بالرَّائح ، ولم تعرفْ من الخذل أو من ظفر .

أضحت الساحة أمامها خلية نحل شاغية لاغطة ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، لا يُميَّزُ فيها وجه ، ولا يُفهَمُ فيها لفظٌ ، ولم تر إلا وجه أنس الوجود ولم تفهم إلا اسمه .

ثم رُوَيدًا رُوَيدًا مُحِيت من أمامها جميعُ هذه المرئيات ، وطُمِسَ من سَمْعها صوتُ الهتافات والنداءات ، وأصبحتْ هذه الساحةُ الصاخبةُ

العاجَّة بالضجيج أمام عينيها بيداء مُقفرة يتوسطها علمٌ زاهٍ رَفَّافٌ يجذب ناظريها إليه على الرّغم منها . وحتى لا ينكشفَ أمرُها لم تجدْ بُدًّا من أن تنسحبَ من مَقصورتها وتغادر الحفل .

أما أنس الوجود الذى كان يضطرم قلبه اضطراما ، ويضطربُ اضطرابا لا شعوريًّا عجيباً فإنه فقدَ اتزانَ أعصابه ، والسيطرة على نفسه ، أحسَّ أنه نهبٌ لأنظار كلّ منَ حوله ، فقد ظلَّ قائماً فى مكانه ، ولم يستطع الانسحابَ كما فعلَتْ الوردُ فى الأكمام .

وأسرعت الوردُ فى الأكمام إلى مخدعها .

يا لله ! ! ماذا أصابها ؟ ! وما الذى دَهاها وغيَّر منها ؟ ! ما لقلْبها خافق ؟ ! ومالفؤادها واجف ؟ ! وما لجسدها يضطرب ويختلج ؟ !

أهى مريضةٌ ؟ ! أم هى مغرورة ؟ ! أم هى خائفة ؟ !

ما هى بمريضة رغم ما تشعر به من وَهن ، وما هى بمغرورةٍ رغم ما انتابها من ارتجاف ، وإنما هى خائفة ! ! خائفةٌ لما ألم بها ، وَوَجلةٌ مما اعتراها .

دلفت إلى حجرتها لتمسح بين جدرانها ما نزل بها ، وتخفى بين أستارها حيرتها وقلقها ، ولكنها لم تستطع أن تمسح شيئا ، أو تستر شيئا .

استلقت الوردُ فى الأكمام على سريرها لحَظاتٍ ، ولكنها لم تلبث أن مدَّت يدَها إلى ورقة وقلم ، وبثَّت ما بها إلى تلك الورقة ، وسطَّرَتهُ فى كلام بليغ ، ثم طوتْ الورقة وخبَّأتها ؛ ومن بين أستارِ الحُجْرةِ لحظت قهرمانَتُها أشجانَها ، ورأتْ ما فعلت .

كانت الوردُ فى الأكمام قد شكت إلى الورقة ما انتابها ، وسطَّرَتْ بها ما شعرتْ به وما أحسَّتْه ، ثم ما خافت وما خشيت ، ثمَّ ما ودَّت وما تمنَّتْ .

وغلبها النومُ بعد الأرَق ، فما استسلمت لِسلطانهِ حتى اقتحمت عليها الحجرةُ فى خطاً وئيدةٍ قهرمانَتُها ، ومدَّت يدَها إلى الورقةِ وأخذتها ، وكان لها إلمامٌ بالقراءة ، فاستطاعت أن تفهمَ ما كتبَت ، وتعرف ما طوَت وما أخفت .

فلما استيقظتْ الوردُ فى الأكمام قالت لها القهرمانة :

ما بك يا بُنيَّتى ، إنى أراكِ ذابلةً متغيِّرة ؟

أجابتْ الوردُ فى الأكمام : ليس بى غيرُ وَعْكةٍ خفيفةٍ ، سُرعانَ ما تزُول ، وأكُونُ عما قليلٍ بخيرٍ وعافيةٍ .

ولـكن المرأةَ أعادتْ عليها السؤالَ وقالت :

يا سيِّدَتى ؛ لا تكتُمى علىَّ ما بك ، بل بُوحِى لى بما يَحزُنك أُخففْ عنكِ ، واشْرَحى لى ما يُضايِقُك أعملْ على مُساعَدَتك ، فلعلَّ الله يجعلُ بعد عُسرٍ يُسرًا ، ويُخرجنا من الضيق إلى سَعَة ؛ وإنَّ انطواءكِ على نفسِك ، ومُبالغَتَكِ فى الـكتمان — يُحرِّقُ صدرَكِ ويؤرِّقُ جَفنَكِ .

وأعملت الوردُ فى الأكمام فكرَها ، أتبوحُ لها بما فى نفسِها ؟! وما وَجَلُها إلاَّ أن يَعرفَ ! أتشرحُ لها ما يُضايقُها ؟! وما خشيتها إلا إذاعته !

لا ؛ لن تبوح ، ولنْ تشرَحَ ؛ لأنها إذا ضاق صدرُها عن سِرِّها ، وتنفست جوانحها عن مكنون أمرها — عرَّضت نفسها لأقوال المرجفين وشماتة الحاسدين ، وطبيعة نشأتها تمنعها ، وتربيتها تنهاها ، وأخلاقها تأمرها بكتمان أمرها ، وقبر أمانيها ، فليس لها أن ترجُو مساعدةً ، ولا أن تاملَ فى معونةٍ من أَحد .

فقالت : لا ، ليسَ بى ما أشكو ، وليسَ عِندى ما أشرح .

ولما رأت القهرمانةُ أن الورد فى الأكمام مصرةٌ على ألاَّ تبوحَ بشىءٍ من سرِّها احتالت عليها ، فقالت : يا سيِّدتى إننى ما قلتُ لك ما قلتُ إلا لِظنِّى أنك فى حاجةٍ إلى من يساعِدُكِ ، ويأخذ بيدك ، ليُخْرجَكِ من مِحنة وقعتِ فيها، فقد رأيتُ الليلةَ فى المنام رجلاً يقولُ :

إن سيِّدتَك الوردَ فى الأكمام غارقةٌ فى لُجَّةٍ من الحيْرة واليأس والقلق ؛ فعليكِ أن تأخذى بيدها وتساعديها ، وتُضَمِّدى جراحها ، وتعملى على أن تخرجى بها إلى بر الراحة والأمان ، وذلك لا يكونُ إلاَّ إذا تزوَّجَتْ من أنسِ الوجُودِ . وأوْصانى بالسَّهر عليكِ وصَوْنِ سِرِّك .
وقد اعتدتُ ياسيِّدتى أن تكون رؤْياى صحيحةً ، فليست أضغاث أحلام، يؤوِّلُها المؤوِّلون ، ويعبِّرها المعبِّرُون ، ولكنها رؤْيا النفس الشفَّافةِ الوضيئةِ الطاهرة ، التى تحبُّ سيدتها ، وتخلصُ لها ، وتقف حياتها لخدمتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ، وروحى مقترنةٌ برُوحك ، تحسُّ ما تحسِّين، وتشعر بما تشعرين ، فأنا لك ، فلا عليك إن أطعتنى ، ولا علىَّ

إن دبَّرتُ لك ما يُسْعِدُك ؛ ففى سعادتك سعادتى ، وفى راحتكِ راحتى ورؤياى صادقة ، لأنها من تخاطُبِ الأرواح ، وتقارُب القلوب والنفوس .
فقرَّ قلب الوردِ فى الأكمام فرحٌ غامرٌ ، وفاضَ فؤادُها راحةً وسكينة .

فأسندت رأسَها إلى يَدِها ، وأغمضت عينيها ، وسبحت بخيالها فى حُلم يقظةٍ تستعرض فيه نتيجة حُلم قهرمانتها ، فشعرت براحةٍ ، وأحسَّت بَرْدَ السعادة ، وأثلج صدرها فرحٌ وسرورٌ ، وتنهدت تنهُّدةً تنم عن اطمئنان وارتياحٍ ، وطفرت من عينها دمعة أحسَّت بَرْدَها على صدرها ، وبدأ الأملُ ينفسحُ أمامَها ، وأحستْ نوراً يضىء الرحبَ الواسعَ أمامها ، فغلبتْ عليها ابتسامةٌ خفيفةٌ فاترةٌ ، حاولت أن تُخفيها ، فلم تستطع .

وبعدَ لحظاتٍ انتبهت من حُلمِها اليقظان اللذيذ فوقفت سبحاتُ خيالها ، وعادتْ إلى الحقيقة ، وقاومت غواياتِ نفسِها راجعةً إلى الجد والعقل والرّشاد ، وقالت للقهرمانة :

ما رأيته فى منامكِ ليسَ إلا أضغاث أحلام ، وإذا كنت كما تزعمين ترَيْنَ فى المنام ما يقعُ فى اليقظة ، فقد يخطئُ ملاكُكِ مرّة ، أو يغلبهُ عليك شيطانُكِ ، فتكون هذه الرؤْيا التى رأيتِها من خطأِ ملاكَكِ أو من رؤى شيطانك ؛ ومع ذلك فإنها إن كانت صحيحةً فكيف الوصول إلى تحقيقها ؛ واعلمى أنك لن تعرفى من أمرى شيئاً ، ولن تقفى منى على شىء

مما تظنين ، فإننى إن طاوعتنى عاطفتى غلبنى عقلى ؛ هوّنى عليكِ ، والله معنا .

لم يُعجبِ القهرمانة شدة حرصِها على كتمان أمرها عنها ، وأرادت أن تُواجهها بما علمت ، ورأتْ أن من مَصلحتها أن تعرض أمرَها عليها فى صراحةٍ كى تفكرَ معها ، وتُعينَها على أن تُيسر لها ما تريدُ ؛ فقالت :

لِنقض على تردُّد الوردِ فى الأكمام فى التصريح لها بسرِّها ، وقد فطنت إلى ما تعانيه من صراع بين قلبها وعقلها ، ووجّهت إليها كلامَها : يا بُنيّتى ما عليك حرج . فأنا كفيلةٌ برعايتِك وحمايتك ضنينةٌ بسرّك ، آخذةٌ على عاتقى تحقيقَ ما رأيتُه لك .

فقالت الوردُ فى الأكمام :

هَبى أنَّ ما تريدين معرفته منى كان صحيحاً ، وأن ما تقولين كان حقاً ، فما الذى تودِّين أن تفعلى ؟

فقالتْ القهرمانة ، وقد سرَّها أن الوردَ فى الأكمام قد ابتدأ يتحلّل تجلدُها ، ويلين عِنادُها :

يا سيِّدتى سأمهِّدُ الطريق لِذلك ، وستعرفين عمَّا قريب أنك وكّلت أمركِ إلى أحبِّ الناس إليك ، وأعطفهم عليك ، وأبرِّهم بك ، وأكتمِهِمْ لأمركِ ، وأقدرِهم على تدبير الحيلة الشريفة لِنجاحك ؛ فطيبى نفساً ، وقَرّى عيناً ، واهْدَئى بالاً ، ولا تبتئسِى ولا تحزنى ، ولا تستسلِمِى للوساوِس والأوهام ، واعتمدى على الله .

فقالت الوردُ فى الأكمام، وهى تتضاجعُ فى فِراشها، وتخفى وجهها بين وسائده، وتتثاءبُ وتتمطّى، مظهرةً عدمَ المبالاة والاكتراث عما تتحدّث به القهرمانةُ:

افعلى ما بدا لكِ، وسيرى فيما ترَيْن، على الوجْهِ الذى يَرُوقُك.

فنهضت القهرمانة من لدُنها فرِحةً منتصرةً، تُمَنّى نفسها من وراء ما ستقدمُ عليهِ الخيرَ الجزيل.

(٢)

استقبلَ أنسُ الوجودِ المرأةَ التى استأذنتْ فى الدخول عليه، وهو دَهِشٌ، فمن تكونُ هـذه المرأة؟! وما حاجتها؟! وما دفعها إلى الاستئذان عليه فى هذا الوقتِ؟!

وقال لها: يا سيّدتى؛ من تكونين؟! وماذا تريدين؟!

قالت: يا سيِّدِى؛ هل نحن فى خلوة لا يسمعنا أحَد؟

قال، وقد ازدادَ دهشةً: نعم، لكِ أن تفصحِى عمّا تريدين، تحدَّثى يا سيِّدتى بما تشائين، فليسَ أحدٌ يسمعُ حديثنا.

قالت باسمةً: ألم تعرفنى؟!

قال، بعدَ أن تَطلَّع إليها ولم يسعفهُ ذِهْنُهُ فى تذكّرها: يا سيِّدتى اغفرِى لى إن كُنتُ رأيتك ولم أتذكَّرْ، فإنى سريعُ النِّسيان، لا تعلَقُ بذهنى صورُ الوُجوهِ لمجرَّد الرؤية السريعة العاجلةِ التى تخطِفها

خطفاً ؛ فلعلّ أكونُ رأيتُكِ مرّةً ، ووقعتْ عيني عليك موقعاً سريعاً خاطفاً ، فظننتِ أني ملأتُ عيني منك ، وما ملأتُها ؛ وظننْتِ أني رسمتُ لكِ صورةً في ذهني ، وما رسمتها ، وليس ذلك عن قصد ، ولكن هكذا أنا ، فعفواً يا سيّدتي .

فقالت المرأةُ ، وهي تضحك : حَسبتُ أنّك لا تنسى هكذا سريعاً ، فقد رأيتني فقط بالأمس .

قال وهو يُحاوِلُ أن يتذكّر أين وقعَ نظرُه عليها : ساعديني يا سيّدتي على تذكُّرِك ، وأين رأيتك ؟

قالت : رأيتني ، وملأتَ نظرك وقلبك ؛ ألم تذكر بعد ؟ !

قالَ ، وهو يستعجبُ ، ويكادُ يضربُ كفًّا على كفّ : أين يا سيدَتي ؟ !

قالت : رأيتني مع سَيدتي في شرفتِها المطلةِ على سَاحةِ اللعب ، وجعلتَ تتفرسُ فيناَ ، ولا تغض نظرك عنّا ، مما أخرجَ سيدتي ، ودفعها على أن تنسحب قبل نِهاية اللَّعب .

طفر الدمُ إلى وجهِ أنسِ الوجود ، واحمر احمراراً شديداً ، واضطربَ اضطراباً ، وكأنه قد عصفَ بِهِ فجأةً عاصفٌ عنيفٌ ، وتَهدجَ صوته ، وتَلعثَمَ لسانه ، وأخذَ يَقول :

إنني آسفٌ . آسف لما سببتُ لسيدتك من حرج عن غير قصدٍ . فهل هي غاضبة علي ؟ ! وهل أتيت أنتِ من أجْل ذلك ؟ ! بلغيها أني أعتذر ،

واطلبي لى منها العفـــو والمغفرة .

فقالت القهرمانةُ التى لم يفتها أن تلحظ مبلغ اضطرابه وتلعْثمِه ، وتفهم من ذلك ما أرادت أن تعرفَ عن اتجاه عواطفه :

إن سَيدتى لم تُكلفنى الحضور إليك ، فلا أَستطيعُ إبلاغَها رسالتَك ، وإنما أنا التى أتيتُ من تلقاء نفسى .

فقال بلهفة :

وهل هى غاضبةٌ علىّ ؛ ساخِطة لمَا حدثَ مِنّى ؟ !

قالت :

لا أعلمُ إن كانت غاضبةً أو راضيةً ، فهى لم تصرّح لى بشىء من هذا .

قال :

إذن ما سَبب حضُورك إلىّ إن لم تكن غاضبةً علىّ ؟

قالت :

إنى لم أقلْ إنها ليست غاضبة ، بل قلتُ إنها لم تصرّح لى بشىء من هذا .

فظهرت على وجهِ أنس الوجود علامات الحيرةِ والقلق وقال ، للقهرمانة : إذن هل هناكَ سببٌ آخر ؟

قالت : نعم .

قال ، وقد خفقَ قلبه ، وقوى لديه الأملُ الذى كانَ يداعبُ خيالَهُ طولَ يومه ، ويحاول أن يقصيه بعيداً عنهُ دون جدوَى :

وما هو ؟ !

قالت : إننى أنا الغاضبة الثائرة الساخطة .

فظهرت على وجه أنس الوجود علامات الامتعاض ، وخيبة الأمل ، جَلِيَّةً واضحة ، ومال برأسه نحو صدره متخاذلا ، وتمتم قائلاً :

وعلام غضبكِ وثورتكِ وسخطك أنتِ ؟ !

قالت : من أجل سيدتى ، فهى من وقتِ أن غادرت الشرفة ، وهى مُعتكفةٌ بفراشها .

فرفعَ أنسُ الوجودِ رأسه ، ونظر إلى القهرمانة ، وقد أحيا ذكرُ سيدتها الأملَ فى قلبه ، وقال مقاطعاً :

أمريضةٌ هى ؟ !

قالت : لا . ولكنها ساهمة واجمة ، ولا أدرى مابها ، وذلك ما دعانى أن آتى إليك عائدةً باللوم عليك ، فهو أنتَ الذى كنتَ سبباً فيما طرأ عليها ، وأذهبتَ عنها بشاشتها وبهجتها ، ومسحَ عن شفتيها ابتسامة ما كانت تفارقها ، وأذبل عينيها الساحرتين ، وكسَّر أجفانهما ، وخيم على حجرتها سكونٌ عميقٌ طويلٌ لا ندرى متى ينتهى .

فتفرس أنس الوجود فى وجه القهرمانة متفحصاً يسبر غورها ، ثم قال يحاول اكتساب مودتها :

إنكِ فيما يبدو لِى وفيةٌ مخلصةٌ لسيدتكِ ، ويهمك جداً راحتها وهناءتها

قالت تجاريه :

إنى لا بُغية لِى من الدنيا إلا أن أرى الرُّواء يكسو وجهها ، والابتسامة تزين شفتيها .

قال : ما أطيب قلبك ! ألا تشملينني أنا أيضاً ببعض برِّكِ وعطفك ، وترْضَيْنَ عنِّى ؟

قالت وهى تبتسم :

يا سيدى لا بأس عليكَ .

قال : إنى لَأطمع منك فى أكثر منْ ذلك ؛ أريد أن تصنعى معى معروفاً ، وتُسْدى إلىَّ يداً .

قالت : إنى أرحب بأى عمل يمكننى أن أقدمه لك .

قال : هل أبوح لكِ بدخيلة نفسى ، وأكشفُ لك سرى ، معتمداً عليكِ فى مساعدتى ؟ !

أجابت : هاتِ ما عندك يا بنى ، ففى الحفظِ والصون سرك ، وسأساعدك ما دامت المساعدة فى مَقدورى وإمكانى .

قال : المساعدة فى إمكانك لو أردت ، ولكنى أخاف أن تردِّينى ، أو لا تفلحى فى مسعاكِ إن سعيت ، فيكون فى ذلك شقائى .

قالت القهرمانة مظهرةً الارتياحَ لقوله :

حفظك الله يا سيدى من كُل سوء ، أفض إلىَّ بمتاعبك ، واطرح علىَّ

مخاوفك ؛ وثق أننى سأعمل جاهدةً على راحتِك ، وإبعاد كلِّ شر يمكنُ أن يحيقَ بك .

قال : ياسيدتى ، إن سهماً نافذا قد أصاب صدرى ، واستقرَّ فى قلبى حين أبصرتُ سيدتك ؛ وأنا الآن جريحٌ معذبٌ ، وما شفاء جراحى إلا بيدها ، ولا مُضيِّعَ لعذابى إلا رضاها ، وقد أراد الله لى الرحمة إذ ساقك إلىَّ ، فالطريق إليها لا يكون إلا بعد إرشادك ، فها أنت ترَين أنَّ مفتاحها فى قبضَتك ، وحلها فى يدك .

فتصنعت القهرمانة الوجوم والدهشة والحيرة ، وبعد برهة قضتها فى تفكير خالها أنس الوجود دهراً طويلا ، وعيناهُ عالقتان بشفتيها ، متلهفا إلى ما تنطق بهما ، وهل يكون حياة له أو موتا .

تمتمت قائلة ، وكأنها تخاطب نفسها :

وأيمُ الحق ، إن الورد فى الأكمام هى زينة النساء ، ولا يليق لها غيرُ أنس الوجود سيد الشباب .

فبشت أسارير أنس الوجود وأمّل خيراً من وراء ذلك .

واستطردتْ المرأة تقولُ له بصوتٍ أكثر ارتفاعاً :

يا سيدى : إن أمنيتكَ هـذه صعبة المنال ، ولكنى سأعملُ جهدى من أجلك كما وعدتك ، فأبذل فى إقناع سيدتى كل ما أستطيعه من بذل ، وأحتالُ لذلك بشتى الطرق ، وأغريها بأنواعِ المغريات ، وأَصفُ لها محاسنك ، وأسْرُدُ لها صفاتك ، وأحكى لها أنباء شجاعتك ونخوتك

ورجولتك ، حتى إذا رأيتُ الطريقَ ممهداً سرتُ فيه رُوَيداً رُويداً نحو هدفك ؛ فما رأيك فى خطتى هـذه التى سأسلكها لأجلك عن طيب خاطر ؟ .

قال فرحاً مستبشراً :

ونعم الخطة ، وبإذن الله بفضل مهارتك ودرايتك وحرصك وذكائك ستُكَلَّلُ بالنجاح ، وحينئذ أكافئُكِ أنا بكلّ ما تشتهين ، وأهَبُ لك كلّ ما تُحبين .

وشفعَ كلامه بأن أخرج من مِنْطقته كيسَ نقودٍ وقدمهُ للقهرمانة ، وهو يقُول :

خُذى هذه هدية صغيرةً منى الآن ، ستعقبُها أخرى أنفس منها إن شاء الله .

فتمنعتْ القهرمانة ، ولم تمد يدها إلى الكيس ، وقالت :

يا سيّدى ؛ إن بُغيتى الوحيدة التى أبتغيها هى راحتك وهناءةُ سيّدتى. والرأىُ عندى أن تكتُبَ لها كلمة تضمنها حالك ، وتشرحُ فيها بُغيتَك ، وتبثها إعجابك بها ، وتقديرك لجمالها ، وتصف ما فعله جمالها فى نفسك ، وما أحدثه سهمُ نظراتها فى قلبك ، حين وقع عليها نظرُك ، ثم ما أصابك من الشرود والسُّهوم عند ما فزعَتْ فى مقصورتهـا ، وانصرفت ، فإنها انتزعتْ معها قلبك ، وجرى فى أثرها عقلك وخيالك ، فلعلى أجدُ فرصة مناسبة أقدّمُ لها فيها الخطاب ، بعد أن أشبِعَها حديثاً عنك وأهيّئَ قلبها لك

قال : ها هى رسالة كتبتها قبل أن أراك ، ودبجتُها قبلَ أن أَعْلَمَ أنه سيأتى إلىَّ من يساعِدنى على تحقيق حُلمى ، رسالةٌ سكَبْتُ فيها ذَوبَ نَفْسى ، وحَطَطْتُ بها من عُصارَةِ مُهْجَتى .

وأخرجَ من بين طيات ملابسه التى تُلاصِقُ صدره رسالةً مَطوية ، قبَّلها ، ثم أعطاها للقهرمانة مع نفحة النقود التى نفحها إياها .

فأخذتهما منه المرأة ، ودَسَّتْهُما فى صدرها ، وهى تقول :

اعتمد علىَّ بعد الله فستنال ما تُريدُ .

فقال وهو يَضْحك مَسروراً :

إننى لا أشكُّ فى مَقْدِرتك ، وأُوصيك أن تُحافظى على الرِّسالة ، ولا تدعيها تقعُ فى يدٍ أُخرى فتسوء العاقبة ، ونجازَى بما نكْرَه .

فقالت وهى تستديرُ للانصراف :

قلتُ لكَ اعتمد علىَّ بعدَ الله ، فلا تخف ، وارجُ خيرًا ، ولا تستعجل ، فقد يكون مع المستعجل الزلل ، والإبطاء مع انْتهاز الفرصة المواتية خيرٌ من العجلة التى قد تُنْتج شرًّا ، ومع ذلك فلعلَّ الفرصة تُسعِفُنى على عَجَل ، وسأُوافيك بما يتم .

(٣)

وانصرفتْ القهرمانة من منزل أنس الوجود فرحة مغتبطة بتوفيقها . وأنس الوجود يشيِّعها بنظراته ، متمنياً أن تعود على عجل ، تحملُ إليه

أخبارًا سارة تشرحُ صدره وتُبهجُ نفسه .

وبادرت القهرمانةُ حين دخولها عليها بقولها :

يا سيدتى ، إنَّ لديه لك أضعافَ ما عندك له .

فقالت الورد فى الأكمام تتجاهل :

عمن تتكلمين ؟

أجابت القهرمانة : عن صَبٍّ مُدَلَّه ، ومُتَيَّم مَفتون .

قالت الورد فى الأكمام ، وهى تخفى اضطرابها ، ولكنَّ احمرار وجهها ينم عما تعانيه : من تَعْنين ؟ !

قالت القهرمانة :

أعنى أنس الوجود : فخر الشباب ، وزينة الرّجال .

قالت الورد فى الأكمام بصوت يتهدَّج :

وما بالُه ؟ !

قالت : أصابه سَهمٌ نافذٌ من سهامِك ، لانجاة له منهُ إلا أن تتداركيه بإسعافٍ سريع منك .

فاتخذت الورد فى الأكمام هيئة الغضبانة ، وقالت :

ما الذى تقصدين بهذا الكلام ؟

أجابت القهرمانة ، وهى تبتسم ، وتربت على كَتفها :

أقصد أن أجمع بينكما ، وأربطَ بين قَلبيكُما ، وأراكُما سعيدين هانئين فأسعدَ بسعادتكما ، وأهنأ بهنائكما .

هدأت الورد فى الأكمام ، وبدأ يتوارى عجبها ، وتخفى دهشتها ، وظهر عليها أنها تستجيبُ لعواطفها ، نخفّت حدّة كلامها : وقالت . هل رأيته ، وجالستِه ، وتحدثتِ إليه ، وتحدّث إليكِ ، وسمعتِ منه ؟!

قالتْ : نعمْ ؛ رأيته ، وجالسته ، وتحدثتُ إليه ، وتحدّثَ إليَّ ، وسمعَ منيَّ ، وسمعتُ منه .

استوت الورد فى الأكمام جالسةً ، وصارت كلُّ ذرّة من ذرّات جسمها أُذُناً مرهفةً تسمعُ وتَعِى ، وقالت :

بم حَدّثتِه ؟ وبم حَدّثكِ ؟ قُصِّى علىَّ ما جرى بينكما ؛ وباللهِ عليكِ لا تُخفى عنى شيئاً .

قالتِ القهرمانة : لقد أغنانى ذكرى له أننى قهرمانتك عن كلِّ قولٍ ، أمّا هو فإنه ما كادَ يعرفُ ذلك حتى ألانَ القولَ طلباً لعطفى ، وتدرَّجَ فى الحديث حتى طلبَ منى مساعدتى له على نَيلِ عطفكِ ، ثم أخرجَ هـذا الـكتابَ حيث كانَ يضمهُ ملاصقاً لصدره ، وأعطانى إيّاه ، لأعطيهُ لك ، فهاكِ هو .

وناولت القهرمانة المكتوبَ للورد فى الأكمام ، وهى تهمس لها :

تكرَّمى عليه يا بُنيّتى بكلمة يستردُّ بها روحه الهائمة ، وعقلَه الشارد ، فقد تيمّته ، وسَحَرْته ، ومَلَـكْتِ عليه قلبَه وعقلَه ، فارحمى شبابَه الغض ، وقلبه الوَلهان ، ثم تركتها وانصرفت .

ونشرت الوردُ فى الأكمام الكتاب بيدٍ ترتَعش ، وشرعت تقرأُ

ما جاء فيه ، وكلما مرَّت على سطرٍ منه ازدادتْ يدَها ارتعاشاً وقلبُها خفقاناً .

قرأتْ كلماتٍ من وحى القلب والرُّوح ، كلماتٍ عرفتْ منها مبلغ هُيام كاتبها ، وشدَّة تباريح الهوى بهِ ، قرأتْ فيها أقصوصةَ حُبّ عنيفٍ ، يشتعل فى القلب ناراً ، ورأت فيها شُواظَ نفس مستعرةٍ ، معذبة تبغى الراحة وتطلب القرار .

وَرفعتِ الوردُ فى الأكمام الكتابَ إلى شفتيها فلثمتهُ ، والدُّموع تنحدرُ من عينيها ، وتحاولُ أن تُكفكفَ الدمعَ خشية أن تراها القهرمانة ، ولكنها طمأنت نفسها ، وقالت لافائدة فى الإخفاء ، فإنها أصبحت تعرفُ كلَّ شىء ، فهى التى تواسينى وتسلِّينى ، وتتوجَّعُ لِى ، وتُعيننى ؛ لا بأسَ ، إنها مُخْلصةٌ وفيَّة .

ولما أتتِ القهرمانة بعد قليل تنشدُ الرَّدَّ ، دسَّت الوردُ فى الأكمام يدَها تحت وِسادتها وأخرجت إليها الكتابَ الذى كانت قد كتبته من قبلُ ، تُسطِّرُ فيه رُوحَها ، وتنفِّس عن نفسِها ، قبل أن يأتيها كتابُ أنسِ الوجود ، وقبل أن تعرف شيئاً عن حُبِّه لها — فيما تزعُم — ودفعتهُ إليها .

حملَتِ القهرمانة الخطاب ، وأسرعت إلى أنس الوجود ، ودفعتهُ إليه ، ففضه فى لهفة ، وجرت عينه بين سُطوره تعبرُها عَبرا ؛ فكان لهذا الخطاب فى نفسِ أنس الوجود فعلٌ فاق فعل السحر ، أحسَّ بنشوة الفرح والسرورِ تسرى فى جسمه ، فتستخِفه وتُنعشه ، وشعرَ أنه قد

غدا أسعدَ إنسان ، وأنهُ قد خُلق خلقاً جديداً ، وبدت الدنيا من حوله حُلوةً بهجةً ، كلُّ شيء فيها جميلٌ ، وكأنما كلُّ شيء يشاركه في سُروره : فتغريدُ الطير ، وحفيفُ الشجر ، وخرير الماء أغاريدُ وترنيماتٌ عذبةٌ ، تعبّر بها الطبيعةُ عن احتفالها بأنسه وسروره ، وتفتّح الزهرِ ، وتراقصُ الأغصان ، وتبخترُ النسيم ، وتواثبُ العصافير على الأفنان — ابتهاجٌ بما أتاح الله له من حظٍّ سعيد خُيِّلَ له أن هذا كلَّه ليس إلاَّ له ، ولم يخلقه الله إلا من أجلِ حُبِّه .

وفى فورة هذه الرُّوح كتب إليها ردًّا يفيض حُبًّا ، كلُّه أملٌ ، وكلُّه تصويرٌ لما يتوقعُ لنفسه من سعادةٍ ونعيم .

وحملت إليها القهرمانة هذا الردَّ فأثَّر فى نفسها كما أثَّر خطابها فى نفسه ، وتصوَّرت الدنيا بهجةً وجمالاً كما تصوَّرَها هو بهجةً وجمالاً ، وكتبت إليه كتاباً تَرُدُّ به على كتابه ، وحملته القهرمانة مسرعةً ، فاعترضَ طريقها حارسُ باب الحريم ، وقال لها :

ما بالكِ فى هذين اليومين تُكثرين من الدخول والخروج ، وألْمحُ فى وَجْهك شيئاً من الاضطراب الذى يَدُل على شىء خفى تكتمينه فى نفسك ، ومن حقِّ أن أعترض طريقَك ، وأسألكِ .

فاضطربتْ المرأة ، وظنت أنه قد لحظ شيئاً أو ألمَّ بخبر ، فدست فى خفية من الحارس الخطاب الذى كان بيدها بسرعةٍ بين طيات ملابسها ، وقالت فى تلعثم واضطرابٍ حاولت أن تخفيه :

إنى قاصدةٌ إلى الحمّام .

فلم يفطن الحارس إلى اضطرابها ، وإلى تلعثُمِها ، وأفسح لها الطريق ، فما سارت إلا بضع خطواتٍ حتى انفلت الخطاب من بين ملابسها وسقط على أرض البستان .

ومَرَّ بعد ذلك واحدٌ من خدم الدار ، فرأى الخطابَ فحمله مطويًّا إلى سيِّده الذى كان يتنزه فى البستان قائلاً :

ياسيدى ، لقد وجدتُ هذه الورقةَ ملقاةً على الأرض .

فأخذَها منه سيِّدُه الوزيرُ ، ونشرها ، وقرأها ، فأدرك ما جاء فيها ، فتأمَّل الخطَّ الذى كتبت به ، فعرَف فيه خطَّ ابنته ؛ فجُنَّ جُنونُه ، وأظلمتِ الدُّنيا أمامَ عينيه ، وضاقت على سِعتِها ، ودارت به الأرض الفضاء ، وسخُنَ وجهُه ، وصعدت الدِّماء إلى رأسه ، وكان يتميَّزُ من الغيظ ، وعَضَّ على نواجذِهِ ، وزفرَ زَفْرَةً شديدةً ، اختلفتْ لها أعضاؤه ، وكاد ينخلع منها قلبُه .

وبعدَ وقتٍ مَلكَ نفسَه ، وتحامل عليها ، وأخذَ عَصاً توَكَّأَ عليها ، وصعدَ إلى مَخْدعَهِ ، محاولاً أن يخفيَ ذلك الأمرَ ، حتى لا يقف عليه أحد من خدمِهِ وحشمِهِ ، ودخلت عليه زوْجَتُه ، فوجدَت الدموعَ قد خدَّت وجنَتَيه ، وغسلَت لحيته ؛ فسألته جزِعةً مُرْتاعةً :

ما بالك يا سيِّدى تبكى ؟! ما بك ؟! من مات من أحبابنا ؟! ماذا أصاب الدولة ؟! ما ذا دهى الملك ؟!

فأشارَ لها إلى الخطاب وهو صامتٌ، فأخذتْه، ونظرتْ فيه، فعرَفَتْ فيه خَطَّ ابنتِها، ونفذَ إلى أنفها شذَى عطْرِها، فتوجَّست شرًّا، وعرفت أنَّ في الأمر سرًّا، ولما قرأته صدق حدسها، وغلبها البكاء كما غلب زوجها، ولكنَّها تجلدت، وكفكفت دمُوعها، وقالت لزوجها :

يا سيدِّى، إن البكاء لا فائدة فيه، ولا مغنم من ورائه. والرأى الصَّواب أن نَتَبَصَّرَ فى أمرٍ يكونُ فيه الحفظ لشرفنا، والصونُ لكرامتنا، وإنقاذ ابنتنا مما توشك أن تقع فيه.

وأخذتْ تخفِّفُ عنه حزنه، وتسَلِّيه بذكْر الأحداث والعبر، حتى سُرِّى عنهُ بعض ما به، وقال لَها :

إنَّ ما يحزنني أنْ يصدر هـذا عن ابنتى، التى رَبَّيْتها عَلَى الخصال الحميدة، والسَّجايا الطيِّبة، وتعهَّدْتها بخير ما يتعهَّدُ به أبٌ ولده.

قالت : لا تَبْتَئس، فلـكلِّ جُرحٍ علاجٌ، ولـكلِّ مرضٍ دواء.

قال وهو يهزّ رأسه يائساً : إنهـا تراسل أنس الوجود، فأين العلاجُ ؟ !، وما هو الدَّواء ؟ ! هى ابنتى، وهو حبيبُ السلطان المقرب إليه، الذى يؤلمهُ بعاده، ولا صبر له على غيابه.

قالت : اصبر حتى أتوضَّأ، وأُصَلّى ركعتَيْن استخارةً لله، وسيُلهمنى الله الرأى الصواب.

ونهضتْ من فوْرها فتوضَّأت وصَلَّتْ، ثم أتت لزوْجها، وقالت له : إن فى وسط بحر الكنوز جبلاً يسمى جبل الثكلى، وهـذا الجبلُ

لا يصلُ إليه المرء إلا بعد تعب ومشقة ، فأقمْ لها مكانا هناك تقيم فيه ، وبذلك يُقطعُ ما بينها وبين أنس الوجود قطعاً ، ونأمن نحن على ابنتنا ، ونصون شرفنا وكرامتنا .

فسرَّ الوزيرُ من رأى امرأته ، وقضى الليل معها يرسُمان الخطط فيما يفعلان وينتهجان .

فلما أصبحَ الصباح جمع نفرًا كبيرًا من المهندسين والبنَّائين والنجَّارين والعمال، وانتقل إلى بحر الكنوز ، ونقل معه كلَّ ما أعد ، واستقلَّ مركبًا مُحملا بكلِّ ما يَلزَمُ لصناعة البناء ، واتجهوا جميعاً إلى جبل الثَّكلى ، وقام العملُ على قدَم وساق فى بناء قصرٍ منيع فوق ربوة هذا الجبل الذى يحيط به البحر من جميع الجهاتِ ، فما مضى إلا قليلٌ حتى كان القصر قد شُيِّد ، وأعدَّ بكل ما يحتاج إليه المقيم فيه من أثاث ورياش ، واستعدَّ لاستقبال الفتاة التى ستنفى إليه .

أما الورد فى الأكمام فقد لازمتها أمها فى هذه الفترة ليلا ونهاراً ، تراقبها وتحصى عليها حركاتها وترقب سكناتها ، إلى أن أتت ليلة الرحيل .

وكانت الورد فى الأكمام قد أحست أن أمْرَها قد كشفَ ، وقدَّرت أنَّ أباها سيحدثُ أمرًا ، وأعدَّتْ نفسها لتلقِّى الخطوب والمحن .

فلما كانت الليلة التى حُدِّدتْ لترحيلِها ، أتاها أبوها بعد أن مضى الهزيعُ الأوَّل من الليل ، وسكَن الناسُ وأووْا إلى بيوتهم ، وأمرَها أنْ تسير معه وتتبعه .

فتبعته حتى خرج بها من الدار ، فرأت أمام الباب الركائب والأحمال مهيأة للسَّفر ، ورأت الخدم فى هَرْج ومَرْج ، يذهبون ويجيئون ، ينفذون أوامر سيدهم ، فعرفت أن المكان الذى ستحمل إليه ناء بعيد ، ففاضت الدموع من عينيها ، ثم انخرطت فى بكاء شديد .

وسمعت صوت أبيها يصدِر الأوامر متعجلا نزول الجوارى والخدم الذين سيرافقونها ، فاستندت إلى جدار الباب ، وخطت على حائطه أبياتاً من الشعر الباكى الحزين تودِّعُ فيها الحبيب والأهل والدَّار .

وسرعان ما حُملت الأحمال ، واتخذ المسافرون أمكنتهم ، وشُدَّت الرِّحال .

وسارت هذه القافلة تُغِذُّ السيرَ فى جَوْفِ الليل ، حتى إذا ما انبلج نور الصَّباح كانت تعلو الكُثبان ، وتهبط الوديان ، فى صحراء قاحلة جدْباء لا زرع فيها ولا ماء .

وأخيراً وصلَ الركبُ إلى بحر الكنوز ، فحطُّوا رحالهم ، ونصبوا خيامهم ، وأنزَلوا أمتعتهم ، واستراحوا ليلةً فى مكانهم هذا حتى إذا كانَ الصَّباح استقلوا مركباً كان فى انتظارهم وقصدوا إلى جبلِ الثكلى الذى شيد فوقهُ القصر .

فلما وصلوا إلى القصر استقبلَهم نفرٌ من الحرَّاس كانوا به ، وأدخلوا الورد فى الأكمام هى وجواريها وخدمها إليه ، ثم كرُّوا هم ومنْ أتى مع الورد فى الأكمام من حرَّاس عائدين ، وعندما رسا بهم المركب عَلَى اليابسة أثناء أوْبتهم نزلوا منه ، وحطموه ، كما أمرهم الوزير ، ثم استأنفوا الرحيل تذوب أنفسهم حسرة على ما فعلوه .

ودَخلت الورد فى الأكمام القصرَ فوجَدَتْه رائع البناء ، جميلُ التَّنسيق ، إلا أنَّها لم تُلْقِ بالاً إلى ذلك كله فقد كانت منصرفة إلى أحزانها وأشجانها مُستَسْلِمة لهمهَا الذى بَدَأَ يُحطِّمُ قلبها .

(٤)

أما أنس الوجود فإنه كان قد علم بضياع الورقة ، لما أتت إليه القهرمانة لتعطيها له فلم تجدها ، وظل بعد ذلك يترقبُ مجيئها ، أو يَسْمَعُ خبراً مِنها ولكنها لم تَعُدْ إليه ، فبدأ يُساوِرُه القَلَقُ ، ويَدْخلُ نَفْسَه شىءٌ .

فلمَّا كان صباحَ يوم رحيل الورد فى الأكمام مَرَّ على قصر الوزير كعادته فى طريقه إلى قصر السُّلطان ، وأخذ يُرَدِّدُ طَرْفه نحو البُسْتَان ويختلسُ النظرات نحو النوافذِ والشُّرفاتِ ، لعلَّه يَرَى القهْرمَانة ، أو يلمح الورد فى الأكمام أو يَشْتَم رائحة خبر :

فلما حاذى الباب لمحتْ عينه الكتابة المخطُوطة على حائطه ، فعرف من فوْره فيها خطَّ حبيبته الورد فى الأكمام ، فاقترب منْها ، وقرَأها ، فعلم ما لم يكنْ يعلم .

علم أن يد النَّوَى قد فرَّقت بينه وبين حبيبته ، وأن الشُّقَّةَ قد اتسعت وأن المزار بعيد ، فتسمَّرتْ قدماهُ ، وظلَّ شاخصاً بعينَيه إلى أبيات الشعر التى خطَّتها له الورد فى الأكمام قبل رحيلها ، وهى تتراقص أمام

عينيه ، وقد جف ريقه ، وَوَجف قلبه ، وزاغَتْ عيناهُ ، وتخاذلت قُواه ، وشده عقله .

وفطنَ بعد وقتٍ ليسَ بالقصير إلى حاله ، وإلى أنه موضع تهامُس ، وتعجُّبٍ ، وتساؤُل وارتياب ؛ فتحوَّلَ يريدُ الانصرافَ ، فلم تطاوعْه قدَمُه ، فقد ثقُلت واسترْخَت ، وكأنَّها قد شُدَّت إلى الأرض بأمْراس . فجاهد حتى اقتلعها من الأرضِ اقتلاعاً ، وعاد يجُر نفسه ثانياً إلى داره ، حيث سقط متهالكاً ، كأنما أصابتْهُ غشية .

ولمَّا أفاقَ قليلاً ، قرَّ قرارُه على أن يقتفى أثر الوردِ فى الأكمام باحثاً عنها حتى يجدَها ، أو يلقى دُونها الموتَ .

فشدَّد عزمَهُ ، وشجَّع نفسه ، وقوَّى قلبه ، ونهض يستعدُّ لهذَا الأمْر .

وفى دُجَى اللَّيلِ تسلَّلَ من داره متخفيًا متنكراً فى زىٍّ غيرِ زيِّه فصار تنكِرُه العينُ التى تعرفه .

وقضى الليلَ فى سيْرٍ متواصلٍ ؛ فلما أصبحَ الصباحُ كان قد قطعَ مرحلةً واسعةً خارج المدينة ، وواصل السيرَ حتى اشتدَّ وهَجُ الهجيرِ عليه ، فدارَ بعينِه يبحثُ عن ظلَّةٍ يستظلُّ بها ، ويستريح فيها بعضَ الوقتِ ، فلم تطالع عينُه غيرَ صحراء ورمالٍ تلهبُها شمسٌ حاميةٌ مُحرقةٌ .

ولم يجد بُدا من أن يواصل سيرَه رغمَ تعَبه وإجهاده ، وجُوعِه وعَطشه حتى مالَ النهار ، وانحدرت الشمسُ ، وحينئذٍ تراءى أمامَ

عينيه اللتين أعشاها بريقُ الشمس شىء يتراقصُ ويميلُ ويهتزُّ ، فيمَّم نحوه فوجدهُ شجرَةً وبضع نخلاتٍ يجرى بجانبها جدْوَلُ ماءٍ ؛ فمال إلى الماء يطفئْ منهُ عطشه ، ولـكنهُ لم يجد لهُ فى فمه طعماً ، ولا فى حلقه رِيّاً ، فأخرجَ شيئاً من الطعام القليل الذى يحمِلُه معهُ ، فلم يجدْ لهُ من نفسِه قبولاً ولا شهيَّةً .

وقضى جُزْءاً من الليل فى هذا المـكان ، ثم نهضَ يستأنفُ سيره تحت سِتار الظلام الذى لا يُنـيرُه لهُ غيرُ بصيص ضئيلٍ من نور الـكواكب والنُّجوم يهْتدِى به ، وشُعاع الأمل ينبعثُ من صدْره فيخلعُ على نفسهِ صورةً من الإلهام مضطربةً ؛ إلاَّ أن ضوءها يَغلبُ على ظلامها .

انقضى الليلُ بظلامهِ ووَحشته وأوْهامه ، واختفتِ النجومُ فى خضَمٍ من نور الصباح ، وظهرت الشمسُ مشرقةً ، فأرشدته بنورها ، وأحيتْهُ بحرارتها ، ثم أصلتهُ بعد ذلك شُواظاً ، ولفحته لفحاً يسفعُ الوجهَ ، ويشوى الجلد ، ويُصَبِّبُ العَرَق .

وبينما هُو يُعانى الألمَ فى قدَميه ، والثُّقلَ فى جِسمه ، ووقدَةَ الشمس فوق رأسِه — إذْ بهِ وجْهاً لوجْه أمامَ أسَدٍ ضَارٍ ما رأت عينُه أكبر منهُ ، ولا أوْفر لُبْدَة ، ولا أبْشعَ شكلاً ، ولا أَحَدَّ ولا أضرَى .

وأيقن أنسُ الوجودِ أن الموتَ أدركه ، فلا نجاة منهُ ولا مفر ، ولا شجاعةَ تجديه ، ولا حيلة .

فوقف فى مكانه ينظر إلى الأسدِ مُرْتعِدًا خائفاً، يترقَّبُ وثْبتَه بين لحظة ولحظة ؛ والأسد ينظر إليه كأنه يتربص به ، ويتجمع للوثوب عليه ؛ ولما طال الوقتُ على أنس الوجود ، والأسدُ لا يتقدمُ للهجوم عليه وافتراسه ، سرَى عنه بعض ما به من الخوف ، وملَكَ أعصابه ، وتَنَبَّه لنَفْسِه ، وقال يُخاطبه :

تقدَّم يا أبا الحارث ، فأرحْنى من عَذابى ، وانْتَشِلْنى من شَقائى ؛ فإنك إن أنْشَبْتَ مخالبك فى قَلْبى ، ومَكَّنْتَ لأنْيابك من عُنُقِى — أرحْتَنى من تلكَ الحياة المظلمة ، وخلَّصْتنى من حَظ نكد بائس ؛ ولعَلَّى إن أمُتْ أجد وراء هذه الحياةِ حياة أسعد وأرْغدَ ، لا يظلمُ فيها أحدٌ أحدًا ، ولا يعتدى أحدٌ على أحد ، ولعلى إنْ أمُت أجد وراء هـذه الحياة حياةً يحترمُ فيها بعضُ الناس بعضا ، ويقدِّرونَ عواطفهم ، فلا تحاسُد ولا تباغُض ، ولا تنافُس فى شرٍ أو إلى شر .

تقدم يا أبا الحارث فأرحنى من عَذابى ، وانتشلنى من شقائى .

وكم كان عجيباً حين رأى أنس الوجود الأسد حين سمع كلامه أقعَى ، ولم يتقدم نحوه ، ولم يهجم عليه ؛ فكأنه فهم كلامه ، فرثى لحاله ، وجلس يتأمله .

فقال : أيا سبع الغابة ، ويا ليث العرين ؛ هلْ أجدُ الرَّحمة منك ، والأمان عندك بعد أن لم أجدها من بنى جنسى ؟ !

وازداد عَجبُ أنس الوجود حين أبْصَر الأسد ينهض متمهِّلاً

وهو يُبَصْبِصُ بذنبه ، ثم يسيرُ أمامه وينظر إليه كأنه يطلب منه أن يَتْبَعه .

فتبعه أنس الوجود ، وهو يسائل نفسه : يا ترى ما هو مصيرى مع هذا الأسد المخيف الوديع ؟ !

وسار الأسد وأنس الوجود فى أثره ،فصعد به فوق ربوة عالية ، ثم هبطا منها ، فإذا أمام أنس الوجود آثارٌ حديثة لأقدام ومناخُ جمال ، وسنابكُ خيلٍ رائحةٍ وغاديةٍ ، فعرف أن هذا هو الطريق الذى طرقه القومُ المسافرون بالورد فى الأكام ؛ ففرح باهتدائه إلى هذا الأثر ، وعزم على تتبعه .

أما الأسد فإنه بعد أن أحسَّ أن صاحبه اهتدى بالأثر كرَّ راجعاً من حيث أتى .

أما أنس الوجود فإنه لم يكد يرى الأسد راجعاً حتى ينظر إليه ، ويتبعه نظراته ، كأنه يريد أن يشكره على ما قدَّم إليه من جميل لم يقدمه إليه إنسان ، ولكنَّه انعقد لسانه من شدة دهشته ، وفرط عُجْبه ؛ ولم يزد على أن قال : يظلمونك يوم يتحدثون عنك ، ويذكرون أنك حيوان مفترس ظالم غادر ، ولو أنصفوك من أنفسهم لكانوا هم الظالمين الغادرين ، الذين يفترسون بألسنتهم ، وخداعهم ومكرهم ؛ ولكنت أنت الوديع الوفى الأمين ؛ فهيهات هيهات ! !

وسار أنس الوجود يقُصُّ الأثر ، ويقتفى المعالم التى رآها ويتبعها .

وطال به السيرُ أياماً وهو لايعل من اقتفاء الأثر ، ثم انتهى به المسير بأن أشرف على بحر عَجّاج وعلى شاطئه انتهى ذلك الأثر .

ووجَم أنس الوجود وتولّاهُ الذهولُ لأنّ الأثر انتهى ها هنا ، فهل أغرقت الوردُ فى الأكمام فى البحر ؟!

لعل القلوبَ المتحجرة فعلت هذا ؟ وهل أتم القومُ رحلتهم بطريق البحر ؟! فأين الورد فى الأكمام ؟! وأين ذهبوا بها ؟!

أأكونُ قد قطعت هذه الفيافى، واجتزت هذه القفار، بجسدٍ مكدود، وأقدام دامية ، لأتلقّى هذه الضربة القاصمة ؟! وأنتهى إلى هذه النهاية ؟! ماذا أفعلُ ؟! وإلى أين أتجه يا رباه ؟!

ولم يتمالك من أن ينفجر مجهشاً بالبكاء ، بعد أن فقد الأمل ، وانقطع أمامه الرَّجاء ، فقد ضعفت نفسه ووهنت عزيمتُهُ، بعد التجلد والصبر والكفاح .

وارتمى على شاطئ البحر يعتلجُ فى صدره همٌّ شديدٌ، فيبث الأمواج لواعِجه ، وينثر عليها همومه وأحزانه ، ويسكبُ عبراته ، يناجى الحبيبة التى تفصلُ بينه وبينها لججٌ صاخبة ، فلا يعرف لها مقرا ولا مُقاما ، ولا يعرف : أهى بين الأحياء فيناديها ، أم هى بين الأموات فيناجيها ؟!

ثم يندُب حظه العاثر ، ويبكى أمله المفقود ، فكأنه يهذِى هذيان المحموم .

وانحدر قرص الشمس ثم غاب ، وأنس الوجود جاثم فى مكانه

لا يشعرُ بالوقتْ ولا بمروره عليه ، وأخيراً انتبه من غَشْيته ، وصحا من هَذَيانه ، فروَّعته رهبة المكان ووحشته وهو وَحيدٌ بين صخورٍ ورمالٍ ، وبحرٌ يهدر مزمجرًا تارة ، ومُقهقهًا تارة أُخرى ، وخُيِّلَ إليه أن هذا البحر الذى غَيَّب عنهُ حبيبته فى جَوْفه أو عَلَى ظهْره ينُوح لحاله باكيًا ، ثم تراءى له أنه يَضْحك منهُ ساخراً .

يا لله ! ! إنه سيُجَن ! ! ما باله الليلة يشعر بالوَحشة ، ويحس الوحدة ، وقد قضى الليالى من قبلُ فى الفَلاة وَحيدًا لا يُؤْنسه أنيس — آه — لقد كان هناك من يؤنِسُه ويَرُد وحْشَته ؛ كانت نفسه عامرةً بالأمَل ، وروحه مُفْعَمَة بالرَّجاء .

نَظر إلى جانبه فرأى الصخور ترتفعُ وتتعالى ، ومن خلفها يشمخُ جبلٌ عالٍ ، فخطر بباله أن يلجأ إلى مأوى بهذا الجبل يُؤْوِيه حتى الصباح .

فارتَقى الصخورَ ، ثم شرع يَصْعَد مرتَقى الجبل ، فأبصر فجوة تُشْبه المغارَة فيَمَّم نحوها .

وما كان أشدَّ دهشته حين وَجد لهذه المغارة بابًا ، فوقفَ أمامَ الباب يتسمَّع ، فسمع من داخلها صوْتًا ! !

وشعر بخوف ، وشعر بإيناس . خوفٍ من شكِّه فى أن يَسْكُن إنسانٌ هذا المكان المنقطع المنعزل الموحش . وإيناسٌ لأمله أن يكون هذا صوت إنسان يسائله ويحاوبه ، ويبادله القول ، فلعلَّ حظًّا تعسًا ألقى به فى هذا المكان ، فيجمعُ بينهما البؤس والشقاء .

فتقدَّمَ من باب المغارة كى يطرقه، فتَرُدُّه الهيبة، وتدفَعهُ الرَّغبة. ولكنه طرقه طرقاً خفيفاً فلم يَرُد على طَرْقه أحَدٌ. وسمع من داخل المغارة الصوتَ مازال يَتَرَدَّد. فأنصت يتسمع، وأرهف أذنه إرهافاً شديداً، وألصقها بثقب صغير فى الباب؛ فإذا هو يَسْمعُ صوتَ قارئ يُصَلى ويتعبد.

فتنبه؛ وأدركَ أن هذه المغارة التى أمامه ليست إلا صَوْمعة، يعتصم بها عابدٌ من عُباد الله الزَّاهدين فى الدُّنيا، الرَّاغبين فى الآخرة، ويتخذُ منها مكاناً ينقطعُ فيه عن النَّاس، ويتخلَّصُ بعضَ الوقت من شرُورهم وآثامهم، ويُخلِصُ إلى الله.

فاطمأنَّ، وارْتاحَتْ نفسه، وعاوَدَ الطَّرقَ مثنى وثلاَث، ولكنه لم يُجبه مجيبٌ، فعادَ الاكتئابُ إلى نفسه، واليأسُ إلى قَلْبه، وجلس على باب المغارة يَبْكى ويندب حظَّه العاثر.

وبينما هُو غارِق فى همه وحُزْنه، رأى باب المغارة قد فتح فجأةً، وسمع صوتاً من وَرائه يقول:

وارَحْمتاه!! منْ أنتْ يا فتَى؟!

فنهض أنس الوجود، وحيَّا الشخص الذى لاح له من خلفِ الباب. فردَّ عليه التحية بأحسن منها، ودَعاه إلى الدخول، ثم قال له:

ما اسمك يا بُنى؟! ومن أين جئت؟! فأجاب أنس الوجود:

اسمى أنسُ الوجود، أما مجيئى فله قصة طويلةٌ عجيبةٌ.

فقال الرَّجل:

لا بأس عليك ! استرح الآن مما أنت فيه من تعبَ ونصب . ثم أتى له بماء وتمر ، ودَعاه للطَّعام .

فلما استراح أنس الوجود قليلا ، وتناول الطعام الذى قُدِّم إليه ، شرع يقصُّ على العابد قصته .

ولما انتهى منها وهُو يبكى ، كان العابدُ كذلك يبكى لبُكائه . ثم قال له :

حقًّا يا بنى ؛ لقد انقطع أثر من تعقبت آثارهم على هذا الشاطئ ، فإنهم ركبوا البحر ؛ لقد مكثتُ فى هذا المكان عشرين عامًا ، فما رأيت أحدًا يطرقه إلا فى هذه الأيام . ومن بضعة أيام سمعتُ هرْجا ومرجا ، وصوتَ بكاء ، فخرجتُ من مغارتى ، ونظرت نحو الشاطئ فرأيت قومًا مخيمين به ، ثم استقلوا مركبًا وغابوا به فى البحر . ثم لم يلبثوا أن عادوا ، وحطموا المركب وانصرفوا . ولم آبه أنا لهذا التصرف ، ولم أفقه له وقتئذ معنى ، ولكن أظنُّنى الآن قد عرفتُ السر .

فسأله أنس الوجود متلهفًا :

وما هو السِّر ؟ ! وما سبب تحطيم المركب ؟ ! فإن ظَنَّ العابد يقينُ غيره .

أجابَ العابدُ : لا أعرف إن كان ما ظننته صحيحًا أو غير صحيح ، فإن علم ذلك عند الله ، ولكنه تَرْجيحٌ واجتهادٌ ، والمجتهدُ قد يُخطئ وقد يُصيب .

فقال أنس الوجود :

بربك أَخْبِرنى ما هو هذا الخاطر الذى خَطَرَ لكَ ؟

أجاب :

أرجحُ أن الفتاة التى تعنيها قد ذَهبوا بها إلى جزيرة فى وسَط هذا البحر ، وبهذه الجزيرة جبَلٌ يُسمَّى جبلَ الثَّكْلىَ ، وأنهم قد تركوها هُناكَ فى مكانٍ أقاموه لها ، ثم عادوا وحطموا المركب حتى لا يمكنَ أحد الذهابُ إليها .

عند ما سمعَ أنس الوجود هـذا القولَ من العابد علا بكاؤه ، وازداد نشيجهُ ، حتى كادت مرارتهُ أن تنفطر ، والعابدُ يُرَبِّتُ عليه ، ويواسيه ، قائلاً :

لا تيئسْ يا بُنى من رحمة الله ؛ إن بعدَ العسر يُسْراً .

فقال أنس الوجود وهو يَشرقُ بدموعه :

إننى لا أجدُ أمامى إلا ظلاماً حالكا ، ويأساً قاتلا .

فقال العابد :

لا تجعل يا بنىَّ لِلياْس طريقاً إلى قلبك . اعتمد على الله فهو مُفرِّجُ الكروب ، وتوكَّل عليه فهو مُيسِّرُ الأمور .

قال :

ما ذا أفعل ؟! وإلى أين أتجه ؟! أرشدنى يا سيِّدى بربك ، وأَنِرْ لى سَبيلى أثابَكَ الله ؛ فإن الدنيا على سعتها ضاقت فى وجْهى ، وأصبحتْ

أضيقَ من كِفةِ الحابل؛ فحيثما تلفتُّ لا أجدُ إلا ظلاماً مؤيساً.

فقال العابد:

نَمْ أنت الآنَ لتستريحَ، وتستردَّ قُواك، وسأقوم أنا للصلاة والدُّعاء من أجْلك، عسى الله أن يُلهمنى الرأىَ السديدَ، ويوفقنى إلى طريق الرَّشاد، ومن يرجُ الله لا يخِبْ رجاؤه، ومن يتوكَّل عليه فهو حسبُه.

فامتثل أنسُ الوجود لأمرِ العابد، ورقد مُفوِّضاً أمرَه لله.

فلما كان الصباحُ قال أنس الوجود للعابد:

ما ذا دَبَّرت لِى يا سيِّدى كى أَبْلُغَ أَرَبى؟! فإننى لا صبرَ لى على هذا الأمْر، ولا راحَةَ لِى إن لم أُنقِذ من سَبَّبت لها هذا الشقاء، وتلك الوَحدةَ المُمِضَّةَ القاتلة.

فأجابَ العابد:

أما وهذه رغبتُك التى لا تحيدُ عنها، فانزِل إلى الوادِى، وأْتِنِى بليفٍ من ألْيافِ النخيل، والله يُعيننا على النظرِ فى أمرٍ يُبلِّغك مُرادَك.

فأطاعَ أنسُ الوجود، ونزَل إلى الوادِى، وجمَعَ كثيراً من اللِّيف، وأتَى به إلى العابد.

فأخذَه منه، وعكَف عليه طولَ يومِه يبْرمه حبالاً، ثم صنعَ من هذه الحبالِ طُنُفاً كبيراً متصلَ الجدَلاتِ، مُوثَق الحلقات.

وفى اليوم الثانى صَحِبَ أنس الوجودِ إلى الوادِى، وجمعَ له قرعاً جافاً كان يملأُ جوف الوادى، وملأَ به الطُّنُفَ ثم أقفَلَ عليه.

وقال لأنس الوجود :

ها قد صنعتُ لكَ قارَباً مليحاً .

ثم سَحبَ الطُّنُفَ ، وألقاه فى البَحر ، وأنزلَ فيه أنس الوجود ، وزوَّدَه ببعضِ الزاد ، وقال له :

اعتلِ هذا الطُّنف ، وسر به فى البحر ، واللهُ معك يُعينُك على بلوغ مقصدِك ، وسأصلّى لله ، وأدعُو لكَ ، عسى الله أن يأتىَ بالفتح أو أمرٍ من عِنده .

فقال أنس الوجود :

ياسيِّدى إن لسانى ليعْجزُ عن شكرك ، وإنَّ جنانِى ليقصُر عن الاعتراف بفضلك .

ثم ودَّعَ العابدَ ، واعْتلَى الطُّنُف ؛ فدفعَه به العابدُ إلى البحر ، وهو يقول :

سِر على برَكَة الله ، فما بَلغ أحَدٌ مُرادَه إلاَّ بالسَّعْىِ ، ومن لم يُخاطر بنفسِه لا ينال هدفَه .

وأتَتْ ريحٌ فطوَّحَت بالطُّنفِ وراكبه إلى عرْضِ البحر ، وما زالتْ تدْفعه الأمواجُ حتى غابَ عن عينِ العابد .

وقضى أنسُ الوجود فى رحلته ، أو مِحْنته ، هذه ثلاثةَ أيام قاسَى فيهاَ الأمرَّين ، ونالَ منه التَّعبُ كل مَنال . أخذت الأمواجُ تُرَجِّحهُ تارةً ، وتداعِبهُ طوْراً . تقذفه موجةٌ ، لِتتلقفهُ موجة ، وترفعُه لجّةٌ

وتخفضه لجة، ويدفعه تيار الماء ويرده اتجاه الهواء؛ ظل على ذلك وقتاً. ثم صخب البحر وهدر، فكان يقلبه ظهراً لبطن حتى أضناه بين لججه وأمواجه، وأذاقه من عذابه وأهواله ما لا قبل له باحتماله، وأراه الموت مرات تلو مرات في أعاصيره وأنوائه، وهو متشبث به تشبث الحريص على حياته؛ وبعد لأي أدركته رحمة الله، وقذف به إلى الجزيرة التي ينشدها. فنزل إلى البر مثل الفرخ الدائخ، لا يقوى على السير أو الحركة.

وظل على هذه الحالة زمناً ليس بالقصير، ثم استطاع أن يستجمع قواه، وينهض على قدميه، ويسير في أرجاء الجزيرة، لعله يجد مخرجاً.

جال أنس الوجود بالجزيرة جولة قصيرة، فوجدها جزيرة ذات أرض خصبة، فيها أنهار جارية، وأشجار مثمرة، وأطيار مغردة، ورأى في وسطها ربوة عالية، يلوح من فوقها شيء أبيض ناصع البياض، ما إن رآه حتى أدرك أنه لا بد أن يكون هو المعتقل الذي حملت إليه الورد في الأكمام.

فلم يتوان عن ارتقاء الربوة إلا ريثما التقط بعض ثمرات يتبلغ بها، وصعد على الربوة بهمة ونشاط لم يكن ينتظرهما من نفسه بعد أن قاسى ما قاسى من مشاق وأهوال.

وبعد برهة كان يجول حول قصر صغير منيع، يمتد أمامه على مدى البصر متسع فسيح يشبه البستان، مسور بسور عال؛ فطاف حوله

يختبرُ منافذَه حتى عثَر بالبابِ ، فوجَده مُقفلاً محكمَ الإقفال . فربض أمامَه ينتظرُ ما يتأتّى من الأحداث .

وبعد أيامٍ ثلاث فُتِحَ البابُ ، وظهرَ من وَرائِه أحدُ الخدم ، وما إن رأى أنسَ الوجود جاثِمًا بالباب بثيابه الرَّثّة ، وسِحنتِه المغْبرّة ، حتى بُهتَ وملَكَ عليه العجبُ كلَّ حَواسّه ، وقالَ لهُ :

يا هذا ؛ منْ أنت ؟ ! ومَنْ أتى بك إلى هُنا ؟ ! إنسٌ أنت أم جِنى ؟! خَرجتَ من الأرض أو هبطْتَ من السماء ؟ !

فأجابه أنسُ الوجود :

إننى رجلٌ من أصْبهان ، وكنتُ مسافِرًا بتجارة فى البحر ؛ فانكسرَ المركبُ الذى كنتُ فيه ، وقذفتنى الأمواجُ بعد أن أشرفتُ على الموتِ إلى هذه الجزيرة ؛ فهل أجدُ عندكم مأوى آوى إليه ، حتى يهيئ اللهُ لى فرصة العودة إلى بلدى ؟

فتقدَّم الخادمُ من أنس الوجود وعانقه وقبَّله وهو يبكى ويقول :

حيَّاك الله يا وَجه الأحْباب . إن أصْبهانَ بلادى ، ولى فيها أبٌ وأمٌّ ، غَزانا قومٌ أقوياء ، فأخذونى أسيراً فى جملة من أخذوا من الأسرى وباعونى خادماً كما ترَى .

فعانقه أنس الوجود ، وبادله قبلة بقبلة ، مجاوبًا له فى إبداء عَواطفهِ . وبعد أن أطفآ ما بهما من حَنين ، دعاهُ الخادمُ إلى الدخول إلى ساحة القصر .

دَخل أنسُ الوجود القصر مع الخادم ، فرأى فى السَّاحة أشجاراً باسقة ، ظلُّها ممدود ، وثمرُهـا مَنْضُود ؛ تتفرع منها جـداول تجرى وتتشعب ، ورأى فى أغصان الأشجار أقفاصاً تتدلى ، بعضها مفضض ، وبعضها مذهب ، لها بريق يخطف الأبصار .

فاقترب من هذه الأقفاص يتأملها ، فوجد فى داخلها طيوراً ؛ فوقف أمام قفص منها ، وكان فيه عَندليبٌ ؛ فلما رآه العندليبُ ينظر إليه نظرة حزينة فيها إشفاقٌ ممزوجٌ بالعطف والحنان — ناح نواح الغريب ، لذكرى الوطن أو ذكرى الحبيب .

ففاضَتْ الدموع من عينى أنس الوجود ، مجاوبا العندليبَ فى نواحه قائلا له :

لا تحزن فنحن سيان . لا تظن أنك أسيرٌ لأنك محبوس فى قفص ، وأنى طليق أغدو وأروح كما أشاء ، وعَلَى ما أشتهى ؛ فليس الأسرُ أن تحدَّد إقامتك فى مكان ، وليست الحرية أنك تغدو وتروح حُرًّا طليقاً من كل قيد ؛ وإنما الحرية والعبودية أمران مَعْنويان ، يفرق أن يشعر الإنسان بالسعادة فى نفسه ، أو أن يشعر بالشقاوة والحرمان .

وما زال يتنقل بين الأقفاص ، وينظر إلى ما فيها من الطيور ، ويُناجيها ، ويبثها أحزانه وأشجانه ، وينشدُها أهازيجه وأشعاره ، والخادم ينظر إليه فى استعجاب واستغراب ، حتى تأثر بكلامه ، فعصفت

به نوبة من الحزن كادت تخرجه من صوابه ، لولا أن أنس الوجود اتجه إليه ، وسأله :

لماذا تضعون هذه الطيور فى الأقفاص ، وتعلقونها على هذه الصورة الغريبة ؟!

فأجاب الخادم :

إن سيّدتى أمرتنا أن نصطاد لها هذه الطيور ، وأن نضعها هكذا فى الأقفاص ، لتأنس بها ، وهى فى كلّ غروب تنزلُ إليها فتناجيها ، وتتحدثُ إليها؛ وبلغ من إعزازها لهذه الطيور ، لأنها سلوتُها، أنها أمرتنا أن نصنع لها أقفاصاً من فضة وذهب .

فقال أنس الوجود ، وقد خفق قلبه خفقةً شديدة لا يعرف لها سِرًّا :

ولمن هذا القصرُ المنعزلُ المنيع ؟!

أجاب :

هو للوزير إبراهيم ، وزير الملك شماخ ، بناه لابنته خوفا عليها من عوارض الزّمان ، وطوارق الحدثان ؛ ثم حملها إليه ، وأقامها فيه، ولا تجلب إليها المؤن إلا مرّة فى كلّ عام .

فقال أنس الوجود للخادم، وهو يحاول أن يُخفى عنه فرحه واضطرابه :

حقا إن هذا الأمر يدعو إلى العجب ، ولكن ألا تدعنى يا صاحبى هُنا فى ضيافتك ، حتى ييسّرَ اللهُ لى أمرا ، وإذا سألك سائلٌ عنى ، فقل إنه رجلٌ من أولياء الله ، ساقه الله إلينا .

فقال الخادم : انزل فى ضيافتى ياسَيدى على الرَّحب والسَّعة .

وانتحى أنس الوجود ناحيـــة ، وجلس فى أحد أركانها ، ملتفاً بأسْماله ، ينتظر ميعادَ نزول الورد فى الأكمام ، لمناجاة طيورها .

وكان إذا لمحه أحدٌ من خدم الدَّار وسأل عنه : من يكون ؟

يجيب الخادم : إنه وَلى مِنْ أولياءِ الله الصالحين . دَعــوه لشأنه يتعبد ، ويتهجد .

(٥)

ولكن هذه الحيلة لم يجن أنس الوجود لها ثمرة ، فإن الورد فى الأكمام كانت قد نفد صبرها ، وضاق ذرعها ، وأصبحت لا تُطيق صبراً على المقام فى هذا المكان الموحش ، وحيدةً طريدة .

ففكرت فى حيلة تتخلص بها من ذلك السجن الموحش ، وتخرج لتجد لها أنيسا تُناجيه ويُناجيها خيرًا من هـذه الطيور المحبوسة فى الأقفاص .

فجاءت ببعض الملابس القديمة ، ومزقتها ، وجدلتْ منها حَبْلاً طويلا متيناً ، وقضت ليالى فى جَدْل هذا الحبْلِ ، ثم دلَّته من نافذة خلف القصر ؛ بحيث لا تقع عليها عين طيرٍ ولا خادم ، وتعلقتْ بذلك الحبل ، وهبطت إلى الأرض خارج القصر ، لعلها تجد من ذلك الفضاء الواسع مخرجا مما هى فيه من ضيق ووحشة ، فإن السعادة ليستْ فى سِعة الدُّور ،

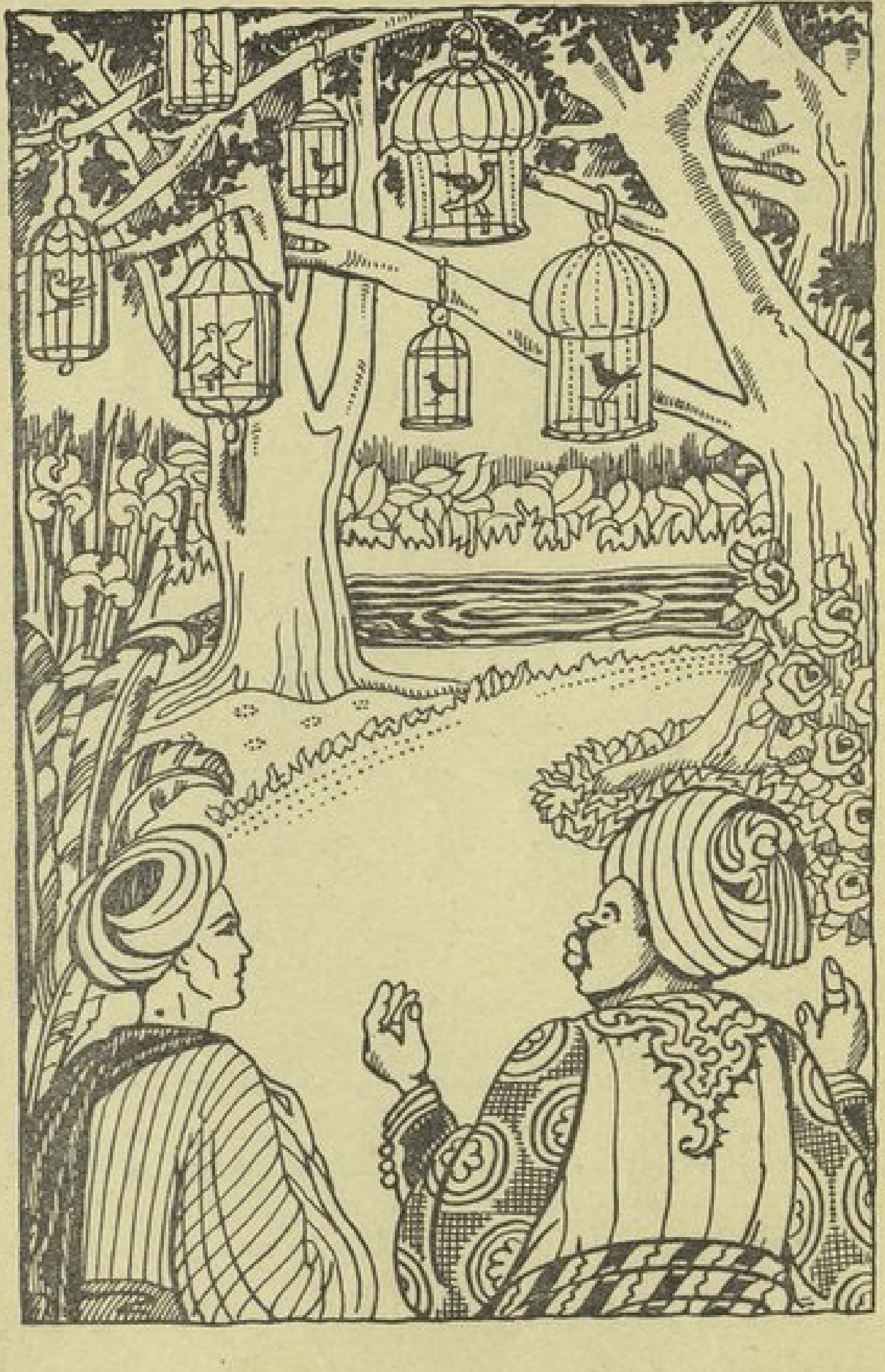

وارتفاع القصور ، وكثرة الخدم والحشم ، والحدائق الغناء ، والرِّياض النَّضرة ، والأزهار المتفتحة . والمياه الجارية ، والطيور المغردة ، ولكنها شيء وراء هذا كلّه ، وتتحقق للإنسان في وجود هذا وفي غير وُجُوده ، فهي ليْسَت إلا في أن يرى الإنسان نفسه سعيدًا ، ويقدر لها أنها سعيدةٌ ، ولذلك تختلف أسباب السعادة باختلاف الناس .

فالبخيلُ يرى السعادة في جمع المال ، والمسْرِف يرى السعادة في إنفاق المال ، والعالم يرى السَّعادة في تحصيل العلم ، وتأليف الكتُب ، والزَّاهد يَرَى السعادة في الاخْشيشان والتقشف ، والمحْرومُ يَرَى السَّعادة في أن يُعْطى ، والوحيدُ يرى السعادة في وجود الأنيس ، والسجينُ يَرَى السعادة في الانطلاق ؛ وهكذا كلُّ إنسان وما يُسِّرَ له .

لذلك رأت الوردُ في الأكمام أن ما يُحيط بها من جمال القصر وأبهته ، وتوفير أسباب الراحة لها من خدم وحَشم وطعام وشراب — لا سعادة لها فيه ؛ وإنما سعادتها فيما تطلبُ لنفسها ، وتتمناه لها ، ففكرَت في الخلاص من ربقَة الأسْر ، ووَحشة السجن ، الذي ألقاها فيه وحشية الأبوَّة ، وضراوة الحنَان ، وتمردُ العطفِ ، وجُنون الغيْرة .

لذلك عوَّلت على أن تتدلى من جوار القصر إلى الجزيرة ما دامت لا تستطيع الفكاكَ عن طَريق الباب ، وبعد أن تُصبح حرةً طليقة تتدبر في طريقة تعودُ بها إلى مدينتها ، وتلجأ إلى الملك شماخ ترجو شفاعَته لدى أبيها ، مظهرة براءتها ، ونصاعَة صفحتها .

ومن ثمة نفّذت هذه الفكرة دونَ توان أو إبطاء.

وما إن استقرت قدمَاها على أرضِ الجزيرة خارج جدران القصر حتى أخذت تَعْدو مسرعة رغم وعورة الطريق، خشية أن يفطن لغيابها حُرّاسها من خدم القصر، ويعملون على إعادتها ثانياً.

ولم يمض إلا قليلٌ من الوقت، حتى كانت تعتلى إحدى الصخور المشرفة على البحر ترقبُ منها ما يحيط بالجزيرة لعلها تجدُ أحدًا يرشدها إلى الطّريق الذى تَسْلكُهُ، أو قاربا ينتشِلها مما هى فيه.

ولحسن حظها ساق الله إليها صيادًا يصطادُ بقاربه فى البحر، ويجول به قُربَ الجزيرة، على الرغم مما كان شائعًا بين الصيادِين عن هذه الجزيرة، من أنها تسكنها جنيةٌ وأولادها الصغار، وأن هؤلاء الأولادَ يبكون وينُوحون بصوتٍ مؤثر، يجعلُ كلَّ من يسمعُ عويلهم المؤلم يقول: إنه عويلُ من ثكلَتْ أولادَها. لذلك عُرفت الجزيرةُ وربُوتها باسم جَبَل الثكلى، وتجنّبَ المسافرون والصّيادون الاقتراب منها.

لذلك ما كاد الصيادُ يرى الوردَ فى الأكمام قائمةً فوق الصخرة وهى تشير إليه بالاقتراب منها، حتى تَوَلّاه الرُّعب، وغَلَب عليه فزعٌ شديدٌ، وأسرع يحولُ دفة قاربه مبتعدًا به عن الجزيرة، حتى لا يقع فريسة لتلك الجنيّة.

ولكن الورد فى الأكمام — وقد كانتْ هذه هى فُرصتُها الوحيدةُ

للفكاك ، قبل أن يلحق بها أحدٌ — أخذت تُنادى الصيادَ ، وتشيرُ إليه ألا يَبْتَعد ، وقد عَرَفَتْ أنه خَائِفٌ منها لوجودها فى هذه الجزيرة المهجورة ظنًّا منهُ أنها ليستْ بشرًا .

ورآها الصَّيادُ وهى تشيرُ إليه بألا يبتعد ، وسَمِعَها وهى تُنادى فتمهَّل ، ولكنه ظلَّ يتوجَّسُ خِيفةً منها ، وتطلع نحوها يتأمَّلها ، فوجدها فتاة بارعة الجمال ، باهِرة الحسنِ ، بهية الطلعةِ ترْتدى ثيابًا حريرية فاخرةً ، وتتحلَّى بالجواهر اللاَّمعة ، واليواقيت الثمينة ، فحار فى أمْرِه ، واقترب بقاربه من شاطئ الجزيرة وصاح بها :

من أنتِ ؟!

أجابَتْ :

أنا فتاةٌ بائسة ، سُجِنت ها هُنا ، فنجِّنى نجَّاكَ الله ، ولا تخَفْ .

فتقدَّم الصيادُ نحوها ، وسألها :

إنْسِيَّة أنتِ أم جِنية ؟!

أجابَت :

إنسيةٌ واللهِ !! قذَف بى الحظُّ التَّعِسُ إلى هذه الجزيرة ، فخلِّصْنى يُخلِّصك اللهُ ، وفرِّجْ كَرْبى ، يُفَرِّج اللهُ كربك ، وأغثنى يُغثكَ الله .

اطمأن قلبُ الرجلِ بعضَ الاطمئنانِ ، وسألها :

ومن أتى بكِ إلى هذهِ الجزيرة المهجورةِ ، وإلى أينَ تُريدينَ أن تذهَبى ؟!

أجابَت :

جاء بى نفرٌ من أَهْلِى ليبعدُونى عن المدينة التى فيها من أحِب . وأريدُ أن أعُودَ لأتقدَّم بظُلامتى إلى السُّلطان .

ثم بكَتْ ، وتوسَّلَت إليه أن يأخذَها معه . فرقَّ لها قلبُ الصَّياد وغلَب على ظنّه أنها من الإنس لا من الجنّ ، ووطّن عزمَه على أن يحملَها معهُ فى قاربه ، وينقلَها من هذه الجزيرة .

فقال لها : لا تبكى ، انزلى إلى المركب ، وسأذهبُ بكِ إلى حيث تريدين .

فنزلتِ الوردُ فى الأكمامِ إلى المركب ، وما استقرّت به حتى حوّل الصيادُ دفته ، وأسرع يبتعد عن الجزيرة .

وسار بهما المركبُ شوطاً بعيداً ، والوردُ فى الأكمام قريرةُ العين ، مسرورةٌ بخلاصها تحمَدُ اللهَ على نجاتِها ، ولكنَّ سُرورَها وفرحَها هذين لم يطولا ، فقد هبَّت على المركب ريح عنيفةٌ أفلتت زمامه من يد قائده وجعلته لا سلطان له على تسييره .

وظلَّت هذه الريح تدفعُ القارَب وتسيّرهُ حيثُما شاءت مدة ثلاثة أيام والوردُ فى الأكمامِ قابعةٌ به ، ترتعدُ خوفاً وفرَقاً . ثم هدأتِ الريحُ وسكتتْ ، فتولّى الصيادُ قِياد القاربَ واتجه بهِ نحو مدينةٍ لاحت له من بعيد .

وكانت هذه المدينةُ يحكمها ملكٌ عظيمٌ اسمه الملك درْباس ، وكان فى هذا الوقت يُشرِف هو وابنهُ من نافذة قصره المطلِّ على البحر ، فرأيا

الصَّيادَ وهو يقتربُ من مَرْسَى القصرِ ، ويُرسى فيه قارَبه . فقال الملكُ لابنه :

هيَّا بِنا نتريَّض بساحِلِ البحر ، ونَرَى : ما شأنُ هـذا الصيادِ الغريب ؟!

فنزلا من باب القَيْطُون ، واتَّجها إلى حيثُ رسا القارب ، وكان الصَّيادُ وقتئذٍ مشغولا بتثبيتِ القارب بالمِرساة ، وهو لا يَعلَمُ أن هَذهِ المرساةُ إنَّما خُصِّصت لقوارب ملِكِ المدينة ، وأن هذا القصرَ المشرف عليه قصرُه .

واقتربَ الملكُ من القارَب فرأى الوردَ فى الأكمامِ قائمةً فيه وكأنَّها البدرُ ليلة تمامِه ، وهى ترتدى ملابس فخمةً قيمةً ، فحارَ فى أمْرِها ، وأمْرِ هذا الصَّيادِ الذى تبدُو عليه علاماتُ الفقرْ .

وكأنما أحسَّت الوردُ فى الأكمام بالنظرات المصوَّبة نحوها ، ففتحت عينيها فأبصرتْ شخصاً قائماً إزاءها ، تبدو عليه الهيبة والأُبَّهة والوَقارُ ينظرُ إليها . فتلفتتْ حوْلَها ، فرأت المركبَ راسِياً أمام بناء عظيم شامخ ، ولم تقعْ عينُها على الصياد الذى كان لا يزالُ مشغولاً بتثبيت مركبه ، فارتجفتْ ، وفاضتْ الدُّموعُ من عَيْنَيها ، ونهضت قائمة .

فقال لها الملكُ :

يا بنية ؛ مَن أنتِ ؟! وما السببُ فى مجيئكِ إلى هنا ؟!

فأجابت :

أنا ابنةُ إبراهيمَ وزيرِ الملكِ شمَّاخ ، أما مجيئى هُنا فأمرُه عجيبٌ وشأنهُ غريب .

وأقبلَ الصَّيادُ ، فنظرت إليه الوردُ فى الأكمام ، كأنما تستفهمه : إلى أيْن ساقَها ؟!

فبادرَ الملكُ الصيادَ بقوله : من أينَ جئت ؟ ! وما شأنُ هذه الفتاةِ ؟!

فأجابَ الصَّيادُ ، وقد أدْرَكَ أن مُحدِّثهُ لا بُدَّ أن يكون شخصيةً ذات مكانةٍ بهذه المدينة :

يا سيِّدى إنى صيَّادٌ ، أجوبُ البحر فى طلبِ الرزقِ ، فساقتنى الصُّدفُ إلى جزيرةٍ مهجورةٍ لا يقربُها أحد ، فعثرتُ على هذه الفتاةِ سجينةً بها ، وتوسَّلتْ إلى أن أخلصها مما هى فيه ، وأصحبها معى لعلَّها تستطيع العودةَ إلى بلادها ؛ فهبَّت علينا ريحٌ عاصفةٌ جعلتنا نضلُّ الطريقَ ونصلُ إلى هذه المدينةِ التى لا نعرفُ لمن تكونُ ؟!

فقالَ الملكُ : لا بأسَ عليكما ! فأنا ملك هذه المدينة ، ولن ينالكما إلا الخيرُ . ولكن : حدِّثينى يافتاةُ عن سَبَبِ سجنِك هذا حتى نعمل على إنصافِك .

حينئذٍ قصَّتْ الورد فى الأكمام على مَسامعِ المَلكِ قصتها ، من بدايتها إلى نهايتِها ، والملك مُصغٍ إليها وقد شدَهَهُ العجبُ . فلما فرغتْ منها أحسَّت أنَّها قَدْ ألقت عن كاهلها حِملاً ثقيلاً ، فتنفَّست الصعداء ، وشعرت أن بردَ الرَّاحةِ ، وهدوء الاطمئنان ، وحلاوةَ الإيناس ،

تمشت فى جسمها ، ولا سيما أنها أيقنت أن الملك قد عطف عليها وأنه سيسعى إلى الأخذ بناصرها .

وكان ما شعرت به الورد فى الأكمام هو عين الحقيقة ، فإن الملك كان قد تأثر حقاً من قصتها ، وعول على مساعدتها . فقال لها :

يا بنية لا تخشى شيئاً ، فسأرسل أنا إلى الملك شامخ أرجو مساعدته فى هذا الأمر .

فجثت الوردُ فى الأكمام بين يدى الملك ، وقبلت طرف ردائه ، وهى تقول :

جزاك الله عنى خيراً يا مولاى .

فأنهضها الملك ، وقال لها : ادخلى إلى القصر ، فسنعد لك مكانا تقيمين فيه حتى يحقق الله لك ما تبتغين .

ودخلت الورد فى الأكمام إلى القصر ، وهى تشكر الله الذى قيض لها هذا الملك الكريم .

وكان هذا هو حال الصياد أيضاً إذ انصرف من لدى هذا الملك راضياً مغتبطاً بعد أن نال نفحة طيبة من المال لم يكن يأمل فى نوالها ، أو يخطر له هذا الخاطر يوماً على بال .

أما الملك فقد دخل من فوره إلى مجلسه ، واستدعى وزيره ، وقال له :

إنى أريد أن أرسلك إلى الملك شامخ برسالة ، وتعود لى فوراً بجوابها.

فقال الوزير : سمعاً وطاعةً ! وما هو مضمونها ؟ !

قال الملك : إننى أطلبُ مصاهرته ، وذلك بأن أُزوج ابنتى من شخص من أُصفيائه اسمه أنسُ الوجود . والجوابُ هو أن تأتى بأنس الوجود معك .

ثم أردف وهو يشير له بأصبعه محذراً :

وإياكَ أن تحضر بدونه ، ابذل فى سبيل ذلك كلَّ جهدك ، واعملْ كل حيلتك ، وإلا كان نصيبك عندى ما لا تحب ، وتنال منى ما تكره .

ثم أعطاه رسالةً مكتوبة ليسلمها للملك شامخ ، وأمره بإعداد هدية ، قيمة من جواهر ولآلئ يأخذها مَعهُ .

ووصل وزيرُ الملك درباسُ إلى قصر الملك شامخ يحمل الرسالة والهدية ، فقوبل من الملك بحفاوةٍ وترحيب .

ولما اطلع على رسالة الملك دِرْباس التى بعثها إليه ، لم يملك أن انحدرت على وَجهه دمعتان ، وتمتم كأنما هو يناجى نفسه :

أين أنت يا أنس الوجود ؟ ! وما هو يا ترى سِرُّ غيابك ؟ !

ثم قال للوزير :

إن من دواعى سرورنا واغتباطنا أن نجيب أىَّ مطلبٍ يطلبه الملك دِرْباس منا ، ولكن ، كم يحزُّ فى نفسى ألا أستطيعُ إجابته إلى هذا المطلب على رغمى .

فأنس الوجود غائبٌ ولا نعرف سرَّ غيابه ، مختفٍ ولا نعلم علّة اختفائه . أمرت بالبحث عنه ، ولكن لم يأتنى ما يشفى الغليل .

فوجم الوزير ، وتكدَّرتْ نفسه ، وعبس وجههُ ، وقال للملك :

وما العمل يا مولاى ؟ فإنى لا أستطيع أن أضع قدمى فى بلادى إلا وأنس الوجود معى .

فقال الملك :

سأكتب للملك درباس بحقيقة الأمر ، وجَلية الخبر ، فإن الأمر ليس فى يدنا ولا فى يدك ، فلا لوم ولا تَثرِيب عليك .

فقال الوزير وهو يهز رأسه غير مقتنع :

نعم ، إنه لا حيلة لنا فيما كان ، ولكنى الآن لابد أن أحتال حتى أعثر عليه ، فَمُدَّنى يا مولاى بما يرشدنى عن أوصافه ، ويُعيننى على البحث عنه ، وإنك إن فعلت ذلك أسديت إلىَّ يدًا كريمةً ، وقدَّمتَ لى جميلا لن أنساهُ .

فقال الملك :

وهل تظننى أقصر فى البحث عن أنس الوجود ، أو أُمسِك يدى عن إعانة من يُريدُ البحث عنه ، دونَك وزيرى إبراهيم ، اصحبه معك للبحث عنه ، فهو يَعْرفه حقَّ المعرفة ، واصطحِبا معكما من يُعينُكما على هذا الشأن من رجال ، وما تحتاجان إليه من زادٍ ومال .

وأمر الملك وزيره باصطحاب وزير الملك درباس ، والخروج للبحث عن أنس الوجود .

فخرج الوزيران ومعهما جماعةٌ من الأتباع ، فجابوا البلادَ من أقصاها لأدناها يبحثون وينقبون ، يسألون ويستفهمون ، دون جدوى ، فما عثروا لأنس الوجود على أثر ، ولا دَلهم أحدٌ على خبر .

والوزيران على رغم ما نالهما من التعب والنَّصب والمشقَّة لم يَكلاَّ ولم ييئسا .

فالأولُ يعرف أنه لَنْ تكون له حياةٌ طيبة يرتجيها فى وطنِه وبين أهله دون أن يَعثُرُ على أنس الوجود ويعود به إلى مليكه .

والثانى يعرف أن معنى العثور على أنس الوجود و إرساله إلى الملك ، درباس ، راحةٌ لنفسه ، وأمانٌ لابنته .

لذا كان مَسْعَاهما جدّيا ، وبحثهما شاملاً ، تحفزهما رغبة أكيدة ، وتدفعهما عواملُ نفسية .

ولمَّا طال بهم جميعاً كثرةُ الطَّواف ، أشار نفرٌ من الأتباع على الوزيرين بالذهاب إلى جبل الثكلى .

فعبس الوزير إبراهيم لهذا الرأى ، وعارض فيه خوفاً من معرفة سر ابنته الورد فى الأكمام ، ولكنه فجأة خطر بباله خاطر :

أيكون أنس الوجود حقاً بجبل الثكلى ؟ !

أيكون قد عرف مقر ابنته وتبعها ؟ !

أيكون هذا سرُّ اختفائه ؟!

يا للهَول !! وطاش صوابُ الوزير ، وأمر فى الحال بشد الرِّحال إلى جبل الثكلى .

وأعدُّوا مركباً لهذا الغرض أقلَّهم جميعاً إلى الجزيرة .

وما إن وَصلوا حتى تقدم الوزير والد الورد فى الأكمام إلى القصر ، وطرق بابه ، ففتحه أحدُ الخدم ، فلما عرفَ فى الطَّارق سَيِّدَه فرح ورحَّب به ، ودخلوا جميعاً إلى ساحة القصر ، وسأل الوزيرُ الخادمَ فى سِرٍّ من أصحابه :

كيف حالُ سَيِّدَتِك ؟

فوَجَم الخادم ولم يُحِرْ جواباً .

فانقبَض قلب الوزير ، ودخل القصرَ ، وسأل الجوارى عن ابنته ، فقلنَ له : إنها اختفت ، ولم يُجْدِ البحثُ عنها نفعاً ، وأرينْهُ سُيور الأقمشة التى فرَّت بها ، وهى لاتزالُ مربوطةً فى مكانها من جدار القصر الخلْفى .

فكاد الرجُل أن يُصعق ، وتنفطر مَرَارتُه من شِدَّة القهر والغَضبِ وغَشيه حُزنٌ قاتلٌ ، ونزل من أعْلى القصر وهو يُتمتمُ قائلا :

لا حيلةَ فى قضاء الله ، ولا مفرَّ مما قدَّره وقَضاه ، ولا ينفعُ الحذرَ فيما خطَّه القدر .

وفاضت به شُجونه ، فلم يتمالك غير التصفيق بيديه ، وضربِ كفٍّ بِكَفٍّ تارَةً ، وعَضِّ الأصابع ، والجزِّ على الأنياب تارة أخرى .

فسأله وزيرُ الملك درباس : مابهِ ؟! وما غيرَّ حاله وقلب كيانه ؟!
فقصَّ عليه طرفاً من قِصة بنته الورد فى الأكمام .

فالتفَّ حوله وزيرُ الملك درباس والأتباع والخدمُ يواسُونهُ فى محنته ، ويُخففُون عنه مُصيبته .

ولما سَكنَ غضبُ الوزير بعضَ الشيء سأل الخدم :

ألم يأتِ إلى هنا أحد ، أو ينزل بالجزيرة إنسانٌ ؟

قالوا :

لم يأتِ إلى هنا إلاَّ هذا الرجُلُ المجذوبُ ، قذفه البحرُ بعد أن أغْرق المركَبَ الذى كانَ مُسافراً عليهِ ، وموطِنهُ أصبهان .

وأشارُوا إلى أنس الوُجُود ، وكان قابعاً بجوارِ جِدار البستان ، مُشعَّث الشَّعر مُغْبَرَّ الوجْه ، ذاهِلاً عما يَدور حوْلَه .

فمرَّته عينُ الوزير ، ولكنه لم يفْطِن إلى أنه أنس الوجود لتغيُّر حالِه .

وأمرَ الخدم والأتباع بالخرُوج إلى الجزيرة ، ومُعاودة البحث عن الورد فى الأكمام ، فامتثلوا أمرَه ، ولكن ذهبت الجهودُ هباء .

فجُن جُنونُ الوزير ، وثارتْ ثائرتُهُ ، وخرجَ ينقِّبُ عن ابْنتِه فى أرْض الجزيرة ، ويبحثُ فيها شِبرًا شِبرًا ، وهو يندُبُها ويبْكيها ، عائداً باللَّوم على نفسِهِ ، لتعَسُّفه معها ، وظُلمِه إيَّاها .

ولما رأى وزير الملك درباس اشتغال رفيقه بالبحث عن ابنته ، وأنه لا جدوى من بقائه ، ولا أمل له فى العثور على أنس الوجود — استأذن

من الوزير إبراهيمَ فى العودة إلى بلاده ، ثم قال يومِئ إلى أنس الوجود :

وأريد أن أصحبَ هذا الفقيرَ المسكين معى ، فأوصِّله إلى بلاده أصبهان حيث هى قريبة من بلادنا ، عسى الله أن يحل بنا من بركته ، فيعطف علىّ قلبُ الملك ، ولا ينالنى غضبه .

فقال الوزيرُ إبراهيم : نِعْمَ ما تَفعل ، ولك المثوبة على ذلك عند الله.

كان وزيرُ الملك درباسَ يلحظ حالة أنس الوجود فيرقُّ له ، ولحظ أن هذا الولىّ المجذوب المذهول ، جَذْبَتُه غشية ، وذهوله حرمانٌ من شىء لا يعرفه أحد ، وأنه مريض بائس لاحول له ولا قوة ، لا يجدُ من يعنى بخدمته ، ولا يأبه لحاله ؛ فأراد أن يصحبه ليوصله إلى أهله وبلاده .

وكان ما لحظه الوزير على أنس الوجود من العوارض حقيقةً لا افتعالا ، فلم يكن انزواؤه عن رغبة ، ولا ذهوله عن تصنُّع وقصد .

كان قد أصابه ما أصابه عقب علمه بفقدان الورد فى الأكمام ، وبعدم العثور عليها ، صدمته الصدمة فأذهلته ، وغشية الغشية فتركتْه لا يفقه أمرًا ، ولا يعى شيئًا ، وكان كلما مرَّ عليه أحد ممن فى القصرِ ، يظن أنه مستغرق فى عباداته ، هائم فى ابتهالاته ، فينصرفُ عنه ولا يزعجه ، ولا سيما أن الجميع كانوا مشغولين بسيِّدتهم .

فلما أعد وزير الملك درباس نفسه للسفر ، وذهب أتباعه لاستدعاء أنس الوجود لمرافقتهم وجدوه فى غشية فحملوهُ إلى المركب ، ثم إلى ظهورِ البغال وهو على ما هو عليه لا يحس ولا يعى .

فوكل الوزيرُ به واحدًا من خدمه ، يلاحظه ويعنى به أثناء الطريق حتى يفيق وبعد ثلاثة أيام من السير جاء الخادم إلى الوزير وقالَ له :

لقد أفاق ، ياسيدى ، الرجلُ المريضُ .

فقال الوزيرُ :

اسقُوه ماء السكر ، وأنعشوه بماء الورد .

وانتبه أنسُ الوجود بعض طول غشية ، وأفاق بعد طول سُبات ، فتح عينيه وتلفت حوله ، فوجد نفسه فوق محفَّة يحملُها بغل ، وتظلها مظلة تقيه وهَج الشمس . فسأل فى صوت خافتٍ متهدِّج :

أينَ أنا ؟ !

فقيل له :

فى صحبة وزير الملك درباس .

فقال :

ولماذا ؟ !

قالوا :

ليوصِّلك إلى بلادك أصْبهان .

قال :

لاحولَ ولا قُوة إلا بالله ! !

ثم تذكَّر ما مرَّ به ، وما كان فيه ، وما لاقاهُ وقاساهُ ؛ فقال :

احملونى إلى الوزير الكريم ، الطيب القلب ، الكريم النفس .

فقالوا :

سنذهبُ بك إليه عند ما نحطُّ الرّحال .

وكان الركبُ قد أشرَف على حدودِ مدينة الملك دِرباس ، وطارت الأنباء إلى المدينة تُنبئه بقرب وُصول الوزير ؛ فأوفد رسولا لملاقاته ، وزوَّده بكتاب يقول فيه :

إذا كنت قد أتيتَ بأنس الوجود نخفّ لمقابلتى ، وإن لم تكن فعد من حيثُ أتيت ، فإنى صممتُ ألا ألقاك إلاّ به ، فاختر لنفسك .

فلما قرأ الوزيرُ رقعة الملك شقّ عليه الأمر ، وضاق به الحالُ ، وتحير فيما يفعل ، وإلى أين يتجه ؟ ! !

فأمر بالكفّ عن المسير ، حتى يتدبر الأمر ، ولعلّ الله يَهديه إلى رأى يرضى به الملك ، ويكسب به عطفه .

فنزلَ الرّفاق ، وأقاموا مخيمين : أحدهما لسيدهم ، والآخر لهم .

وفيما الوزير جالسٌ فى خيمته ، وقد ضاقت به الدنيا ، وانسدت فى وَجهِ السُّبل ، يُفكر فى هذا الأمر الذى لا حيلة له فيه ، وفى مُعاقبة الملك له فى ذنب لم يجنه — دخَل عليه أنسُ الوجود ناحلا ذابلا ، ضامر الجسم يجر قدميه جرًّا ، وكأنما يقتلعهما من الأرض اقتلاعا .

ولم يكن الوزير فى حالة نفسية تسمح بمقابلته أنس الوجود ، ولا بسؤاله عن حاله ، فأراد إقصاءه عنه وصرفه ، ولكنه عاد فتمهل ، ودعاهُ إلى الجلوسَ ، لما رأى على وجهه من خطوط الألم ، وتباريح العذاب .

وسأله عن حاله وعما يُعْوِزُهُ .

فقال أنس الوجود :

إننى لا يعوزنى شىء يا سيدى . فقد غمرتنى بفضلك ، وحبوتنى بعطفك ، ولكن لماذا اصْطَحَبتنى معك ؟ ! وإلى أين تذهب بى ؟ !

فقال الوزير :

اصطحَبتك لما رأيتُ من مَرَضك وضعفك ، فأردتُ أن أعود بك إلى بلادك حيث هى قريبة من بلادى .

فقال أنسُ الوجود :

وأينَ هىَ بلادُكم يا سيِّدى ؟

فقال الوزيرُ ، وقد طَفَرَتْ من عينيه الدموعُ فلم يقوَ على حَبسها :

إننا على حدُودها ، ولكنّنى لا أملِكُ أن أدْخُلها .

فتعجب أنسُ الوجود لِقولِ الوزيرِ وسألهُ :

ولماذا ؟ !

قال : لأنّ الملك ناطَ بى قضاء حاجةٍ ، فلم تُقضَ ، وهو يُحرّم علىّ دخُولَ المدينةِ إن لم أقْضِها ، وقد بذلت فى سبيلِ ذلك جهدِى ، وما وسِعتْ حيلَتى ، فلم أظفرْ بها .

فقال أنسُ الوجود :

وما هِى ياسيِّدى حاجةُ الملك ؟ !

نظرَ إليه الوزيرُ تبدوُه عينه ، ويقتحمُه نَظَرُه ، وكأنه تحُدثه نفسه :

ما لِهذَا البائس المسكين وما طلبَ مِنى الملك ؟! ولكنْ : يضع الله سرَّه في أضعف خلقه ، فلَعلى أجدُ عنده مخرَجاً !

فقالَ له : سأخبرُك خبرِى ، وأقصُّ عليك قصَّتى ، عَلَّنى أجدُ عندكَ ما يُزيل غَمِّى ، ويفرِّجُ كرْبى .

وأخبر وزيرُ الملكِ أنسَ الوجود بخبرِه ! وقصَّ عليه قصَّته ! وأعلمه ألاَّ حياةَ له إلا بعد عُثورِه على أنس الوجود ، ولا عودَةَ له إلى وطنه إلا باستصحابه .

فقال أنسُ الوجود :

لا تخْش شيئاً ، خُذنى معك إلى الملك ، وأنا أضْمَنُ لك مجىء أنس الوجود .

فنظر إليه الوزيرُ نظرةَ المتَشكِّك ، وقال :

ومن أينَ تأتى به ، وقد بحثتُ عنه أنا وأعوانى في كلِّ مكانٍ ، حتى في جَبَل الثَّكْلى ، فلم نقفْ لهُ على أثر ؟

قال : سترى إن شاء الله .

ولكن الوزير لم يقتنع ، وقال :

أحقٌّ ما تقول ؟!

قال :

نعمْ ، وأقسِمُ لك يا سيِّدى إنَّه حق .

فتهلّل وجه الوزير ، ونهض فأصدر أمره لِرجاله لِلتأهُّب للمَسير والدخول إلى المدينة .

ثم قال لأنس الوجود : هيَّا بنا ، وإيَّاكَ وأن تُسوِّد وجوهَنا .

وصل الوزير وأنسُ الوجود إلى المدينة ، واستأذن الوزيرُ على الملك ، فلما مثَل بين يديه ، قال الملك لوزيره :

أين أنس الوجود ؟

فقال أنس الوجود :

يامولاى ؛ أنا أعرف أين أنس الوجودِ ! ! وأنا كفيل بإحضاره إليكم متى عرفتُ السبب فى طلبه .

حينئذٍ أمر الملك بإخلاء القاعة ، وانفرد بأنسِ الوجود ، وقرَّبه منه ، وأخبره خبر الورد فى الأكمام .

وانتهى الملك من حديثه ، فانتهت معه آلام أنس الوجود ومتاعبه ، وزالت عنه أحزانه وأتراحه ، وعمر قلبه بالابتهاج والفرح ، وفاض وجهه بالسرور والبشر ، وانبعثَ فى نفسه الحياةُ والأمل .

وقال للملك :

ائتنى بثياب فاخرة وأنا آتيك بأنس الوجود .

فأمر الملك لأنس الوجود بحلَّة كاملة من أفخر الدِّيباج .

فأخذها أنس الوجود وانتحى ناحيةً ، ثم ارتداها ، وخرج إلى الملك أنيق البزَّة بهىَّ الرَّونق لولا ما يشوبه من نحولٍ وذبول . وقال له :

هأنذا ياسيدى الملك ! ! أنا طَلِبتك ، أنا الذى طوَّف وزيرك عليه ما طوَّف ليعثر عليه فلم يجده ، أنا أنسُ الوجود .

ونظر إليه الملك فى دهشة سرعانَ ما تحولت سروراً وإعجاباً ، وقال :

أنت أنسُ الوجود ؟ ! أحقا تقولُ ؟ !

أجاب :

نعم يامولاى ، فما أقول غير الحقّ .

فأراد الملك أن يستوثق من ذلك ، فسأله عن خبره وحاله ، فقص عليه قصته وذكر له خروجه للبحث عن الورد فى الأكمام ، وما جرى له ؛ فتأكد الملك أنه هو ، وقال له :

إنك لأهل للورد فى الأكمام ، وإن الورد فى الأكمام لأهل لك .

فقال أنس الوجود :

وأين هى الورد فى الأكمام يامولاى ؟ ! ومن لى بها وقد ضنيت من أجلها ؟ !

قال الملك :

هى هنا فى قصرى ، وسأرسل الآن فى طلب القاضى والشهود ليعقد لك عليها فى الحال .

وأمر الملك بحضر القاضى والشهود ، وكبار رجال الدولة ، وعقد لأنس الوجود على الورد فى الأكمام ! !

وأرسل الملك رسولا إلى الملك شامخ يخبره بما تمَّ على يديه .

وما كاد الملك شامخ يلم بمضمون رسالة الملك درباس ، حتى شمله فرح وسرُورٌ .

كان فرحًا شاملاً ، وسرورًا مزدوجاً ، أن يتلقى نبأ المثور على عزيزين أثيرين عنده هما : أنس الوجود والورد فى الأكمام .

وأرسل من فوره إلى أبيها الذى كان فى حالة يرثى لها منذُ عودته من جبل الثكلى يزفُّ إليه النبأ .

أما رَدُّه على رَسول الملك درباس ، فكان هدايا قيمة ، وأحمالا كثيرة ، أرسلها إليه إعلانًا لشكره له ، واعترافًا بفضله ، مصحوبة برسالة جاء فيها :

« ياأخى ! حيث إن العقد كان عندك ، أرجو أن يكون الفرح عندى » .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى يد الملك درباس ، قال : لا بأس فى ذلك .

وأمر من فوره فأعدتْ الهدايا للملك شامخ ردًا على هداياهُ ، كما جهز لأنس الوجود والورد فى الأكمام من الطرائف واللطائف مايشتهيه كلُّ عروسين .

وسار ركبُ أنسِ الوجودِ والوردِ فى الأكمامِ من مدينةِ الملك درباس إلى مدينتهما تصحبه ثلة كبيرةٌ من الفرسان .

وكان يوم وصولهما إلى المدينة يوماً مشهوداً ، لم ير أهلها يوماً أعظمَ ولا أجمل منه ، فقد أقام الملك لذلك الاحتفالات والمهرجانات ، ونصبتْ السُّرادقات ، وأقيمتْ الخيام ، ورفعتْ الراياتُ ، ونشرتْ الأعلام ،

وأضيئت الأنوارُ ، ومدت الموائد ، ووُزِّعتْ الهباتُ والصَّدقات . وصدحت الموسيقا ، وتبارى فى الإجادة أهلُ الفنِّ والغناء ، واستمرَّتْ المدينةُ فى هذا الحلم المرِح الجميل بضعة أيام ، زفت فيها الوردُ فى الأكمام إلى أنس الوجود .

وقال الوزيرُ لابنتِهِ وزَوجها ، وهو يزورهما يوماً بقصرهما ، آسفاً :
سامحانى يا وَلدَىَّ ، لقد كنتُ قاسِياً عليكما ، فحملتكما بقسوتى كثيراً من المتاعب والآلام .

فقالت له ابنته ، وهى تمسك بيده تربِّت عليها ، وترنو إلى زوجها بنظرة حُبٍّ وإعجاب :

لا تقلْ ذلك يا أبتِ ، لقد أنْسَتْنا ثمرةُ الأفراح كلَّ ما فات ، فما يكونُ فَرَحٌ إلاَّ بعد شِدَّةٍ ، ولا يُشْعرُ براحة إلا بعد تعبٍ ، ولا تتمُّ سَعادةٌ إلا بعد شقاء .

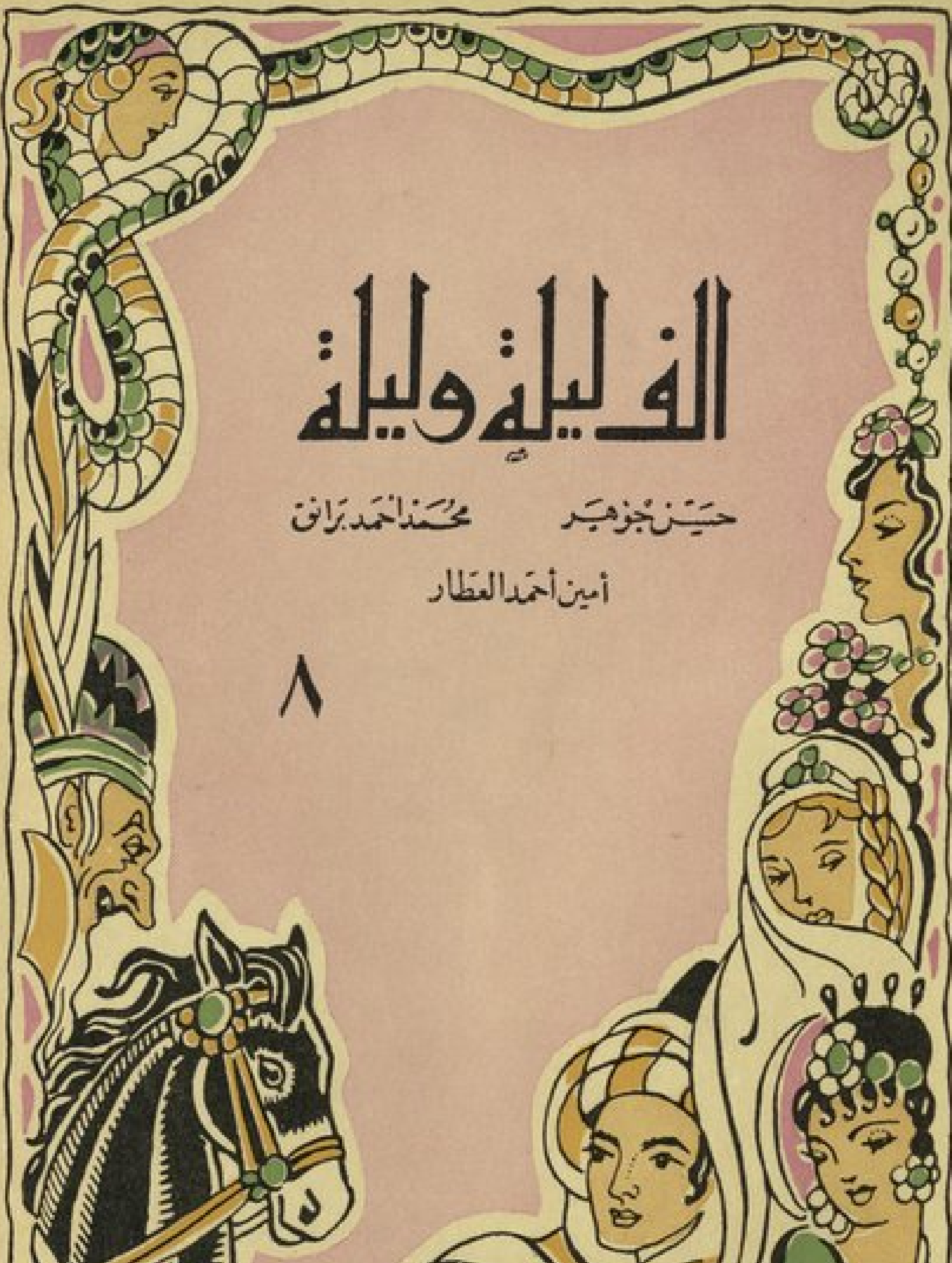

ألف ليلة وليلة

محمد أحمد برانق حسين جوهر

أمين أحمد العطار

٨

دار المعارف بمصر

ألف ليلة وليلة

الجزء الثامن

١ – حاسب
٢ – علي نور الدين ومريم الزنارية
٣ – كيد النساء وكيد الرجال
٤ – أبو الحسن وجاريته تودد

ألف ليلة وليلة

كتبه

حسن جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

حاسب

(١)

الحكيمُ دانيالُ ذاع صيتُه ، وكثر تلاميذه ، واشتهر أمره ؛ وكان حكماء زمانه يحضُرون درسَه ، ويستمعون َ له ، ويعوِّلون عليه .

لم يُرزَق هذا الحكيمُ ولدا ، وكان دائماً مشغولَ البالِ كثيرَ التفكير ، ويتمنّى أن يرزقه اللهُ ولداً يرثُ علمه وحكمتَه من بعده ؛ وكان كثير الدعاء لله أن يرزقَه ولداً يخلفُه من بعده ، فاستجابَ الله دعاءه وحملتْ زوجته .

ولأمرٍ من الأُمور خرجَ فى سفرٍ ؛ فركبَ البحرَ ، ومعه كتبه ، وبعد أن سار بهِ المركب بعيداً طغتْ عليه الأمواجُ ، وصارت تتقاذفه من مكانٍ

إلى مكان ، حتى اصطدم فى صخرةٍ فحطمته وغرق ، وغرقَتْ معه كتبُ الحكيم دانيال ، ولم ينج منها إلا خمسُ ورقاتٍ كانت فى جيبه .

سبح الحكيمُ دانيال فى الماء حتَّى وجد لَوْحا من ألواح المركب ، فأمسك به ، وجلسَ عليه ؛ وصار الموجَ يدفعهُ إلى هنا وهناك حتى انتهى به إلى الشاطئ ، فحمد الله على السَّلامة وعادَ إلى بيته .

وبعد قليلٍ جاء بصندوقٍ من الخشب المتين ، وصنع له قُفْلا ، ووضع فيه الأوراق الخمس وقال لزوجته : اعلمى أنه قد قربتْ وفاتى وأنتِ حامِل ، وربما تلِدين بعد موتى صبيًا ، فإذا ولدتهِ فسميه حاسباً كريم اليدين ، وربّيه أحسن تربية ؛ فإذا كبِر وقال لك : ما خلّفَ لى أبى من الميراث ؟ فافتحى هذا الصُّندوق ، وأخرجى الورقاتِ الخمسَ التى وضعتُها فيه ، وأعطيه إياها ، فإنه إذا قرأها وفهم معناها فسيصير أعلمَ أهلِ زمانه .

ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى مرضَ الحكيم دانيالُ ، واشتدتْ عليه العِلة ، فماتَ : فبكاه أهلُه وأصدِقاؤه وتلاميذه .

(٢)

أتمتْ زوجة الحكيم دانيال أشهرَ حملها ، ثم وضعت مولوداً مليحاً ، وسمتهْ حاسباً كريم اليدين ، كما أوصاها أبوه .

وبعد أيام أحضرت المرأةُ المنجمِين ، ليحسِبُوا طالع ابنها ، فلما حسبوه قالوا لها :

أيتها السيدة؛ إن مولودك هذا سيطول عمره، ويعيشُ أياماً كثيرة؛ وستصادفه في أول حياته شدائدُ وأهوالٌ، سينجيه اللهُ منها، ثم يؤتيه بعد ذلك علمَ الحكمةِ، ومَنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً.

أرضعت الأم ابنها حولين كاملين، وبعد أن أتمت رضاعه فطمته، ثم تعهدته حتى بلغ خمسَ سنين، وأرسلته إلى صانع ليعلمه صنعةً يكسبُ منها رزقه إذا كبر، فلم ينجح، وكان كلما أرسلته إلى جهة ليتعلّم فيها يرجعُ إليها خائباً؛ فتبكي، وتندبُ حظها، وتشكو إلى الناسِ همَّها.

فلما كبر اقترحَ عليها الناسُ أن تزوجه، لعله يحملُ همَّ زوجته، ويتخذ له صنعةً يكسب منها رزقه ورزقها؛ فأعجبت أمَّه هذه الفكرةُ، وخطبتْ له بنتاً، وزوجته بها؛ ومع ذلك فإنه لم يتغير، ولم يحاولْ أن يعمل عملا يتكسبُ منه شيئاً.

وكان لهم جيرانٌ حطّابون، مطّلعون على حالهم؛ فأتَوْا إلى أمّه وقالوا لها: اشتري لابنك حماراً وحبلا وفأساً، وأْمُريه أن يخرجَ معنا إلى الجبل، فنحتَطِب نحن وإياه، وإذا عُدنا إلى المدينةِ وبعنا الحطب نقسم ثمنَه بيننا وبينكم.

حينما سمعتْ أمُّه ذلك الكلامَ من الحطابين، فرحت فرحاً شديداً، وخرجَتْ إلى السوق، واشترت لابنها حماراً وحبْلا وفأساً، ثم أخذَتْه وتوجهتْ به إليهم، وسلمتْهم ابنها والحمارَ والفأس والحبلَ، وأوصتهم به خيرًا؛ فقالوا لها:

لا تحملي همَّ هذا الولَد ، والله يرزقنا وإياه ببركة روحِ أبيه .

خرجَ الحطابون ومعهمْ حاسب كريم اليدين إلى الجبلِ وجمعُوا الحطَب ، وحمّلوا حميرهم وحماره ، وعادُوا إلى المدينةِ ، وباعُوا الحطبَ ، واقتسموا ثمنه ، وأنفقَ منه كريم اليدين على نفسه وأمّه وزوجته وحماره .

ظل كريم اليدين وزملاؤُه الحطابون يخرجونَ كل يومٍ إلى الجبلِ يحتطبون ، ثم يعودون آخر النهار ، فيبيعون ما جمعوا من الحطب ، ثم يقتسمون الثمن ؛ ومضى عليهم مــدةٌ طويلة من الزمان وهم على تلك الحالِ .

وذاتَ يوم كانوا مشغُولين بجَمْع الحطب ، فانتشر السحابُ في السماء ، ثم لمع البرقُ ، ورعد الرعد ، وأظلمت الدُّنيا ، وهطل مطرٌ غزير ؛ فبحثوا عن مكانٍ يلجئون إليه ، ويعصمُهم من المطر ؛ وظلُّوا يبحثونَ هنا وهناك ، حتى رأوْا مَغارةً عظيمة ، فأسرعوا إليها ، ودخلوا فيها ؛ وكانت المغارةُ من الداخل فسيحةً ، فأخذ كريمُ اليدين يتمشَّى فيها ، حتى وجد حجراً جلس عليه ؛ وأخذ يَلعبُ بفَأسِه ، ويضرب بها الأرض من حَوله ، فدله حسُّ الأرضِ على أنها خاليةٌ من تحتِ الفأس ، فعرفَ أن في هذا المكانِ فجوةً مغطاةً بحجَرٍ ، فأخذ يحفرُ حتى رأى بلاطةً مدوَّرةً في وسطِها حلقة .

تأكد كريم اليدين أن تحتَ هذا الحجر شيئًا ؛ ففرِحَ ، ونادى زملاءه الحطابينَ ، فحضروا إليه مُسرعين ؛ فلما رأوا تِلك البلاطةَ سارعُوا إليها ، وتعاونُوا على خَلعها من مكانِها ، فخلعوها ، ثم نظروا تحتَها فوجدوا

بابًا ، ففتحُوا البابَ ، فرأوا تحتهُ جُبًّا مملوءًا عسلاً شهداً .

نظر الحطّابُون بعضهم إلى بعض ، وفرحُوا بهذا الرِّزق الذى ساقهُ الله إليهم على يَدَىْ كريم اليدين ، واتفقُوا على أنْ يعودُوا إلى المدينة ، ليُحضروا أوعيةً يعبّئون فيها العسلَ ، وينقلونَه إلى المدينةِ ويبيعونه بمالٍ كثيرٍ يقتسمونه.

وخشيَةَ أنْ يعثرُ أحدٌ غيرُهم على هذا الجبّ ، رأوْا أنْ يتخلف بعضُهم عند العسلِ لحراستِه ، ويروحَ الباقُون إلى المدينةِ لإحضارِ الأوعيةِ ؛ فقال كريم اليدين :

أنا أقعدُ هنا ، وأحرُس العسلَ حتى تروحوا وتأْتُوا بالأوعيةِ .

انقطعَ المطرُ ، وصحا الجوّ ؛ فخرَج الحطّابون إلى المدينةِ ، وتركوا كريم اليدين علَى باب المغارةِ يحرسُ العسل .

وعاد الحطابون بالأوعية إلى كريم اليدين ، وعبّئوها عسلا ، ووضعوها على حميرِهم ، ورجعوا إلى المدينةِ ، وباعوا العسلَ ؛ وكانوا يخرجون كلَّ يومٍ إلى الجبّ بأوعيتِهم ، ويملئُونها عسلا ، ثم يعودُون إلى المدينةِ ، ويبيعون العسَل ، ويَبيتُون فيها ؛ ثم يعُودون فى صَباح اليوم الثانى إلى الُجبّ ، ويحملون معهم لحارس الُجبّ ما يكفيه من طَعام وشراب .

وذات يومٍ قال بعضُ الحطابين لبعضٍ :

إن الذى لَقِىَ جبّ العسل كريم اليدين وسيعود إلى المدينةِ قريبًا أو بعيدًا ، ويدَّعِى أنه صاحبُ الجبّ وأنه صاحبُ العسل ، فهو أحقُّ بثمنِه منا ، ويكتفى بأن ينزلَ لنا عن أجرِ حمله إلى المدينة ، وبيعِه للناس ،

ويأخذ هوَ الباقى ، ولا مخلصَ لنا من ذلك إلا أن نُنزِله فى الُجب ليعبئَ لنا الأوعية ، ثم نتركه فيه ، فلا يجدُ من يخرجهُ ، فيموت ، ولا يدرى أحدٌ .

اتفق الحطّابون على هذا الأمرِ ، ثم ساروا إلى الجبّ وهم مصمّمون على تنفيذهِ ، فلما وصلوا إليه قالوا له :

يا كريم اليدين ؛ انزلْ إلى الُجب ، وعبّئْ لنا العسلَ الذى بقِىَ فيه ؛ فسمع كلامهم ونزل فى الُجبّ وعبّأ العسل الذى بَقى فيه ، واستخرجوا الأوعيةَ بالحبال كما كانوا يفعلون ؛ فلما انتهى قال لهم :

اسحبونى فما بقى فى الجبّ شىء .

فلم يَرُدَّ عليهِ أحدٌ منهم ، وحمّلوا حَميرهم ، وعادُوا إلى المدينةِ ، وتركوه فى الُجب وحده يبكى ويستغيث .

أما الحطابون فإنهم عادوا إلى المدينةِ وباعوا العسلَ ، وتوجّهوا إلى أمّ حاسب كريم اليدين وهم يبكون ، وقالوا لها :

عزاؤُنا لكِ فى ابنْك !

فجزعت أشدَّ الجزع ، وقالت لهم :

ما سبب موته ؟! قالوا : كنا فوق الجبلِ ، فأمطرت السماء ، فأوينا إلى مغارةٍ نحتمى فيها ، فلم نشعر حتى وجدنا حمار ابنك قد هربَ فى الوادى ، فذهب يجرى خلفه ليردَّه ، وإذا بذئبٍ كبيرٍ قد خرج وافترسهُ ، وأكل الحمار ؛ وكنا فى انتظاره ، فلما تأخرتْ عودته ، خرجنا نتفقده ، فرأيناه على هذه الحالة ، فرجعنا جزعين .

فبكتْ أمُّه وأعولت ، ولطمتْ وجهها ، وحثَت الترابَ على رأسها ، فأحاطَ بها جيرانُها يواسونها ، ويخفِّفون عنها بعضَ ما بها

وذهبَ الحطّابون ففتحوا لهم متاجرَ ، وتحسنتْ حالتُهم ، واتفقوا فيما بينهم على أن يحملوا إلى أمِّ كريم اليدين ما تحتاجُ إليه من طعامٍ وشرابٍ .

وبينما حاسِب جالس فى الُجبِّ يفكر فى مصيره المظلم ، وفى كيفيةِ الخلاص ممَّا هو فيه — إذا بحشرةٍ تدِبُّ عليه فتعجَّبَ من وجود هذه الحشرة ، فقام وصار يختبر جُدرانَ الُجبِّ ، فعثر بمكان هَشٍّ ، وما كاد يُعمل فيه سِكينا كانتْ معه حتى فُتحتْ له كوّة نفذ له منها شىء من نور ، فدبَّ الأمل فى نفسه ، وعملَ جاهداً على توسيعها ، فما لبثَ إلا قليلا حتى صارت الفجوةُ واسعةً تتسع لمرورِه ، فخرج منها ، وإذا به فى دِهليزٍ طويلٍ ، فمشى فيه ، فوجدَ بنهايتِه بابا كبيرًا من حديد أسود ، وعليه قفلٌ ومفتاحٌ ، فاقترب من البابِ ، ونظر من خِلالِه ، فرأى نورًا ساطِعا ، فأيقن بالنَّجاةِ ، ففتح البابَ بالمفتاح ، ونفذَ منه إلى الخَارج ، فوجد نفسه فى فضاءٍ واسعٍ ؛ فسارَ يتفقدُ المكانَ ، حتى أبصر على بُعدٍ منه شيئاً يلمع ، فظنَّه بحيرة ماءٍ ، فسار متجهاً إليها ، فإذا هى تلٌّ من الزَّبَرْجدِ الأخضر ، نُصبتْ عليه مِنصّةٌ من الذهب اللامع المرصّع بأنواعٍ مختلفةٍ من الجواهر ، وحول تلك المنصّةِ نصبتْ كراسى كثيرةٌ جداً ، بعضها ذهبٌ ، وبعضها فضةٌ ؛ فتعجبَ مما رأى ، وصعِد إلى تلك المنصةِ ، وجلسَ يتأمَّلها معجباً من

أمرِها ، وأمرِ هذه الكراسيّ التي لا يوجدُ بقربِها أحد .

وبعد قليلٍ غلبه النومُ من شدة ما قاسى من التعبِ ، ولم يكد يغرقُ في نوم عميق حتى انتبهَ مذعوراً على صوتِ هَرْجٍ ومَرْجٍ ، وفحيح وصفير ؛ وإذا بهذه المقاعد الكثيرة التي كانت تملأ الساحة قد اعتلتْ كل مقعدٍ منها حيةٌ عظيمةٌ ، تتوقّد عيناها توقُّد الجمْرِ ، فخاف خوفاً شديداً ، وارتعدَ جسمُه ، وجفّ ريقُه ، والتفتَ حوله فرأى جميعَ الساحة وقد امتلأتْ بحياتٍ أخرى صغيرة ، فأيقن بالهلاك وأنه ما نجا من هلاكِ الجُبّ إلا ليموتَ ميتةً أشنع وأهوَل .

وفيما هو كذلك لا يَسْتطيعُ حراكاً ، رأى حيةً كبيرةً مثل الجملِ ، قد أقبلتْ إلى وسَط المكان ، وعلى ظهرها طبقٌ من الذهبِ ، وفوق هذا الطبق حيةٌ تضيء مثل البلور ، ووجهُها وجهُ إنسانٍ . فلما اقتربتْ من « حاسب » سلمتْ عليه بلسانٍ فصيحٍ ، فردّ عليها السلام بصوتٍ يرتعشُ .

ونهضتْ حيةٌ فرفعت الطبَق عن ظهرِ الحيةِ الكبيرةِ ، ووضعتْه على أحدِ الكراسي .

فصاحت الحيّةُ التي كانت بالطبق بصوتٍ عالٍ ، فخرّت جميعُ الحياتِ فوق كراسيها ، ودعونَ لها .

والتفتت الحيةُ إلى « حاسب » وقالت له :

لا تخفْ منّا — أيها الشابُّ — فإني ملكةُ الحياتِ . ثم أشارت إلى

الحيات ليُحضرْنَ شيئاً من الطعام ، فأتيْنَ بأنواعِ مختلفة من الفاكهةِ ، ووضعنَه أمام حاسب ؛ فقالت له الملكة :

مرحباً بك أيها الشابُ ، ما اسمك ؟

فقال : اسمى « حاسب كريم اليدين » .

فقالت : يا حاسب ؛ كُلْ من هذه الفاكهةِ ، فما نملِك طعاماً غيرَها ، ولا تخف منَّا .

ولما أكل حاسب ، ورُفع الطعامُ من أمامِه ، قالت الحيَّة :

أَخْبِرْنى يا حاسب ؛ مَنْ أنتَ ؟ ومن أين أتيتَ إلى هذا المكانِ ؟

فقص عليها حاسب جميع ما جرى له حتى تركهُ رفقاؤُه الحطابون فى الُجبّ ؛ وكيف نجا منه ، وخرج من البابِ الحديدىّ إلى هذه الساحةِ ؛ ثم ختم حديثه برجائهِ إياها أن تردّه إلى أهله ووطنِه .

قالت الحية الملكةُ :

هوِّن عليك يا حاسب ، فإنك لن ترى إلَّا خيراً كثيراً ، وستُقِيم معنا مدةً من الزمان ، أقصُّ عليك فيها قِصَّتى ، كما قصصْتَ علينا قصتَك ؛ وستجد فى قِصَّتى عجائب وأهوالًا أكثر مما رأيتَ أنتَ من عجائبَ وأهوال .

قال حاسب : سمعاً وطاعة .

وظل مع ملكة الحيات يسمع منها ما أدهشه من قصص كثيرة ، كلها عجائب وغرائب .

وما فتئت الحية تَقُص على حاسب أعجب القَصص وأغربه؛ وكانت كلّما انتهت من قصةٍ طلب منها حاسب أن تعيده إلى أهله، فتَستَمهله، وتطلبُ منه أن يمكثَ معها وقتاً آخر، لأنها ستُسمِعهُ أعجب وأغرب وأظرف مما سمع.

وخاف حاسب أن تكون وعودُ الحيةِ الكثيرةُ مبالغةً فى إمهاله حتى يسأم الطلب، وحتى يألفَ العيش عندها، فيبقَى معها، ويقضى أيامه مع هؤلاء الحيات بعيداً عن أمّه وزوجتِه؛ فاكتأبت نفسُه، وأصبح لا يجد فى حديثِ الحية العذب، وفى قصَصها العجيب الغريب ما كان يجده قبلَ ذلك من عُذوبةٍ، ولا يُحسُّ ما كان يحسُّه من شوق.

وأدركت الحية ما اعتراه من انقباضٍ، فقالت له:

ما بالُك ياحاسب قد مَلِلت عِشْرَتَنا؟

فبكى حاسب وقال:

والله ما بى إلاَّ حَنينى لوالدتى، فما لها أحدٌ غيرى.

فأطرقت الحية برهةً ثم قالت:

إنى ما حجزْتُك هنا إلاَّ لأنَّ فى خروجك هلاكاً لى.

فقال متعجباً:

وكيف ذلك؟!!

قالت: إذا خرجت إلى أهلك، ثم دَخلْتَ الحَمَّام — كان فى ذلك مَوْتى؛ لأن ذلك، هو ما كُتِبَ لى وقُدِّر.

زاد تعجُّب حاسب ، وأقسم لها أن تُخرِجَه على ألاَّ تطأ قدمُه عتبةَ حمَّام جميع عمرِهِ .

فقالت الحية :

أخافُ يا حاسب إذا وصلْتَ إلى بلادِك أن تنقُض العهْدَ ، وتحنثَ فى اليمين .

فأقسم لها حاسب أيمانًا مُغلَّظَة ، وعاهدها عهداً وثيقاً — على ألاَّ يدخل حماماً قط .

فبكت الحية وودَّعته ، وأمرت حيةً من أتباعها أن تخرجه على وجه الأرض .

فأخذته الحيةُ ، وسارت به ، حتى أخْرجَتْه إلى وجه الأرض من سطح جُبٍّ مهجور .

(٤)

وجد حاسب نفسه فى مكانٍ مهجورٍ خالٍ ، ليس به إلاّ بعضُ الأحجارِ والأخشابِ التالفة ، فأخذ يبحثُ عن الطريق ، ويتتبَّع المعالِمَ حتى عثر عليه .

فانحدرَ نحوِ المدينةِ ، فدخلها مع غروبِ الشمس ؛ واتجه نحو منزِله ، يدفعهُ الفرحُ لملاقاةِ أهْله ، ويرده الخوفُ خشية أن يكونوا قد ماتوا .

وطرق البابَ ، ففتحتْه أمُّه ، وما أبصرته حتى صَكَّتْ وجهها ، وصرخَتْ صرخةً دوَّت ، ثم خرَّت مغشياً عليها من هول المفاجأة ؛ فتلقَّفها ولدُها بين ذِراعيه ، وهو يقبِّلُها ، وأخذَ يمسحُ رأسها حتى أفاقت ، فنظرتْ إليه وهى لا تكاد تصدِّقُ أنه ابنُها ، فلما استَيْقنَتْه طوقتهُ بذراعيها ، وانهالت عليه لَثماً وتقبيلاً ، وهى تبكى من شدة فرَحها .

وأتت زوجته تستطلع الخبر ، فوجدتِ حاسباً أمامها ، فلم تستطع تصديق عينيْها حتى سمعت صوته ، ومناداته لأُمِّه ، فكان سرُورُها لا يعدِله إلاَّ سرور أمِّه .

ودخل حاسب داره ، وبعد أن استراح ، وتناول ما أُعِدَّ له من طعامٍ ، سأل أمَّه عن الحطَّابين الذين كانوا يحتطبون معه فى الجبلِ .

فحدثته أمُّه حديثهم ، وما كان من شأنهم معها حينما عادُوا من الجبل ، وأخبروها أن الذئب افترس حاسباً ، ووصفت له ما صاروا عليه من غِنى ، ولم تنكر ما قدموه لها من مال ؛ ثم سألته سر غيبته .

فقصَّ حاسب عليها هى وزوجته بعضَ قصته ، ثم قال لأمه :

اذهبي غَداً إلى الحطابين ، وقولى لهم : لقد حضر حاسب من سفره ، فاحضُروا ، وسلِّموا عليه .

وفى غد ، ذهبت أمُّه فأتت بيوت الحطابين ، وأخبرتْهم أن حاسباً عاد من سفره .

فدهِش الحطابون ، ووَجفت قلوبهم ، وتشككوا فى الأمر ، فأكدته لهم .

وعقد الحطابون (التّجار) اجتماعاً بينهم ، ينظرون فيه أمر هذا الخطب الجلَل الذى سيحُل بهم ، ثم استدعوا بعضَ أصدقائهم يستشيرونهم .

فأشار عليهم الأصدقاء ، بعد أن عرفوا ما كان منهم لحاسب ، أن يُعطيَه كلُّ واحد منهم نصفَ ماله .

وبكَّرَ الحطابون إلى منزل حاسب ، حاملين الهدايا والأموال ؛ فسلَّموا عليه ، وأعطَوْهُ ما جاءوا به ، وقالوا له : هذا من بعض إحسانك ، ونحن بين يديك .

فقبِل حاسب ما أتوه به ، وقال لهم :

لقد سامحتُكم نفسى ، وما حصل لى كان مقدوراً علىّ .

فقالوا له :

هيَّا بنا إلى حمَّام السُّوق ، وارتد هذه الحُلة الجميلة ، التى أحضرناها لكَ .

فقال لهم :

لقد أقسمتُ ألَّا أدخل الحمَّام ما دمتُ حيًّا .

فقالوا : إذن ، هيَّا نُضيفُك فى منازلِنا .

فقبل حاسب منهم ذلك .

وأضافه كلُّ واحد منهم يوما ، وأوْلم له وليمة كبيرة ، حضرها الأصدقاء والأقارب .

وأصبح حاسب من كبار التجار بالمدينة ، يؤمُّه الناس جميعاً لصدقه وأمانته .

وفى يوم عطلة المتاجر ، خرج حاسب يرتاضُ فى المدينة ، فجاز بحمّامٍ يجلس صاحبه على بابه ، وكان صاحب الحمام يعرف حاسباً ، فما كاد يلمحَه حتى أسرع إليه مسلّماً عليه ، ودعاهُ إلى دخول الحمام ، فاعتذر حاسب ، فأقسم عليه الحمامىّ أن يدخل .

فقال له حاسب : لقد أقسمتُ يميناً ألا أدخلَ الحمام طيلة حياتى .

فما كان من الحمامىّ إلا أن صاح مُقْسماً أيماناً مغلَّظة أن لا بدّ من دخول الحمام ، وكان الرجلُ إذا حَنث فى يمينه فرّقَ القاضى بينه و بين نسائه .

فاجتمع الناسُ وعمال الحمام على حاسب يُلِحّون عليه أن يدخل ، وهو يمتنع .

ويقولون له : أتريد خراب بيت الرجل ؟!!

والحمامىّ يتوسلُ إليه أن يدخل بعد أن صدرت منه هذه الأيمان .

ثم تكاثر عليه الجمع فأدخلوه كرهاً .

وما كادَ يخلع عنه العمال ملابسه ، ويصبُّون على رأسه الماء ، حتى تقدم منه عدد من الرجال ، وقالوا له :

قم أيها الرجل ، فأنت طِلْبة السلطان .

وأرسلوا واحداً منهم إلى نائب السلطان ، الذى ما لبث أن حضر ومعه عدد كبير من الرجال .

وتقدم الحاكم فحيا حاسباً ، وقدم له حصاناً ليركبه فركبه ، ثم ساروا به إلى قصر الحاكم ، بعد أن نقد الحاكم الحمّامىّ مائة دينار .

واستُقْبِل حاسب فى قصر الحاكم استقبالاً رائعاً ، وقدمت له مائدةٌ عظيمة ، وخلع عليه الحاكم خلعة فاخرة ؛ حدث ذلك كلُّه وهو مشدوه مما يرى .

ثم قال له الحاكم :

اعلم أن الله قد مَنّ علينا بك ، ورحِمَنا بمجيئك ، فإن السلطانَ أشرف على الموت من الْجُذام الذى به ، وقد دلّت عندنا الكتب أنّ حياته على يديك .

فازداد عجب حاسب من هذه الأمور المبهمة ، وهذا الكلام الغامض .

واصطحب الحاكم حاسباً ، وتوجّها فى عسكر كبير إلى مدينة الملك ، وقصدُوا من فورهم إلى قصره ، واجتازوا أبوابَ القصر السبعة .

وأُذِن للحاكم ولحاسب بالدخول إلى حجرة الملك فدخلا .

فوجد حاسب الملك راقداً على سرير ، ووجهه يختفى تحت الأربطة ، وهو يئن ويتوجع ، وقد جلس بجانبه وزيره .

ونهض الوزيرُ لدى دخول حاسب مرحّباً به ، وأجلسه بجانبه ، وقال له : نحن جميعاً فى خدمتك ، وما تطلبه يصير إليك ، ولو طلبت نصف الملك أعطيناك إياه ، لأن شفاء الملك على يديك .

ثم أخذه إلى سرير الملك ، وكشف له عن وجهه ، فرآه حاسب ذابلا مُتجعّدًا مُقرّحا .

فتنهد حاسب راثياً له ، ومُشفقاً على نفسه من هذه الأحاجى والألغاز .
ثم قال :

نعم إنى ابنُ الحكيم دانيال ، لكنّنى لا أعرفُ شيئاً من العلم ، ويُودّى لو أعرف فأداوىَ الملك .

فقال الوزير :

لا فائدة من إطالةِ الكلام ، فلو جمعنا حكماء المشرق والمغرب لعجزوا عن مداوَاة الملك ، إلّا أنت ، فإنك مستطيع أن تداويَه .

حاسب : كيفَ أداويه وأنا لا أعرفُ داءه ولا دواءه ؟!!

الوزير : إن دواء الملك عندك .

حاسب : لو كنتُ أعرفُ دواءه ، ما ترددتُ فى مداواته .

الوزير : أنت تعرف دواءه ، فإن دواءه ملكة الحيات ، وأنت تعرفُ مكانها ، ورأيتها ، وكنتَ عندها .

وهنا ، انجلى الأمرُ ووضحت الحقيقة ، وعرف حاسب صدْق قول الحية ، وخشيتها من دخوله الحمّام ، فندِم ولاتَ ساعة مندم !!!

ثم قال بصوت متهدج ، متقطع النبرات :

ماذا ؟!! ملكةُ الحيات ؟!! أنا لا أعرفها ، وما سمعت بهذا الاسم قط .

قال الوزير :

لا تنكر معرفتَها ، فإن عندى دليلا على أنك تعرِفها ، وأقمت عندها سنتين .

قال حاسب :

أنا لا أعرِفها ، وما رأيتُها ، وما سمعت بها إلا الآن .

فأحضر الوزير كتاباً وفتحه ، وجلس يقرأ فيه ويحسب ، ثم قال :

إن ملكة الحيات تجتمعُ برجل ، ويمكثُ عندها سنتين ، ويرجع من عندها ، ويخرج على وجه الأرض ، فإذا دخل الحمَّام اسودّ بطنه .

وكان حاسب يسمع كلام الوزير ، وهو يرتجف ، ثم قال له الوزير :

اكْشف عن بطنك وانظر إليه .

فنظرَ حاسب إلى بطنِه فرآه أسود .

فقال : إن بطني كذلك من يوم ولادتى .

فهزّ الوزير رأسه غير مصدّق ، وقال : لقد كنتُ موكّلا بكلّ حمامٍ نفرا من رجالى ، حتى إذا ما رَأوْا أحداً اسْوَدَّ بطنُه — سارعوا إلى إبلاغِى خبَرَه من غير أن يَدَعوه يُفلتُ من أيديهم ، فلما حضرتَ أنت ونظروا إلى بطنك فوجدوه قد اسودّ — أبلغونى على عَجَل ، وليس عليك الآن إلاَّ أن تُرِيَنا المكان الذى خرجت منه من عند ملكة الحيات ، وسنُخْلى سبيلك بعد ذلك .

أطرقَ حاسب ، وقد شملَهُ الحزنُ ، وعمَّه النـدمُ ، وجعَل يفكّرُ تفكيراً عميقاً فى هذا الموقفِ المؤلم الذى اضطره إلى نكثِ الأيْمان ، ونقْض العهود .

وتوافدَ الأمراء والوزراء ، وكبارُ رجال الدولةِ يلاينُونه ، ويلاطفُونه .

ويستعطفونه ، ويتوسَّلون إليه ؛ أن يرشِدهم إلى مكانِ ملكة الحيات ، وكانوا كلَّما أمعنوا هم فى ذلك أمعنَ هو فى الإنكار ، ويؤكد لهم أنه ما رآها ولا يعرفُ عنها شيئاً .

فلما يئِسوا منه ، وتأكَّدوا أنه مُصِر على الإنكار ، طلبَ الوزير الجلَّادَ ، وأمرهُ بنزع ثيابِ حاسب وَجَلده جلداً مُوجِعاً ، وأن يظلَّ يجلده حتى يعترف .

فنفذ الجلادُ ما أمر به ، وأخذَ حاسب يتلوَّى تحت السياطِ حتى أشرف على الموت ، وعلى الرغم من أنه أوشكت نفسُه على التلف — فإنه بقى على إنكاره ، ولم يبحْ بشىء من سرِّه .

فلما رأوه قد قاربَ الموت — أمر الوزير الجلَّادَ بالكفِّ عنه ، وحملهُ الخدم ، وأخذُوا يضمِّدُون له جراحَه ، حتى أفاق من غَشْية أصابته .

فلما أفاق قال له الوزيرُ :

إن لدينا دليلًا على أنك تعرف مكان ملكة الحيات ، فلماذا تنكرُه ؟

إنَّا لا نطلب منكَ إلا أنْ ترِينا المكان الذى خرجْت منهُ ، ثم تبتعد عنا ولك مقابل ذلك كلُّ ما تَطلب .

وأمر الوزير ، فأتوا لحاسب بحلةٍ مزركشَة بالذهب والجواهر ، وأخذ جَميعُهم يلاطفونه ، ويُعنُونه ، وهو صامتٌ لا ينطقُ ، فعاوَدوا الشدَّةَ عليه ، فضعُفَتْ نفسُه بعض الضعفِ ، وقال :

سأريكم المكانَ الذى خرجتُ منه ، ولا تسألونى شيئاً آخر بعد هذا .

فقالوا ! نعمْ هذا الذى نبغيه منك .

فركبُوا وركبَ حاسبِ ، وتوجَّهوا إلى المكان الذى خرج منه حاسب من عند ملكة الحيات ، وهو يَعْلَمُ أن معرفةَ هذا المكان لن تُجْدِيهم شيئاً ، ولن يستطيعَ أحدُ المُروقَ منه فيعودُوا بخُفَّىْ حُنيْن .

فلما وصلوا أراهم حاسب البئر التى خرج منها ، وانتظر يرى خيبةَ أملِهم ، فتقدمَ الوزير من البئر ، وكان يعلم كل فنون السّحر والروحانية ، فأطلق البخور وجلس يقرأ التعاويذ ، ويتلو الرُّقى ، وينفُث ويُهمهم ؛ وكلما فرغ بخور أطلق غيره ، وعاود القراءةَ ؛ ثم قال :

أُخرجى يا ملكة الحيات .

وما كاد ينتهى من كلامه حتى زُلزِل المكان زلزالاً شديداً ، وارتجت البئرُ رجًّا عنيفاً ، وغاضَ ماؤها ، وانفتحَ بها بابٌ ، وانطلق منه صوتٌ عظيم كأنه الرعْد ، فوجف الحاضرون وذُعروا ، وظنُّوا أن البئر قد انهدمت ، فدخل بعضهم فى بعضٍ ، ووقع بعضُهم مغشيًّا عليه مما به من الخوف والرُّعبِ ؛ إلا الوزير فإنه لم يَكُف عن القراءة والترتيل .

وبعد قليل تثاءبَ البئرُ عن حيةٍ عظيمةٍ تخرجُ منه ، تقدحُ عيناها شرَراً ، وينفث فوها جمراً ، وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر المرصَّع بالدرّ والجوهر ، عليه حية تُضىء ، ووجهُها وجه إنسانٍ هى ملكة الحيات .

ودارت ملكة الحياتِ بعيْنيها هنا وهناك ، حتى وقعت على حاسِب ، فقالت :

أَينَ العهدُ الذى عاهدتنى عليه ؟! أين اليمين المغلَّظةُ التى أقسمتها لى أنك لا تدخل الحمَّامَ ؟!

فتقدم منها حاسِب وهو يبكى ، ولا يستطيعُ رؤية طريقه خلال سحاباتِ دموعه ، وأخذ يعتذِرُ إليها ، ويكشف لها عن بعض جسمه ليُرِيَها شيئاً مما أصابه من كثرة الضرب بالسياط .

فقالت الحيَّةُ وقد سالتْ دموعُها :

لا تنفع حيلةٌ فيما قدَّر الله ، فلا رادَّ لقضائه ، وقد جعل الله آخرَ عمرى على يديك ، وأن أُقتل أنا ويشفى الملِك .

وبكت الحيةُ بكاء شديداً وحاسب يبكى لبكائها .

فتقدم الوزيرُ من الحية ، ومد يده ليمسكها ؛ فقالت له :

إليك عنى أيها الرجل ، لا تمدَّ يدك علىَّ ، وإلا نفختُ عليك نفخةً صيَّرَتك رماداً .

ثم صاحت بحاسب ، وقالت له :

تعالَ عندى وخذنى بيدِك ، وضعنى فى هذا الوعاء الذى معكم ، واحمله عَلَى رأسِك ، فموتى على يدك مقدورٌ منذ الأزَل ، ولا حيلةَ لك فى دفعه .

فأخذها حاسب ، وحملَها على رأسه ، وعادت البئر إلى ما كانَتْ عليه .

وقفلَ الجميع عائدِين ، وحاسب يحملُ الحية ، فهمست فى أُذُنه قائلة :

أَصغِ إلىَّ يا حاسب . حينما نَصِلُ إلى منزل الوزير سيقولُ لك : اذْبح

ملكةَ الحياتِ ، وَقسّمها ثلاث قِطعٍ ؛ فامتنع عن ذبحى ، وقل له : إنى لا أعرفُ الذبح ، كى يذبحَنى هو فإذا ما ذبحَنى وقطَّعنى ، فسيأتيه رسولٌ فى هذا الوقتِ من عِند الملك يستدعيه على عجَل، فيضَع اللحْم فى قِدْرٍ ويضعَ القدرعلى النار ، ثم يقول لك : رَاقِب هذا اللَّحم حتى أعود ، فإذا ما غلت القِدْر ، طفَت على وجهها رغوةٌ ، فاكشُطْها ، وضعها فى زجاجةٍ ، وانتظرْ حتى تبرد ، ثم اشرَبها ، فإنك إن شربَتَها يسبغ الله عليك صحةً وعافية .

وإذا استمرت القدر فى الغليان خرجت الرغوة الثانية ، فاكشطها أيضاً ، وضعها فى زجاجةٍ أخرى حتى أشرَبها أنا لمرض الشيخُوخة الذى لحَقنى ، وسيرتَدّ إلىّ بعض شبَابى .

سيقول لك كلّ هذا ، ويعطيك الزجاجَتين وينصرف ، ولكن احذر أن تنفذ قوله ، ونفذ ما أقوله لك .

قم أنتَ عَلَى القِدر ، وحينَما تخرجُ الرغوةُ الأولى خُذها وضعها فى الزجاجة ، وإياكَ أن تشربها ، فإنك إن شربتها لحقكَ ضررٌ عظيم ، وما طلبَ الوزير منكَ شُربها إلا ليتخلصَ منك ؛ وحينَما تخرج الرغوةُ الثانية خذها وضعها فى وِعاء ، وأخفها عن عينَيه ، ثم احفظْها حتى تشربها أنت ؛ فإذا رجع الوزير من عند الملك وطلب منك الزجاجةَ الثانية ، فأعطه الأولى ، ثم اشربْ أنت الثانية ، وإنكَ إن فعلتَ فسيتفجر العلمُ من جوانبك ، وتنطق الحكمةُ من نواحيك ، ثم أَخرِجْ اللَّحم وضَعْه فى

وعاء ، وقدمه للملك ليأكله ، ويأتى عليه ؛ وسيغدُو صحيحا مُعافىً ، لا يَشكُو ألما ، ولا يُحِسُّ مرضا ، وختمت الحيةُ كلامها بقولها :

حافظ على هذه النصيحة ، واعمل بها ياحاسب .

فقال لها حاسب ، وهو يبكى متأثرا لإخلاصها :

إنى أعِدُكِ بذلك شاكرا لكِ كلَّ أفضالك .

فلما وصلوا إلى بيت الوزير ، وتفرقت الجنود ، قال الوزير لحاسب : اذبح ملكة الحيات .

قال حاسب : إنى لا أعرفُ الذبح .

أسرع الوزير إلى السكين وشحذها ، وأخذ ملكة الحيّات وذبحها ، وحاسب يبْكى مُرّ البكاء .

فقال له الوزير وهو يضحك :

يا مَعتوه ، أتبكى من أجل ذَبح حية ؟ ! !

ثم قطَّعها ثلاث قطع ، ووضعها فى قِدرٍ على النار ؛ لينضَجَ اللحمَ ، وقبل أن تغلى القدرُ أتى رسول الملك يستدْعيهِ على عجلٍ ، فأوصى حاسبا بما ذكرته له الحية من قبل .

ولما خرج الوزير ، فعل حاسب كما أمَرَته .

وعاد الوزير فسأل حاسبا عن الزجاجتَين ، فقال له :

لقد شربتُ الآنَ الزجاجة الأولى كما أوْصيتَنى .

وأراه الزجاجة الثانية فارغةَ على أنها الأولى .

فنظر الوزير إليه مُرتابا فى أمره، وقال: مالكَ؟! لا يبدُو عليك شىء!

فقال حاسب:

إنى أَحِسُّ أن جِسْمى يشتَعِل نارا.

فسُر الوزير فى نَفْسه، وقال لحاسب:

إذَن، أعْطِنى الزجاجَة الثانية حتى أشربها.

فأعطاه حاسب الزجاجَة الأولى التى أوصتْه الحية أن يُعطيه إياها، فشربها الوزير من فَورِه، وما كاد يأتى على آخرها، حتى سقطت الزجاجة من يدِه التى ارتعشَتْ وتخاذلَتْ، وارتخَتْ إلى جانبه.

فنظر حاسب إليه، فوجده قد تورمَ جسمُه وانتفخ، ثم سقطَ ميتا كأنه سُقِىَ سُما زُعافا، وصدق فيه قول صاحب المثل: (من حفرَ بئرا لأخيه وقع فيها).

فارتعبَ حاسب لذلك أشدَّ الارتعاب، وارتاعَ أقسى ارتياع، وأدركَ عظم المصير المؤلم الذى أرادَه له الوزير، وأنقذته ملكة الحيات منه.

خاف حاسب، وأرادَ أن يسكُبَ ما فى الوعاء الذى احتَفَظ به لنَفْسه، ولكنه عاد فعدل وهو يقول:

لو كانت الرغوةُ الثانية مُضرة، ما اختارَها الوزير لنفسه، وما أوصتنى الحية أن أَحتفظ بها لى من دون الوزير. لقد سلمت أمرى إلى الله، وما قدرَه الله يَكون.

ثم رفع الإناء فشربه. وأخذ قِدْرَ اللحم وخرج إلى قصْر الملك.

(٥)

تفجر العلم من جوانب حاسب ، ونطقت الحكمة من نواحيه ، وفاض قلبُه نورا من العِرْفان ؛ ففرح لذلك أيَّ فرح .

رفع رأسهُ إلى السماء ، فرأى الأفلاكَ فى مسارها ، وشاهد النجومَ فى مدارِها ، فعرف سيرَ الكواكب وحسابها ، وكُسوفها وخسوفها ، وقربها وبعدَها ، ومطالِعها ومغاربها ، وما تجرى به على الإنسان من سعْدٍ ونَحس .

ونَظر إلى الأرض ، فعرف ما فى جَوْفها من المعادن ، وما على ظهرها من النباتات والأشجار ، وعلم ما لها من الخواصّ والمنافع ، واستَنْبَط من ذلك أشياء كثيرة أفادتْه فى الطب والكيمياء ، وعرف علمَ الهندسة والنُّجوم والسيمياء .

فحمِدَ الله وشكرَ له نعمته .

ولما مثل حاسب بين يدَىِ الملك ، نَعىَ إليه وزيرَه ، فبُهِتَ الملك ، وتملكهُ الحزنُ العميقُ لموت وزيرِه ، وخشى أن يكونَ قد مَسّه أحدٌ بسوء ، وقال لحاسب :

كيف مات ؟ ! لقد كان عِندِى الآن ، وهو على خيرِ ما يكون صحةً وعافية ، وذهب ليأتيَنى باللَّحم ، فما سببُ موته ؟ ! وأىّ عارضٍ عرض له ؟ !

فكشف له حاسب الحقيقة ، وقال له :

لا تحملْ همًّا أيها الملكُ ، فإنى أداويك فى أقصر وقتٍ ، وأنجيك من هذه العلّةِ الملحّة التى لازمتك زمناً طويلا .

فسُرّ الملك لقُرب شفائه ، ودعا حاسبا يفعلُ مايُريد .

فأخذ حاسب قطعةً من لحم ملكة الحيات ، وأطعمها الملك ، ثم طلب إليه أنْ ينَام ، وبعد أن نال الملكُ قسطاً وافراً من النّوم ، أيقظه حاسب وسقاه شراباً ، ثم أنامه ثانياً .

وفى اليوم الثانى ، والثالث ، فعل معه كما فعل فى اليوم الأول ، حتى انتهت قطعُ اللحم الثلاث .

وفى صباح اليوم الرابع ، استيْقظ الملك من نومه نشيطاً مُعافىً لا يشعُر بشىء من الأمراض والأوْجاع ، فالتأمت جُروحه ، وتفضت قشورها ، فأدْخله حاسب الحمام ، وغسل له جسمه ، فصار جلدُه نظيفاً سليما .

وخرج الملكُ فجلس على عرشه الخالى منذ سنين ، مرتدياً ملابسه الثمينة المزركشة التى حرم ارتداءها وقتاً طويلا .

ودعا حاسباً فأجلسه بجانبه ، ثم أذن للأُمراء والوزَراء وكبارِ رجال الدولةِ بالدخول ، فدخلوا عليه وهنّأوه بالعافية .

وأعلنوا ذلك فى المدينةِ ، فدُقّت الطبولُ ، وزُيّنت المدينة فرحاً لسلامةِ الملك .

وقال الملك لأربابِ دولته :

يا معشرَ الأمراء ، والوزراء ، والكبراء .

هذا حاسبُ كريمُ اليدين ، الذى شفانى من مَرضى . اعلموا أننى قد جعلتهُ وزيراً أعظم ، فمن أحبه فقد أحبنى ، ومن أكْرمه فقد أكْرمنى ، ومن أطاعه فقد أطاعنى .

فقال جميعهم : سمعاً وطاعة .

ثم نهضوا فقبلوا يد حاسب ، وسلمُوا عليه وهنّأوه .

وخلع عليه الملكُ خلعاً ثمينةً ، وأهدى إليه الجوارى والمماليك .

وأمر فحُمِلتْ إلى منزله الذى خُصصَ له التحفُ الثمينة ، والأثاثُ الفاخر ، والرياش الثمينة .

وقصد حاسب إلى منزله الجديد الفخم ، يَحُف به كبارُ الرجال ، وتحيط به صفوفُ الجنود .

وحضرت أمّهُ فرحةً فقبلته وهنأته ، واستقبلته زوجتُه ، وقد استخفَّها الفرح والسرور .

(٦)

ونال حاسب كريم اليدين أمنيَّةَ أبيه وأمه فى أنْ يكون أحكمَ أهل زمانه .

وانتشر صيته وشاعتْ حكمتهُ ، واشتهر باستبْحاره فى كلّ العلوم .

وذات يومٍ قال لوالدته :

يا أمى ، لقد كانَ أبى دانيالُ عالماً فاضلا ، فأين ماخلَّفه من الكُتب ؟

فأحضرتْ أمُّه الصندوق وبه الخمسُ الورقات ، وأعطته إياها .

فقال : هذه ورقاتٌ من كتابٍ ، فأينَ بقيتُه ؟

فردتْ عليه ما كان من ضياع الكتب ، وكيف لم تنجُ إلا هذه الورقات الخمس التى أوصى والده بإعطائِه إياها عند ما يسألُ عما خلَّفه له أبوه من تُراثٍ علمىّ .

فقرأها حاسب ، فوجد بها ماَيفعله الذى سيكون على يديه خروج ملكة الحيات .

فتعجب حاسب من ذلك أشدَّ العجبِ ، وعلِم أن والده كان يعلمُ أن ابنَه هو الذى سيكون على يديه هذا الأمر ، فأراد تَبصيره ، ولكنه لم يُوَصِّ والدته بإعطائه إياها إلا بعد أن يسألَ ولدهُ عن كتبِ أبيه ، ويرغبَ فى النهل من حكمتها ، وبذلك يكونُ أهلا لأن يكونَ أحكم أهل زمانه .

وعلِم أنه قد جاء متأخراً فى طلبه ، ولولا طيبُ ملكة الحياتِ ، وإخلاصُها له — لفات عليه هذا الأمر .

وعاش حاسب بقية حياته سعيداً هانئا ، لا تغرُب عن باله ملكةُ الحيات ، التى خدمتْه حيةً وميتةً .

على نور الدين ومريم الزنارية

(١)

كانَ فى الزمن الأول تاجرٌ بمصر اسْمه تاجُ الدين ، عُرف بكثرة الأموالِ ، وسَعة التجارة ، والصدقِ والوفاء والأمانة ، وكان كثير الارتحالِ فى طلبِ المال ، لا يهمُّهُ صُعوبة البر ، ولا خُطورةُ البحرِ ؛ وقاسى فى أسفارِه من الأهْوالِ ما تشيبُ له الأطفالُ ؛ وهُو إلى هذا حَسنُ المقال ، جميلُ القَوام ، رقيقُ العواطِف ، محببٌ إلى الناسِ .

وكانَ ابنُه علىٌّ نورُ الدين جميلَ الهيئةِ ، بَديعَ الخلقةِ ، ذا جبينٍ أزهر ، وخَدٍّ أحمر ، وعذارٍ أخضر ، وطرفٍ مكحول ، وقوامٍ ممشوق .

جَلسَ فى دكان أبيه ذاتَ يوم ، فجاءه أبْناء التجارِ ، وعَرضُوا عليه أن يذهبَ معهم إلى بُستانٍ للنزهَةِ ، فقال لهم : حتّى يأذَنَ لِى أبى .

فلما أذن له أبوه ، وأعطاه شيئاً من المالِ ينفقُه — ركبوا جميعُهم دَوابَّهم ، وساقُوها إلى بُستانٍ مشيَّدِ الأركان ، رفيع البُنْيان ، له بابٌ واسعٌ كأنه الإيوان ، وفيه صُنُوف من الأعنابِ وغيرِ الأعنابِ ، من كلِّ ما لَذَّ وطابَ ، وبِهِ عريشة جلس فيها بوّابهُ رضوان .

وبعد أن طافوا بأشجاره ، ومتعوا أنظارهم بثمارِه وأزهارِه — جلسُوا فى لِيوانهِ ، وأجلسُوا نورَالدين فى وَسطِهِ ، على نِطعٍ من أديمٍ مُزَرْكش ، مُتكئاً على مخدةٍ لينَة ، وناولوه مِروحةً من ريش النعام ، ونزعوا ما عَلَيهم من ثيابٍ وعمائم ، وأخذوا يتحادثونَ فرحين ، وبعدَ مدةٍ أقبلَ عليهم عبدٌ أسودُ يحملُ مائدةً، عليْها أطعمةٌ متنوّعة ، من ضَأنٍ ودَجاجٍ وسمكٍ وحمام ، وكانَ أحدُهم قدْ وصى بَيتَه أن يحضرَ لهم تلك المائدةَ ، فأكلوا جميعُهم حتى شبعوا ، ثم غسلوا أيديَهم ورجعوا إلى حديثِهم ، ثم جاءهُم خادمُ البستان يحملُ سَلة من الوردِ فوزّعهُ عليْهم .

فلما كانَ الوردُ فى أيديهم وضعَ أمامَهم سُفرةً مزركشةً بالذهب الأحمر وعليها شراب ، ثم ملأ الكؤوس ، ودارَبها على الجلوس ، حتى وصَل إلى علىّ نور الدين ، فامتنعَ مُعتذراً وقال : هذه خمرٌ ، كلُّها إثمٌ ووزْر ، ولم أذُقْها أبداً ، ولاَ أحبُّ أنْ أغْضب بِشربها رَبِّى .

فقال البُستانى : إن كان فيها إثمٌ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ، يغفر الذنب

وَيَقبَلُ التوب ، وقد قال الشاعر :

كنْ كيفَ شِئتَ فإنَّ الله ذو كَرمٍ
وما عليكَ إذا أذنبْت من باسِ
إلا اثنتين فـــلا تقربْهما أبدًا
الشِّركُ بالله والإضرارُ بالنـــاسِ

فقال نور الدين : إنه غافرُ الذنب وقابل التَّوب وشديد العقاب ، وكلّ امرئٍ بما كسبَ رهين ، وقد أمرنا الله باجْتناب كل إثم وعُدوان . فتقدم إليه أحد الأبناء وأقسمَ عليه أن يشرب كأسه ، وحلف آخَرُ أن يشربها ، وجعل آخرُ يُنفره من مُخالفةِ إخوانه ، وجعلَ آخرُ يشوّهُ لهُ تعكيرَ صفوِ مجلِسِهم ، فضعفت عزيمةُ نور الدين ، أمام هذه الحملة العنيفة الإجماعيةِ من إخوانه ، وأخذ جَرعةً من الكأسِ ، ثم بصقها قائلًا : إنها مُرةٌ ، ولا صبر لى على المُرّ . فوضع البستانى فى كأس نور الدين قطعةً من السكر وقال :

اشرب الآن فقد ضاعت مرارتها ، وستجدها حُلوةً لذيذةً . فشربها مُكرهًا ، فكان لإخوانه من هذه الكأس خَيرُ مُعينٍ لهم على أن سَقوهُ أخرى وأخرى ، حتى سقوهُ عشر كؤوس ، فلعبت برأسه ، وثقلَ لسانه ، واستعْجَم كلامه ، ولكنه استطاع أن يقول : يا إخوانى : ما أجمل مَجْلسكم ! وما أعذب حديثكم ! ولكن ينقُصه صبيةٌ تغنى ، فلا فائدة من شرابٍ لا يصْحبه غِناء . فركب صاحب البستان بغلةً وغابَ

ساعة ، ثم رجع إليهم ومعه صبية كالفِضَّة النقية ، والغزال فى البرية ، ذات وجهٍ يُخجِلُ الشمس المضية ، وعيون ساحرةٍ بابلية ، وحواجبَ كالقِسىِّ المحنية ، وخدودٍ وردية ، وأسنان لؤلؤية ، وقال البُستانى لتلك الصبية : ما جئنا بك إلا لتطربى وتُنادمى نور الدين ، فإنه لم يَزُرْنا إلا هذه المرة . فقالت : ليتك أخبرتنى وأنت عندى ، حتى أُحْضِر معى أدوات الطرب ، فقال : استريحى أنتِ هُنا وحَمّلينى أمارةً أُحضرُ بها ما تريدين ، فقالت : خُذ معك منديلى هـذا أمارة ، لتُحْضرَ به كيساً من حرير أخضر ، فى مكان « كذا » من منزلى . فلما جاءها به أخرجت اثنتين وثلاثين قطعةً من الخشب . ثم جعلتْ تضمُّ بعضها إلى بعض على نحوٍ خاصّ تعرفه ، وأنشأت منها عودًا جميلاً ، وانحنتْ عليه انحناء الأمّ على ولدها ، وجعلت تغمِزُه بأناملها ، فيملأُ الأسماع عذبَ الألحان ، فلما سمعَ ذلك نور الدين أحبَّ الصبيَّة ، وظهر ذلك الحبُّ فى نظرتِهِ إليها وكذلك أحبتهُ الصبية ، لأنه أجملُ الحاضرين ، وأعْذبهم قولًا ، وأرقَّهم عاطفةً ، وأشرفهم شعورًا ، وكان طربُ نور الدين عظيمًا لحسنِ شِعرِها ، وعذوبة لفظها ، وطلاقةَ لسانها ، وشهىّ ألحانها ، فهام بحبّها ، وانتهى المجلس ، ونهض نور الدين قائماً .

فقالت : إلى أين يا سيدى ؟ فقال : إلى بيت والدى . وعبثاً حاول إخوانه أبناء التجار أن يُبقوهُ لينام معهم ؛ فلما دخَل على أمّه فرحت بقدومه ، وقالت :

لقد طالتْ غيبتك، وقلقنا من أجلك، ثم همتْ بتقبيلهِ فشمتْ رائحة الخمر فى فمه، فقالتْ: أبعدَ صلاتك وعبادتك تشربُ الخمرَ، وتعصى من له الخلقُ والأمرُ، وإليه المرجعُ والمصير؟! فلم ينطق بكلمة وذهبَ إلى فراشه ونام.

وحضرَ أبوه فسأل عنه وعما جعله يلجأ إلى فراشه وينام.

فقالت أمه: لعلّ النزهة أتعبتْه فمالَ إلى الراحة، وربما يشكو ألما فى رأسه. فتقدم إليه أبوه ليعرف حالته، فشمّ هو أيضاً رائحة الخمر مُنبعثةً من فمه، فغضبَ وقال:

أبلغ بك السفهُ إلى حدّ أن تشرب الخمر، فتُخالف والدك وتعصى ربك؟!

وكان نور الدين غارقاً فى سكره، لا يدرى ما يفعله، فلطم وجهَ أبيه، فأصابَ بضربته عينه، فوقع مغشياً عليه، ولما أفاق من غشيته حلف أن يقطع فى الصباح يد ابنه اليمنى، التى لطم بها وجه أبيه، فضاق صدرُ أمه وخافتْ على ابنها، ولم تزل تخففُ من غضبه حتى نام.

وفى منتصفِ هـذه الليلة المقمرة استيقظَ نور الدين وقدْ أفاق من سكره، فقالتْ له أمه: ما هذا المنكرُ الذى فعلته؟

فقال: وماذا؟

فقالتْ: لقدْ ضربتَ أباك على عينهِ، وحلف أن يقطع فى الصباحِ يدك اليمنى.

فقال فى حزنٍ أليم : لم أكُنْ أدرى ما فعلت !

فأشارتْ عليه أن يخرج فى هذا الوقتِ ويهرب عند أحد أصحابه حتى يأتى الله بالفرج ، وتمهدَ له سبيل النجاة ، ولعلّ الله يغيّر حالا بعد حال ، وناولته كيساً به مائةُ دينار يستعين بها ، وأمرته أن يتصلَ بها سرًّا ، حتى يدومَ عطفها عليه ، وإمدادُها إياه بالمال الذى يحتاجُ إليه ، إلى أن يجعل الله لهم من هذا الضيق مخرجا ، ثم استودعته الله فى بكاء وحزن أليمين .

(٢)

خرج نورُ الدين ومعه كيسٌ به مائة دينار ، وكيسٌ آخرُ به ألف دينار كان بجوار صندوقٍ لأمه فى الحجرة فأخذه معه ، ثم انسلّ من زقاق ، ومشى قاصداً « بولاقَ » ، فوصل إليه فى الصباح ، وصار يمشى على ساحل النهر هُناكَ ، فرأى مركباً راسياً ، وسألَ أصحابه : إلى أين تذهبون ؟ فقالوا : إلى الإسكندرية .

فعرض عليهم أن يُسافر معهم إليها فرضوا فرحين ، واستأذنهم أن يذهب إلى السوق ليشترى حاجته من زادٍ وفرشٍ وغطاء ، على أن ينتظروه حتى يرجعَ اليهم . فانتظروه بعض الوقت إلى أن عاد إليهم ومعه ما اشتراه ، ثم سار المركبُ به حتى كانَ عند مدينةِ رشيد ؛ وكان هناك زورق يسير إلى مدينة الإسكندرية ، فركبَ فيه نور الدين ؛ وسار به حتى طلعَ منه عند قنطرةٍ قريبةٍ من باب سدرة ، وما زال ماشياً حتى دخل

مدينة الإسكندرية ، فرآها حَصينَةَ الأسوار ، جميلة المتنزهاتِ ، مرتفعةَ الأبنية ، مُنسَّقةَ مُنظمة ، عامرة بالسكانِ ، يألفُها من ينزل فيها ، وتزهو على غيرها ببحرها الذى هُو كلَّ وقت يحيّيها ، ويبعثُ فيها الحياة السعيدة ، بطيب هوائه ، وحسنِ منظره .

فمشى نور الدين فيها حتى كان فى سوقِ النجارين ، ثم تركها إلى سوقِ الصّرافين ، ثم إلى سوقِ البقلية ، ثم إلى غيرها من أسواق الفا كهيّين والعطارين .

وبينما هو سائرٌ فى سوق العطارين أقبل عليه من دكانه رجلٌ عجوز وسَلَّم عليه ، ثم أمسك يده وسار به إلى منزله ، ودخل به فى زقاقٍ جميل مكنوسٍ مرشوش ، قد هَبَّ فيه النسيم صافياً عليلاً ، وأظلته الأشجار بظلالها الممدودة ، حتى وصلا إلى دارٍ فى صدر الزقاق ، فدخلها الشيخ ومعه نور الدين ، فرآها واسعة الحجرات ، مفروشة بالأثاث الفاخر الذى يدلّ على أن صاحبها من الأغنياء الموسرين ، فجلسا وأكلا طعاماً شهيًّا ، ثم قال الشيخ : يا بُنىَّ ، لا تبرح هذه الدار ، وسأجعلُ لك فيها مسكناً خاصًّا بك على أن أقوم بما تحتاج إليه من نفقات المعيشة ، ولا تجعلْ لضيق الغربة إلى صدرك سبيلاً .

فقال نور الدين : أحبّ أن أعرف من أنت أيها الشيخ الكريم ؟

فقال : دخلت مصر واشتغلتُ بالتجارة فيها ، ومرّت بى أزمةٌ ماليةٌ احْتَجْتُ فيها إلى ألف دينارٍ ، كانت ديناً علىَّ إلى التجّارِ ثمناً لبضاعةٍ ،

فدفعها عنّى والدُك على غير معرفة ، ولما يسّر الله لى رددْتُها إليه شاكراً ، ولا أزالُ ذاكرًا معروفه ، وكنتُ قد رأيتُكَ وأنتَ صغيرٌ فعرفتُك الآن ؛ وأحِبُّ أن أجْزِيَ بالخيْر والدَكَ ، وأرُدَّ جميله بإكرامكَ أضعافًا مضاعفة ؛ ففرح نور الدين ، وناوَله الكيسَ الذى به ألفُ دينار ، على أن يكون وديعةً عنده ، حتى يشترى به بضاعةً يتجرُ فيها .

أقام نور الدين بالإسكندرية مدة ، مُتنقِّلًا بين شوارعها ومُتنزهاتها وهو ينفقُ من المائة دينار حتى نفِدَتْ ، فذهبَ إلى الشيخ فى دكانه ليأخُذ شيئًا من وديعتهِ يُنفِقهُ ، وجلسَ ينتظرُه ، ويتأمّل فى التجار وأقوالهم وأفعالهم ، وبينما هو جالسٌ إذْ أقبَل أعجمِيٌّ راكبًا بغلة ، ومن خلفِه جارية سَمْحة الوجْهِ ، صافيةُ البشرةِ ، كأنَّها خُلقت من نور .

نزل الأعجمىُّ وأنزل الجاريةَ ، ثم صاح بالدّلال فحضرَ بيْن يديه ، فأمرهُ أن يأخذ الجاريةَ ليبيعها فى السوقِ ؛ وبعد ساعة رجعَ الدّلال ومعه الجارية وكرسىٌّ من « الآبنوس » المطعَّم بالفضة ، فأجلس الجارية عليه ، ثم كشف القناعَ عن وجهها ، فحسِبْتُه كوكبًا دريًّا .

ثم قال الدلال للتجار :

كم تدفعون فى درّة الغواص ؟

فقال تاجرٌ : علىَّ بمائة دينار .

وقال آخرُ : بمائتين .

وقال ثالث : بثلاثمائة .

وما زال ثمنها يزيد حتى بلغ تسعمائةٍ وخمسين ديناراً ، ولم يزد بعد ذلك ديناراً واحداً ، فأقبلَ الدّلال على الأعجميّ يستشيرهُ ويسألهُ :

هل تبيعُ الجارية بتسعمائةٍ وخمسين ديناراً ؟

فقال : لقد ضَعُفْتُ فى سَفْرَتى هذه فأكرمتنى ، وقامت بخدمتى على أحسنِ وجْه ، ولهذا فقد جعلتُ بيعَها فى يدِها فاسألوها : أترضى بذلك البيع أم لا ؟

فسألها الدلالُ : قد جعلَ سيدُكِ أمْرَ بيعكِ فى يدكِ ، وقد بلغ ثمنُكِ تسعمائة وخمسين ديناراً ، فهل أنتِ راضيةٌ ؟

فقالتْ : أرِنى الرّجُل الذِى يُريدُ شرائى قَبْلَ أن أُجيزَ البيع .

فجاءها الدلالُ بشيخ عَجُوز ، فحدّقتْ فيه ببصرها طويلاً ثم التفتَتْ إلى الدّلال قائلة : هلْ أصابكَ جُنونٌ ؟!

فقَال : لماذا ؟!

فقالتْ : ألا تخافُ من الله حتى تبيعَنى لهذا الشيخ العجوزِ الذى يَشْتُم زوجه ويرْمِيها بأقبح الأوصافِ ؟! لَقَدْ أضْعفَ الكِبَرُ جسمه وعقله فأصْبَح لا يصحُ شىءٌ سليم فى ذهنهِ .

فقال الشيخُ للدلال غاضِباً : يا أنجسَ الدلالين ، ما جِئْتنا إلا بجاريةٍ بذيئة اللّسانِ ، لا تُنزلُ الناسَ منازِلهم .

فالتفتَ إليها الدلاّلُ قائلا : لا تكونى سيئة الخُلق ، فقدْ اعتديْتِ

على شيخ السوقِ ، وأسأتِ إلى مشورةِ التجار .

فضحِكتْ وقالتْ : لا أَرضَى أن أُباعَ لهذا الشيخ ولو ملأَ حِجْرى ذهباً .

فعرضَ عليها تاجرًا آخر غنيًّا وقال : أرضيت أن أبيعَك إلى سيدى شرف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارا ؟

فنظرتْ إليه فوجدته قد صبَغ لِحْيته ، فقالتْ : لا تزال مُتَّهمًا فى عقلك عندى إذْ تعرِض علىَّ شيخًا فانيًا ، فهلْ رأيتنى روحًا بلا جسدٍ حتى تطوفَ بى على شيخ بعد شيخ ، وكلاهما كأنهُ جدارٌ آيلٌ للسقوط ، أو عفريتٌ محقَهُ النجْم فخرَّ هابطًا ؟ لقد تكاثرَ الغشُّ حتى صار فى اللِّمَم .

فغضب الشيخ الثانى وقال للدلال : يومك أنحسُ من وجهِك ، إذ جئتنا بجارية سَفيهة ؛ ثم لطمهُ على وجهه وتركه إلى دكانه .

فقال لها الدلال : ما رأيتُ أشأم من يومِك ، فقد ضيعتِ فيه رزقى ورزقك ، ببذاءة لسانك ، وقلة حيائك . ثم قابله تاجرٌ يسمى شهاب الدين وزاد ثمنها عشرة دنانير ، فشاورها الدلال فى ذلك ، فقالت : حتى أراهُ وأسأله عن شىء فى بيته

فقال للتاجر : لقد عرفت ما فعلتْهُ بالتجار من قبلك ، وقد شاورْتها فقالتْ : أرنيهِ حتى أسأله عن شىء فى بيته ، وأخشى أن تقابلها فتسمع منها ما لا تحب ، ترجعَ علىَّ بالعتب واللوْم ، فإن أذِنْتَ لى أحضرْتُها إليك ، ولا حَرجَ علىَّ بعد ذلك .

فقال : أحضِرْها ولا لَوْمَ عليك .

فلما حضرتْ قالت :

يا سيِّدى شهاب الدين ، هلْ فى بيتك قِطَعٌ من فَرْشٍ مُسْتديرةٌ ، ومحشُوَّةٌ بقطع من فَرْو السِّنجاب ؟

فقال : نعم ، عندى منها عَشْرٌ ، وماذا تصنعين بها ؟

فقالت : أضعها بعد أن ترقد على فمك وأنفك حتى تموتَ .

ثم التفتَتْ إلى الدلالِ قائلة : يظهرُ لى أنك دلالٌ خائبٌ ، إذْ عرضْتنى بعد الشيخين على رجُلٍ به ثلاثةُ عيوب : قِصرُه ، وكِبرُ أنفه ، وطولُ لحيته .

فلما سمع شهاب الدين هذا قال للدلال :

لا ينبغى لك أن تأتينا بمثل هذه الجارية ، التى لم يسلَمْ تاجرٌ من بذاءةِ لسانها ، وقساوَة لفظِها .

فأخذها الدلال فى يده وانصرف وهو يقولُ : ماذا جنيْتُ يا ربِّ حتى تكون هذه الجارية من حظى هذا اليوم ، فتفضَحَنى بين التجار ، وتقفِلَ فى وجهى باب رزقى ؟!!

ثم وقفَ بها على تاجرٍ يُدعى علاء الدين ، له جَوارٍ وغلمانٌ ، فاستشارها فيه فقالت : إنه أحدب .

فعرضها على تاجرٍ آخر واستشارها ، فقالت : إنه أعمش .

فمشىَ بها قليلًا ثم سألته : إلى أين نذهبُ ؟

فقال : إلى سيدِكِ الأعجمى ، وكفى ما جَرى لِى بِسَبَبِك ؛ فاعتمدتْ هى على نفسِها فى البحثِ عَنْ سيّدٍ يليقُ بها ، وجَعلتْ تلتفِتُ يمنةً ويسرةً حتى وقعَ نظرُها على نور الدين المصرىّ ، فوجدته شاباً فى رونق الشباب ، رَشيقَ القدّ ، وضىء الوجه ، كَحيلَ العيْن ، ضاحك الثغرِ ، فشُغِفَتْ به حبّا ، وقالت للدلال :

ألَمْ يزِدْ ذلك التاجِرُ فى ثمنِى شيئاً ؟ وأشارت إليه .

فقال الدلال : ذلك شابٌ غريبٌ أبوهُ من أكابرِ تجار مِصْر ، جاء إلى الإسكندرية مُنذُ مُدةٍ قَصِيرَة ، ولم يتكلَّمْ فى ثمنِكِ بنقصٍ ولا زيادة .

فنزَعَتْ الجارية من إصْبَعها خاتَمَ ياقوتٍ ، وناوَلَتْهُ إلى الدلال وقالتْ : هذا الخاتمُ لكَ إن اشترانى هذا الشاب ، نظير تعبك معى هذا اليوم ، فاجمعنى به ، فلعلّه يرغَبُ فى شرائى ، فلما كانَتْ بينَ يديْه رأتْه جميلا وَديعاً،فتقدَّمتْ إليه وقالت باللهِ ياسيدى أما ترانى جاريةً مليحة ؟!

فقال : مارأيت أجمل منك !

فقالت : ولكنّكَ لم تزِدْ فى ثمنى شيئا مع التجار ، وكأننى لم أعجبك .

فقال : ليتكِ كنتِ بمصرَ بلدِى ، ولو كنّا هُناكَ لاشْتريتُك بجميع ما أملكهُ من المال .

فقالت : ما أردتُ أن تشترِينى الآن على غير رغبةٍ منك ، ولكنكَ لو زدْتَ فى ثمنى ديناراً واحداً لجبرْتَ خاطرِى ، ورفعتَ قيمتى ، لأن

الناسَ يقولون حينئذٍ ، لولا أن هذه الجاريةَ مليحةٌ لما تقدَّمَ لشرائها هذا الشابّ المصريُّ ، لأن أهلَ مصرَ معروفون بأن لهم خبرةً بالجوارى الحسان .

فاستحيا نور الدين وأرادَ أن يصنعَ فيها هذا المعروفَ ابتغاء وجه الله ، والتفت إلى الدلالِ سائلا : كمْ بلغَ ثمنُ هذه الجارية ؟

فقال : بلغَ ثمنُها تسعمائةٍ وخمسين ديناراً غير الدلالة ، وأمّا رسومُ السلطانِ فإنها علَى البائع .

فقال نور الدين : اشتريتُها بألفِ دينارٍ ، دلالة وثمنًا .

فقالت الجارية على الفور : بعتُ نفسى لهذا الشابّ بألف دينار .
فسكتَ نور الدين ، وظهرت على وجههِ أمارةُ الحيرة .

فقال أحد الجالسين : يستأهِل .

وقال آخر : لعلَّهُ يصغُرُ ويغدِر .

وقال ثالث : ملعونٌ ابن ملعون من يزيد الثمن ولا يشترِى .

وقال رابع : إنه مِصرى ولا بدَّ أنهُ يعرفُ قيمتَها .

وقال خامس : واللهِ إنَّ كلاً منهما يصلُح للآخر ، ولعلَّ الخيرَ فى الواقع .

وأحضرَ الدلال فى الحال القاضىَ والشهودَ ، وكتبُوا عقدَ البيعَ ، وناوله الجاريةَ والعقدَ ، وقال : إنها لا تَصلُحُ إلا لَك ، ولا تصلُح أنت إلاَّ لها ، فلمْ يجدْ بُدًّا من تنفيذ البيع ، وأحضرَ للدَّلال الألف الدينار التى كانت وديعةً له عند التاجر صاحِبِ والده ، وسارَ بالجارية إلى البيتِ

الذى أسكنَه فيه صاحبُ والدِه ، فوجدَتْ فيه أثاثًا قديمًا عتيقًا ، فسألته : أهذا بيتك وأثاثُك ؟

فأجابَها : إنى غريب، وبلدتى مِصر ، وهذا بيتُ تاجر صديق أبى ، أسكننى فيه مدة إقامتى بهذِه المدينة .

فقالت : أقلُّ بيتٍ يكفينا حتى ترجعَ سالمًا إلى بلدِك وأهلك ، وعليك أن تُحضِرَ لنا شيئًا من اللحْمِ المشوى والنُّقْل والفاكهة .

فقال نور الدين : وكيفَ الحالُ ؟ وكيفَ أستطيعُ إحضار شىء ، ولم يكُنْ معى من المال غيرُ ألفِ الدينار التى دفعتها ثمنًا لكِ ، فأصبحتُ لا أملكُ قليلاً ولا كثيراً ؟

فقالت : أليسَ فى المدينةِ صديقٌ يُقرِضُك خمسين دِرهمًا تأتينى بها ، لِأُشيرَ عليك بما نُرِيدُه منها ؟ !

فقال : ليس لى هنا سوى ذلك التاجر صديق والدى ، وإنى ذاهِبٌ إليهِ أسألُه أن يُقرِضَنِيها .

ولما كان نورُ الدين عند التاجرِ سأله عما فعله بالألف الدينار ، فقال : اشتريتُ بها جارية .

فقال : ومن أوقعك فى هذِه الورْطة ؛ جارية بألفِ دينار ؟ ! ! ومَن تكونُ هذه الجارية ؟ !

فقال : نور الدين : جارية من بناتِ الإفرنج .

فقال : أغلى جارية من بنات الإفرنج هنا بمائةِ دينار ، فكيف

تَشتريها بألف ؟! إن كنت يا ولدى قد أحببْتَها فهىَ فى يدِكَ حتى تطمئن إلى مَشوَرَتى ، ولكَ أن تَبيعها بأىِّ ثَمنٍ ولو خسِرْتَ فيها مائتىْ دينار .

فقال نور الدين : تلكَ إرادةُ اللهِ ، وسأجْعَلُ نصحَكَ موضِعَ اهتمامى ، وإنى الآن فى حاجةٍ إلى خمسين درهما أنفقُ مِنها إلى غدٍ حتى أبيعَ الجارية أو يُسَهِّلَ اللهُ لى سبيلاً أرْزَقُ مِنهُ .

فقال التاجرُ : خُذ الخمسين درهماً ، وإنى على استعدادٍ أنْ أمدَّكَ بالمال مرتين وثلاثاً إلى عَشر ، وبعدَها لا أُعطيك شيئاً ، ولا أرُدُّ عليك سَلاما ، وقد يكونُ ذلك سبباً فى القطيعة بينى وبيْنَ أبيك ، فاجتهد ألاَّ تكون سبباً فى افتراقنا ، وقَطْعِ حَبْلِ الصَّدَاقةِ بينى وبين والدِكَ .

ودخَلَ على جاريته وفى يدهِ الخمسون درهما ، وأخبرَها بما حصَلَ بينه وبيْنَ التاجرِ ، فقالتْ له : اذهَب إلى السُّوق واشْترِ حريراً ذا ألوان خمسةٍ بعشرين دِرهماً ، وخُبزاً ولَحْماً وفاكهةً ومَاءَ وَرْدٍ بثلاثينَ دِرهَماً ،

فخرج إلى السوق وأحضَرَ لها ما أمرتْ به ، فقامَت لِساعَتِها ، فجهَّزت الطَّعامَ ، وأكلاَ وشرِبا ، ثمَّ ذهب هو إلى فراشِهِ ونام : أما الجارية فإنَّها صنَعَتْ من الحرير زُنَّاراً بديعَ الشكلِ جميلَ الصُّنْعِ ، ثم وضعتهُ تحتَ المخدة ونامت . وفى الصباح صلّيا وأكلا ، ثمَّ مَدَّتْ يدَها تحت المِخدَّةِ وأخْرجَت الزُّنَّارَ ، وقالتْ لسيِّدها : بِعهُ فى السُّوق ولا تفرِّطْ فيهِ إلاَّ بعشرين ديناراً .

فسألها : ومنْ أين جاءكِ هذا الزنّار ؟

فقالتْ : صنعتُه بيدى وأنت نائم ، من الحريرِ الذى اشتريته .

فقال : حريرٌ بعشرين درهما يُعملُ منه فى ليلةٍ واحدةٍ شىءٌ يباعُ بعشرين دينارا ؟ !

فقالت : أنتَ لا تعرفُ قيمته ، فاجعل الدلالَ يقومُ ببيعِهِ ، ولا تبع إلا إذا كان الثمن عشرين ديناراً .

خرج نور الدين إلى السوق وقابل الدلال وأعطاه الزنار ، وأمره ألا يبيعه بأقل من عشرين ديناراً ، على أن يدفع المشترى أيضاً سمسرة الدلال .

أخذ الدلال الزنار ، وعرضه فى السوق ، وبعد ساعةٍ حضر إلى نور الدين وقال : قم لتأخذَ ثمن الزنار ، عشرين ديناراً ؛ ففرح وقام بينَ مُصدّقٍ ومكذب .

فلما أخذها عجب غايةَ العجب ، واشترى بها جميعها حريراً ليُعملَ منه زنانير ، ثم رجعَ إليها وناولها الحرير ، وقال : اصنعى منه زَنانيرَ ، وعلميني صُنعها ، فإنى ما رأيتُ أخفَ منها صنعة ، وأعظم ربحاً ؛ فضحكت الجارية وقالتْ : اذهبْ إلى صاحب أبيك واقترضْ منه ثلاثين درهما ، وأحضرْ بها طعاماً كما فعلتَ بالأمس ، وبلِّغْهُ أنكَ سترُدّ إليه الثمانين درهما غداً ؛ ففعلَ وأحضر إليها اللحم والخُبزَ والنُّقلَ والفاكهة ، فأعدّت من ذلك مائدة فاخِرة .

ولما جاء الليلُ ونام ، قامت الجاريةُ إلى حريرها فصنعتْ زناراً ، ثم نامتْ ، وفى الصباحِ ناوَلتهُ الزنار على أن يبيعه فى السّوق بعشرين ديناراً ، فباعه وأعطى صاحبَ أبيه الثمانين درهما كما وعده ، وشكر له فضله وحسنَ معونته . فسأله التاجرُ : هلْ بعتَ الجارية ؟

فقال : وكيفَ يبيعُ المرءُ روحه ؟ ! !

فقال : ومن أين جاءتك الدراهم ؟

فحكى له كل شىء ، ففرح التاجرُ وقال : الحمد لله الذى كتب لكَ الخير ، ورزقك من حيثُ لا تحتسب ، واعتقدْ يا بُنى أنكَ فى خيرٍ دائماً ، ما دمتَ نقى السريرة ، مخلصاً لله فى عملك ؛ ثم ودّعه وذهبَ فاشترى الطعامَ له ولجاريتهِ حسبَ عادته ، ورجعَ إلى بيته .

ولم يزالا على هذه الحال ، من صُنع الزنانير كُلَّ ليلة وبيعها ، وادخار ما بقى من ثمنها سنة كاملة ، وفى ذات يومٍ أمرته أن يشترىَ لها حريراً ، من ستة ألوان ، فأحضرهُ وصنعتْ له منديلا وضعهُ على كتفه ، ومشى به فى السوق فنالَ إعجاب التجار والأعيان .

(٣)

وفى ليلةٍ من الليالى استيقظ نور الدين على بكاء جاريته ، فسألها : ما بالك تبكين ؟

فقالت : فراقٌ أحسَّهُ قلبى فبكيتُ من ألمه .

فقال : وما الذى يفرّقُ بيننا وقد أصبحتِ روحى ونورَ عينى ؟!

فقالتْ : وأنت حياتى ، ولكن حسن الظنّ بالأيام من أسباب الحسرة والآلام .

ثم قالت : يا سيدى نور الدين ؛ إن كنت حريصاً على عدم افتراقنا فخذ حذرك من رجلٍ أعجمى إفرنجى ، بعينهِ اليمنى عَوَر ، وبرجله اليسرى عَرَج مُغبرّ الوجه ، كثيف اللحية ، فلن يكون سبباً فى افتراقنا أحدٌ غيره ، وقد رأيته فى هذه المدينة ، وأعتقد أنه ما جاء إليها إلّا فى طلبى .

فقال لها : لا تخافى ، فإنْ رأيته قتلته .

فقالت له الجارية — وكانت تسمَّى مريم الزنارية — : ابتعدْ عنه ، فلا تقتله ، ولا تُكلمه ، ولا تبايعْه ، ولا تعاملْه ، ولا تجالسه ، ولا تُماشه ، واقطع صلتك به ، ولا تجعلْ له سبيلا إليك ، وادعُ الله أنْ يكفينا شره ومكره .

وفى الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب إلى السوقِ ، فجلسَ على مصطبةٍ يتحدثُ هو وأبناء التجار ، فأخذته سنةٌ من النوم ، فتركهُ أبناء التجار نائماً ، فمر به الرجلُ الأعجمى الأعورُ الأعرجُ ، الذى تخشاه جاريته مريمُ ، والذى حذّرته أن يتصلَ به .

وجلس الأعجمى بجانبه ، وجعل يقلبُ فى أطراف منديله الذى كان قد وضعهُ على وجههِ ، فأحسّ نور الدين واستيقظ ، فرأى ذلك الأعجمى الذى وصفتْه مريم ، فصرخ فى وجهه صرخةً عالية ، اهتز لها بدنه ، فقال :

لِمَ تصرخ فى وجهى ، فهلْ فعلتُ شيئاً تكرههُ أو تنكرُه ؟ !

فقال نور الدين : يا ملعونُ ، لوْ فعلت شيئاً من هذا لذهبتُ بك إلى الوالى .

فقال الأعجمى : يا فتى ، بحقّ دينك وعقيدتك ، أخبرنى : من أين لك هذا المنديل ؟

فقال نور الدين : إنه من صنع والدتى .

فقال : أتبيعُه لى ؟ !

فقال نور الدين يا ملعون ، لا أبيعُ هذا المنديل لك ولا لغيرك ، لأنها عملته لى ، ولم تصنعْ غيره ، فقال الأعجمى : إن بعته لى دفعتُ ثمنه خمسمائة دينار لك الآن ، وبعد ذلك تصنعُ هِى لك منديلا غيره أحسن منه .

فقال نور الدين : ذلك منديل لا نظير له فى المدينةِ ولن أبيعَه أبداً .

فقال الأعجمى : أشتريه منك بستمائة دينار من الذهب الخالص .

ولكنّ نور الدين لم يرضَ أن يبيعه ، فجعل الأعجمى يزيد فى ثمنه حتى كان ألف دينار ؛ وكان قد حضر جماعة من التجارِ ، وسمعوا هذا كلّه ، فقالوا : نحنُ بعناكَ هذا المنديل فادفع ثمنه فوراً ؛ فأبى نور الدين أن يبيعه ، فمال عليه أحد التجار وأسرّ إليه :

إن هذا المنديل قيمته على الأكثر دينار ، وهذا الأعجمى يدفعُ فيه ألف دينار ، فكيفَ لا ترضى وربحكَ فيه يزيد على تسعمائة دينار ؟ !

إن الحزمَ يقضى أنْ تبيعه ، وتجعل من صنعهُ لك يصنع غيره ، ويبق

لك الربح الوفيرُ ينفعك ويعينك على حوادث الأيام .

فغرته كثرةُ الربح ، وباعَ المنديلَ ، وأخذ الألف الدينار .

ثم هم أن يرجعَ إلى جاريته ليبشرها بما حصل عليه من ربح عظيم ، فقال الأعجمى : احجزوا نور الدين فأنتم وهو ضيوفى هـذه الليلة ، لأن عندى خروفاً سميناً ، ونقلا ، وفاكهة كثيرة ، وأحبُّ أن يأتنس بكم منزلى هذه الليلة ، فلا يتأخر منكم أحد .

فألح التجارُ على نور الدين أن يبقى معهم ، وحلفوا عليه ألّا يفارقهم تلك الليلة ، وقاموا لساعتهم فأقفلوا دكاكينهم وأخذوا نور الدين معهم إلى قاعة الأعجمى الذى صحبهم ، وكانت نظيفةً مطيَّبة ، ذات إيوانين ؛ فجلسوا على كراسيها المصفوفة ، وأمامهم سفرةٌ عجيبة الشكل ، غريبة الصنع ، نالتْ إعجابهم ، ثم وُضعَ عليها أوانٍ من البلور والصينى ، مملوءةٌ بأصناف النقل والفاكهة ، ثم جعل يشوى من لحم الخروف ويضع على السفرة أمامهم ، وهم يأكلون ، وظل يقدم لهم من النقل والفاكهة حتى أتخمهم ؛ ثم هيأ لهم جميعاً مجلس غناء جميل قضوا فيه الليل إلا أقله ، وأحس الرجل الأعجمى أن نور الدين بدأ يخف تعلقه بجاريته مريم على غير رغبة منه ، فعرض عليه أن يشتريها ، فنفر نور الدين ، فما زال به الرجل يغريه ، والتجار يعاونونه فى الإغراء ، وتقرب منه الأعجمى ولاطفه وصرف الحديث عن هذا الموضوع قليلا ، ثم عاد إليه ، وجلس بجواره وقال :

هل تبيعُنى جاريتك التى اشتريْتَها بألف دينارٍ منذ سنة ، وسأدفع لك

ثمنها خمسة آلاف دينار ، فأبى نور الدين أن يبيعها ؛ فجعل الأعجمىُّ يزيد في ثمنها حتى بلغ عشرةَ آلاف دينار .

فقال نور الدين بعد أن ضاق بالأعجمى والتجار : بِعْتُكَها بعشرة آلاف دينار .

ففرح الأعجمى وأشهد عليه التجار ، وباتوا فرحين .

وفى الصباح أمر الأعجمى غلمانه أن يُحضروا له عشرة آلاف دينار فأحضروها ، ثم قال يا نور الدين خُذ العشرة الآلاف دينار ثمن جاريتك التى بعتها لى الليلة الماضية أمام هؤلاء التجار .

فقال نور الدين وقد أفاق من تعبه : يا ملعون ، ما بعتُك شيئاً ، وأنت تكذب علىّ الآن .

فقال الأعجمى : كيف تكذّبنى وهؤلاء شهود على صدقى فيما أقول ؟

فقال التجار : يانور الدين ، لقد بعتَه جاريتك الليلة الماضية أمامنا بعشرة آلاف دينار ، ونحنُ شهودٌ بذلك عليك ، فخذ ثمنها ولا تطرُدْ نعمة ربّك ، أتكره أن تشترى جاريةً بألف دينار ، ثم تربحُ فى ثمنها تسعة آلاف دينار ؟ ! إن كانت جميلة فى نظرك فغيرُها أجملُ منها ، والذى خلقها خلق غيرَها ، ومعَك ربحٌ عظيم تستطيعُ أن تشترى به مَنْ تشاء من الجوارى ، أو تتزوج منه بإحدى بنَاتنا ، وتتّخذ بقية الربح رأسَ مالٍ لتجارةٍ تنال منها ربحاً وفيراً ، ورزقاً واسعاً ، وما زالوا يرغبونه فى إتمام البيْع حتى رضِى ، وحضر القاضى وكتب عقد البيع وتسلّم الثمن .

(٤)

أما مريم الزنارية فقد لبثت تنتظر نور الدين فلم يعدْ ، ولما انتصف الليلُ ولا يزال غائباً جعلت تبكى بُكاءً مُرًّا ، فأحسَّ التاجر صاحب أبيه منها هذا البكاء ، وأرسل إليها زوجته لتسألها عما يبكيها ، فقالت : تأخر سيدى نور الدين إلى هذا الوقت ، وأخافُ أن يكون أحدٌ قد دبَّرَ له مكيدة حَبسْته عنّى ، أو جعلتْهُ يَبيعُنى ، وتأخر من أجل ذلك عن العودة إلى بيته .

فقالت : إنا نعلمُ أَن سيّدكِ لن يَبيعك بملء هذه القاعة ذهباً ، وربما أتى إليه جماعة من عند والده بمصر ، فأَحبَّ أن يُكرمهم فى المكان الذى نزلوا فيه ، ولم يشأْ أن يجىء بهم إلى هذا البيت لأنه يحبُّ أن يبقى أمرُكِ خفيًّا ، أو لأن البيت لا يليق بهم ، ففضّل أن يلبث معهم تلك الليلة ، وفى الصباح سيكون عندكِ إن شاء الله تعالى فلا تحزنى وسأَبيت مَعكِ هذه الليلة ، لأزيل عنكِ هذا الهمَّ حتى يحضر سيدك وتفْرَحى بلقائه .

وفى الصباح رأت مريم سيدها نور الدين قادماً فى الزقاق ومَعَهُ الأعجمى وجماعةٌ من التجار ، فاقشعَرَّ بدنُها ، واصفرَّ لَوْنُها ؛ فسألتها زوجة التاجر عما طرأ عليها ، فقالت : صَدَقَ ظَنّى وسأَتجرَّعُ ألم الفراق ، أما قلتُ لكِ يا سيدتى : إن سيدى قد خُدِعَ وباعنى ؟! وإنى لا أشكُّ الآن فى أنه باعنى إلى هذا الأعجمى الذى كثيراً ما حذرته مِنه ، ولكن لا يمنع حَذرٌ من قدر .

فلما دخل عليها سيدها نور الدين ، اغبرَّ وجههُ من الحُزن ، وضاق صدره من الألمَ ؛ واغرَورقت عُيناه بالدموع لقُرب الفراق .

فقالت له مَريم : كأنك بِعتنى الليلة يا سيدى ! !

فتنَفَّس الصُّعداء وقال : هِىَ المقادير لا يُغنى فيها حذر ، وإن كنت أخطأتُ فما أخطأ القدر .

واعتذرَ نورُ الدين للجارية وقال : تلكَ خديعةٌ أُحكِمَ تدبيرُها فوقعتُ فيها ، وأرجو من اللهِ الذى قضى علينا بالفراق ، أن يمنَّ علينا عاجلاً بالتَلاق ، فهو القاهرُ القادرُ ، وهو الذى يتولَّى الصابرين .

وتقدمَ الأعجمى إلى الجارية يُقبلُ يدها ، فلطمتْه بكفِّها على وجْهِهِ ، وقالتْ :

ابتعدْ عنى يا ملعون ، فما زِلت تجدّ فى طلبى ، حتى خدعتَ سيدى ، ولكنْ إن شاء اللهُ لنْ يكون إلا كلُّ خير .

فضحك الأعجمىّ ضِحكةً صفراء ، وقال : لا ذنب لى فى هذا ، فسيدُكِ هو الذى باعَكِ راضياً مختاراً ، ولو أنه يُحبُّكِ ما فرط فيك ، ولكنّ قلبه خلا من حُبّكِ فباعكِ .

(٥)

وكانتْ مريمُ الزنارِيةُ هذه بنتَ ملكِ مدينةٍ من مدائن « الإفرنج » ، وكانت مدينةً ممتدةَ الأطراف ، واسعةَ النواحى ، كثيرة المصانع ، عامرةَ

بالسكان ؛ تشبه مدينة القُسْطنطِينية ، ولخروجها من مدينة أبيها حديثٌ عجيبٌ نسوقهُ إليك :

اهتمَّ أبوها وأمها بتربيتها تربيةً كاملة ، فتعلمت الكِتابةَ والحساب، والفصاحة فى القول ، والفُروسية والشجاعة ، وكثيرًا من الصناعات : مثل الزركشة ، والخياطة ، والحياكة ، وصناعة الزنانير ، ورمى الذهب على الفضة ، ورمى الفضة على الذهب ؛ ومُنحتْ إلى ذلك الجمالَ الرائع ، والحسن الذى لا نظيرَ له ؛ فكانت فريدةَ عصرِها ، واعتزَّ بها أبوها وأمها ، حتى أن أباها لم يرض أن تفارقه ، فأبى أن يزوِّجها ، على الرغم من كثرة الطالبين لها من ملوكٍ وغيرهم من العظماء ، ولم يكنْ له بنتٌ غيرها ، وإنْ كان عنده أبناء ذكور كثيرون .

مرِضتْ ذات مرة مرضاً أشرف بها على الموت ، فنذرَتْ إنْ هى شُفيتْ أن تزور الدَّيْر فى الجزيرة ، وهو ديرٌ معظمٌ عندهم ، يتبركون بزيارتِهِ ، وينذرون له النذور .

ولما عوفيتْ من مرضها هذا فرِح أبوها ، وسهل لها سبيل الوفاء بنذْرها ، وزيارتها ذلك الدير فى الجزيرة ، فأرسلها فى مَرْكبٍ ومعها جماعةٌ من بنات الأعيان وكُبراء المدينة .

وكان فى البحر مراكبُ للمسلمين فوقع مركبُ مريم أسيرًا لأحد مراكب هؤلاء المسلمين ، وسيقَ مَن فيه إلى القَيْرَوان ، وهناك بيعت البناتُ ، واشترى مريمَ تاجرٌ أعجمى من التجار ، وكان طاعناً فى السن ،

فاتخذها خادمةً له ، واتفق أن مرضَ هذا التاجرُ مرضًا خطيرًا كاد يقضي عليه ، وطالتْ مدتُه ، وأخلصتْ مريمُ فى خدمته مدة مرضه حتى شفاه اللهُ ، وأحبَّ أن يُكافئِها على خدمتِها ، وعطفها عليه فى أثناء مَرضه ، فطلب منها أن تقترح ما تشاء من أنواعِ المكافأةِ ، فقالت : لا أريد شيئًا إلا أنك لا تبيعُنى إلا لمن أريدُه وأختارُه .

فقال : لكِ ذلك ، وقد جعلتُ أمرَ بيعكِ بيدكِ ، ففرحتْ لذلك فرحًا عظيمًا ؛ وكان هذا الأعجمى قد عرض عليها الإسلام فأسلمتْ ، وعلَّمها الفقه ، وحفَّظها القرآنَ الكريم وكثيرًا من الأحاديث النبوية ، ولما جاء بها إلى مدينة الإسكندرية باعها على النحو الذى قرأتَه إلى نور الدين .

أما أبوها فلمَّا بلغه ما حلَّ بها وبمَنْ كُنَّ معها من بنات الأعيان ، أرسلَ فى طلبِها أشدَّ وزرائِه مكرًا ، وأعظمَهم حيلةً ، وأحكمَهم تدبيرًا ، وأقساهم شدةً وعنفًا ، وهو ذلك الوزير الأعرجُ الأعورُ ، فأخذ يبحثُ عنها فى جزائرِ البحرِ جزيرةً بعدَ جَزيرة ، حتى انتهى به المطافُ إلى مدينة الإسكندرية ، وكان ما كان من احتيالهِ ومكرِه ، حتى اشتراها من نور الدين وأصبحت فى يده ؛ ولما رآها حزينة باكيةً قال لها : لا ينفعُكِ هذا الحزن ؛ ولا أنتِ مستفيدةٌ شيئًا من هذا البكاء ، ومن الخير لك أن تقومى معى إلى مدينة أبيك ، مسقطِ رأسك ، ومشرقِ عزِّكِ ، ودار مُلكِك ، ومحلِّ نعيمك وهناءتِك ، وخلِّى عنكِ هذه الغُربةَ

وهذه المهانة ، وكفانى ما لاقيتُه من عناء السفر وتعبه فى البحثِ عنكِ قُرَابة سنة ونصف سنة ، وقد أمرَنى والدُك أن أشتريكِ ولو بلغَ ثمنُك ملء مركب ذهباً ، ولم يزل يسترضيها وهى تأبى عليه ، ويشتدّ غضبُها فى وجههِ ، حتى قالت له :

إن أملى فى الله عظيم ألَّا يبلّغَك فى أَمَتِه ما تريد .

ثم همتْ لتقوم معه معتمدةً على ربِّها ، مُسْلِمة إليه وجهها ، راجية منه أن يبلغها هى مُرادها ، وتقدم إليها غِلمان الوزير ببغلةٍ عليها سرجٌ مُزركش ، وأركبوها تلك البغلة ، وحملوا فوق رأسها مظلة غطاؤها من حرير ، وقوائمها من ذهبٍ وفضة ، ومَشَوْا بها حتى أنزلوها فى قاربٍ صغير ، سَبَحُوا به فوق الماء حتى وصلوا إلى مركبٍ كبيرٍ كان فى انتظارهم ، فلما ركبوه أمر الوزيرُ ربّانه أن يُقلع بهم فى عرض البحر إلى مدينة أبيها ، واستمرت مريم شاخصة فى حزنٍ وبكاء إلى مدينة الإسكندرية حتى غابت واختفت .

(٦)

ضاقت الدنيا على سعتها فى وجه نور الدين بعد سفر مريم ، ودخل قاعته التى كان مقيما بها ، فرأى عُدَّةَ مريم التى كانت تصنع بها الزنانير ، ورأى ثيابها ؛ فضمَّها إلى صدره وبكى ، ثم نهض مُسرعاً ، وخرج يجرى إلى البحر الذى سافرت فيه ، فنظر إليه متأملاً باكياً ، وقال :

يا مريم ؛ أكانت رؤيتى لك مناماً أم أضغاث أحلام ؟!

فطلع شيخٌ عليه من مركَبه ، وقال :

يا بُنىّ ، كأنك تبكى الجاريةَ التى سافرت البارحة مع الإفرنجى الأعور الأعرج ؟!

فقال : نعم يا سيدى ، ولا بلّغه الله فيها مرادَه .

ووجده الشيخُ فتًى وَضىء الوجه ، جميل الخلْق ، فصيحاً رقيق العواطف ، مشتَّتَ الفكر ، حزين القلبِ ؛ فرَق الشيخُ لحالة ، وعزم على أن يساعده ، وكان رئيس مركب مسافرٍ إلى مدينة أبى مريم التى سافرَتْ إليها ، وفيه مائةٌ من تجار المسلمين ، فقال له : لا تحزن يا بنىّ ، واصبرْ صبراً جميلاً ، فإنى موصلُك على مركبى هذا إلى من تحبُّ وتهوى .

فقال نور الدين : أكرمك الله وأعانك ، ومتى تسافرُ ؟

فقال : بعد ثلاثة أيام .

ففرح نور الدين : وتوجه إلى سوق المدينة ؛ فأحضر ما يحتاجُ إليه من زادٍ مدة سفره ؛ وسأله الشيخ :

ما هذا الذى جئت به من السوق ؟

فقال : زادى وما أحتاجُ إليه فى سفرى .

فضحك وقال : هل أنت ذاهبٌ إلى عمود السَّوارى بالمدينة ؟ إن بينك وبين المدينة التى تقصدُها مسيرة شهرين إذا طابت الريحُ وصلح الجوُّ ، فأخذ منه بعض النقود ، وذهب إلى السوق ، فأحضر له ما يكفيه

من الزَّادِ مُدة سفره، وبعد ثلاثة أيام أقلع بهم المركب، ولبثوا مسافرين واحداً وخمسين يوماً، ثم طلع عليهم قُرصانُ البحرِ من الإفرنج، فأسروا المركب ومن فيه، وذهبوا به إلى مَلِك المدينة، والدِ مريم الزنارية، فأمَرَ الملك بحبسهم جميعهم وفيهم نور الدين، وكان الوقت الذى ذهب فيه هؤلاء الأسرى إلى السجن هو الوقت الذى وصل فيه المركب الذى به مريم الزنارية ابنة الملك.

بلغ الملك نبأ وصولِ ابنته، فنهض فرِحاً مسرعاً بجنوده وحاشيته إلى الساحل لاستقبالها، وذاع الخبرُ فى المدينة فلبستْ زينتها، وانتشرتْ أفراحُها، وطبَّق أجواءها أصوات الطبول والمزامير فرحاً بقُدوم مريم، وهناك على الساحل قابل الملك ابنته، وضمَّها إلى صدْرِه وقبَّلها، ثم أركبها جواداً مُطهَّماً، وسار بها فى حَفْلٍ رائع إلى قصرِه، حيث قابلتها أمُّها فى فرحٍ وشوقٍ عظيمين، وكانت أمُّها مُتلهفةً على معرفةِ حال ابنتها، فسألتها عنها فقالت:

لقد هدَّدنى بالضرب تاجرٌ اشترانى ثم باعنى إلى آخر، وصرتُ أنتقلُ من تاجرٍ إلى تاجر حتى أنقذنى ربى.

وكنتُ الآن بين يديك، فلا تزعجينى بالحديث فى أيام أسْرِى، وضَعى عليها غِطاء الكتمان. فاغتاظت أمُّها وأخبرتْ فى الحال

زوجها ، فعرضَ الأمر على رجال دولته ، فقالوا :

لقدْ عذَّبها من أسروها ، ولا يُثأر لها إلا بضَرْبِ مائة رقبةٍ ممن أسرناهم ، فأمر الملكُ فى الحال بإحضار الأسرى المسجونين ، وفيهم نور الدين وضرب أعناقهم بين يديه ؛ فجعلوا يضربون أعناقهم واحدًا بعد واحدٍ ، حتى لم يبق إلا نور الدين ، وبينما هُمْ يتقدمون به لضرب عنقه إذ طَلعَ على الملك امرأة عجوز راهبة ، فقالت :

أيها الملك ، لقدْ كنت نذرتَ لكل كنيسة خمسةً من الأسرَى إنْ ردَّ الله عليكَ ابنتك مريم ، فهلّا وفيتَ بنذرِكَ ؟

فقال : لم يبْقَ عندى إلا واحدٌ منهم فخذِيه الآن ، وعند ما يقعُ فى أيدى أسرى غيرهم أبعثُ إليك بأربعةٍ منْهم ، ولو عجّلت بالمجىء قبل أن أقتلهم لأعطيتك حاجَتك منْهم .

فشكرت العجُوز للملكِ جميلَ عطفه على الكنيسة ، ودعَتْ لهُ بدوام العزّ والبَقاء ، ثم تقدمتْ إلى نور الدين فوجدتهُ شابًا فتيًا جميلا ؛ ففرحتْ به وأخذته معها إلى الكنيسة ، وهناكَ نزعَتْ عنهُ ثيابه ، وأحضرت له جُبةً سوداء من صوف ، ومئزَرًا أسودَ وضَعته على رأسهِ على شكل العمامة ، وسَيْرًا أسودَ شدتْ به وسطه ، وقالتْ له :

عليك بخدمة الكنيسة ؛ فمكث فى خدمتها سبعة أيام ، وبعدها أقبلت العجوزُ على نور الدين وأمرتهُ أن يلبَس ثيابه الحريرية ، وأعطته عشرة

دراهم ، وقالت : اخرج الآن من الكنيسة ، واذهبْ إلى المدينة ، وتمتع بمناظرها ، وتعرّفْ نواحيها .

فقال لها : يا أمى ، وماذا جرَى ؟!

فقالت العجوز : إن مريمَ بنت الملك تريدُ أن تزورَ الكنيسة هذه الساعة ، وتقرّبَ لها قربانا ، لسلامتها من أيدى الذين أسروها ، ومعها أربعمائة بنت من بنات الوزراء والكبراء ، وإذا وقع نظرهنّ عليكَ قطّعنَك بالسيوف .

فقال لها : سمعًا وطاعة ، وأخذ منها عشرة دراهم ، ولبس ثيابه ، وخرج من الكنيسة إلى المدينة ، وجعلَ يتنقلُ فيها حتى عرفَ نواحيها وشوارعها وطُرقها ومخابئها وأبوابها ، ثم رجع إلى الكنيسة فوجد مريم الزنارية بين البنات كأنها شمسُ الضحا ، فلم يطق صبرًا وصرخ قائلا: يامريم، فذكرها هذا الصوتُ بنور الدين ، وحدّقتْ فيه ببصرها ، فأيقنتْ أنه سيدُها نور الدين ، ولهذا صرفتْ عنه البناتِ اللائى هَجَمْنَ عليه يردْنَ الاعتداء عليه ، وقالت لهن : على رِسْلِكُنّ ، لا تمسَسْنهُ بضُرّ ، فإنه مجنون ، وعلاماتُ الجنون باديةٌ على وَجهه ، ويزدادُ ظهورها شيئًا فشيئًا .

فلما سمع منها ذلك عرف مرادها فتصنع الجنون ، وكشفَ عن رأسه ، وحملق بعينيه ، ولوى شِدْقيه ، وأخرج الزبَدَ من فيهِ ، واضطربَ فى حركاته وسكناته ، فقالتْ مريم :

أما قلتُ لكنّ إنه مجنونٌ وآثار الجنون تظهرُ فيه شيئًا فشيئًا ؟

فأحضرنه بين يدى ، وابتعدْن عنى حتى أستمع لكلامه — فإنى أعرف لغة العرب — وحتى أتبيَّنَ حاله ، وأعرف : هل يمكنُ أن يعالجَ من جُنونه هذا أو لا .

فأطعْنَ أمرها وأحضرنه أمامها ، وذهبن إلى نواحى الكنيسة ، بحيث لا يسمعْنَ من حديثهما شيئا .

قالتْ له مريمُ : ياسيدى وحبيبى ، خاطرتَ بنفْسِك وتصنعت الجنون من أجلى ؟!

فقال : فى سبيلك أفعلُ كلَّ شىء مهما يكن أمره .

فقالت : ألستَ الجانى على نفسك ؟! أما حذرتك هذا كله ؟! لقدْ رأيتُ الوزير الأعور الأعرج فى الإسكندرية فحذّرْتك منه، وقلت : إنه ما جاء إلا من أجلى، فلمْ تسمعْ لى قولا .

فقال : أعوذُ بالله من زَلة العقل ، وخيبة المسعى ، وضعف العزيمة .

وجلسا طويلا يتلاومان ، ويشكوان حُرقة الهوى وقسْوة الأيام ، وكانتْ مريمُ لابسة حلة خضراء مزركشة بالذهب والجوهر ، فظهرتْ فيها جميلةً رائعة الحسْن ، فزاده ذلك هيامًا بها ، وأسفًا على فراقها .

ثم تركتْه مختبئا فى مكانه وذهبتْ إلى البنات ، وكان النهارُ قد انقضى وجاء الليلُ ، فقالتْ لهُن : هل أغلقتن أبواب الكنيسة ؟ فقلْنَ : نعم ، وأحكمنا إغلاقها .

فقالت : هيا بنا إلى مكان السيدة مريم العذراء ، وهو مكانٌ بالكنيسة

يزعمون أن فيه سر مريم العذراء ، فذهبن إليه وتبركن به ، ثم جعلنَ يطفن فى أنحاء الكنيسة ، وبعد أن فرغن من زيارتها قالت لهن مريم : تنام كلُّ واحدة حيثُ تشاء ، أما أنا فلا أزال فى شوق إلى الكنيسة لطول غيبتى عنها ، وأسْرِى فى بلاد مصر .

وتوزعت البنات ، كل منهن أوَتْ إلى ناحية رقدتْ فيها ، أما مريم فإنها ذهبت إلى حيث نور الدين مختبئ ، فرأته فى انتظارها على أحرَّ من الجمر ، وجلسا يتحادثان .

وبينما هما غارقان فى فرحة التلاق ، إذ بغلام الكنيسة يضربُ ناقوسها إيذانا بانقضاء الليل وبإقامة شعائر الصباح .

فقالت مريم : كم يوما لك هنا ؟

فقال : سبعة أيام .

فقالت : هل مشيْتَ فى المدينة وعرفت طرقها ومخابئها وأبوابها من جهة البر والبحر ؟

قال : نعم ، عرفتُ كل شىء فيها .

فقالت : أتعرف صنْدوق النذرِ بالكنيسة ؟

قال : نعم .

فقالت : مادمت عرفت كل هذا فقد هان علينا الأمرُ ، فإذا مضى من الليلة المقبلة ثلثها فاذهبْ إلى صندوق النذور وخذْ منه ما تستطيع حمله ، وافتحْ باب الكنيسة الذى فيه الخوخة الموصلة إلى البحر واخرج ، فإذا

وجدت سفينةً صغيرةً ومد إليك رئيسها يده فطاوعْه وناوله يدك ، حتى يجلسك فى السفينة ، وانتظرنى فيها حتى أجيء إليك ، واحذرْ أن تنام فى تلك الليلة ، فيفوت علينا الغرضُ وتندمُ حيث لا ينفع الندمُ ، ثم ودعته وذهبت إلى البنات ، وخرجتْ بهن من الكنيسة فوجدت الخدم والبطارقة وقوفا أمامها ينتظرون ، فركبت بغلتها تحت مظلتها الحريرية ومشتْ فى حفل من البنات حتى دخلتْ قصر أبيها .

لبث نور الدين مختبئا فى مكانه ، حتى فتحت أبوابُ الكنيسة ودخلها الناسُ ، فاختلط بهم ، وذهب إلى العجوز رئيسة الراهبات ، فسألته :

أين رقدت الليلة ؟

فقال : رقدتُ فى المدينة بعيدًا عن الكنيسة كما أمرتنِى .

فقالت : فعلت الصواب يا ولدى ، ولو بتَّ فى الكنيسة هذه الليلة لقُتِلتَ أشنع قتلة .

فقال : الحمد لله الذى نجانى من شرِّ هذه الليلة بفضل مشورَتك ونصيحتك . وجعل يباشِرُ عمله وخدمته بقية نهاره .

وفى الموعد المضْروب من تلك الليلة أخذ نور الدين ما شاء من صندوق النذر ، وخرَجَ من الباب المعهود إلى البحر ، فوجدَ السفينة فى انتظاره ، ووَجد رئيسها شيخا طويل اللحية ، ومعه عشرة رجال ، فناوله يده وجذبه إليه ، فكان بجواره بالسفينة ، ثم قال الرئيس لمنْ معه من الرجال : هيا بنا سيروا .

فقال أحدهم : كيف نسافر بالسفينة ومولانا الملكُ سيركبها غدا ، ليطوف بها فى البحر ، فإنه خائف على ابنته مريم من قرصان البحر ولصوصه ، فأخرج الرئيس سيفه من غمده ، وقطع به عنقه قائلا : كيف تخالف أمرى ؟

فقال أحد العشرة : وماذا فعل حتى تقتُلَه ؟!

فالتفت إليه الرئيسُ وضرب عنقَه فأطارَ رأسه، ولم يزل يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتلهم جميعهم ؛ ثم التفت إلى نور الدين غاضباً، وقال : انزلْ إلى البرِّ وفُكَّ حبال السفينة حتى نسافر ، نخاف نورُ الدين ونفذ ما أمر ، وسارت السفينةُ فى البحر ، وإن نور الدين ليذُوبُ خوْفاً ورُعباً ، ولم يعلم ما خبأهُ له القدر .

ولما أضْحَى النهارُ مدّ الرئيسُ يدَه إلى لحيتِهِ ونزعها ، فبان من تحتها وجهُ مريم الزنارية ، فعجِب نور الدين ، وكاد يطير فرحاً ، وأيقنَ أن الأيام واتته وصالحتْهُ ، وأنه واصلٌ إلى بُغيَتِهِ ، فشكرت له هذا الشعور الوَفِىّ الكريم ، وقالت فى نفسها : من هذه حالته فهو رجلٌ عظيم النفس كريمُ السجية ، يكره الرذيلة ولا يأتى الدّنية ، وكانت رابطة الجأش قوية القلب .

فقال لها نور الدين : لو أطَلْتِ علىَّ مدة هذه الحيلة لَمُتُّ من الخوف والفزع ، وصدرى ملتهبٌ بنار الاشتياق ، وألم الفِراق .

فضحكت مريمُ وقالت : الآن ذهب خوْفُك ، واطمأن فؤادُك .

ثم أحضرت الطعام والشَّراب فأكلا وشربا ، وعرضت عليه كثيراً من اليواقيت والجواهر ، وثمين الذخائر مما أحضرتْه من خزائن أبيها ، ففرح به وبها ، ومازالت السفينة سائرة بهما حتى رست على ميناء الإسكندرية ، فنزل نور الدين وربطها فى حجر كبير على الشاطئ ، وأخذ معه شيئاً من الجواهر والذخائر وقال لها : انتظرى هنا حتى أحضر لك نِقاباً وحبرَة وإزاراً وخُفّاً، فإنى لا أحبُّ أن تنزلى المدينة إلا محجّبةً مُحتشمة، فقالت: احذر أن تبطئ ، فإنى أخاف أن يكون بطؤك سبباً فى مضرّتنا . فقال : سأعُود إليك أسرعَ من الريح ، وذهب إلى زوجة التاجر صاحب أبيه : ليُحضِرَ من عندها النقاب والحبرة والإزار والخفَّ، ولم يعلم ماخبأهُ له الغيب.

وأصبح والدُ مريم ، وتفقّدها فلم يجدها ، فسأل عنها جواريها وخدمها فقالوا : ذهبت الليلة الماضية إلى الكنيسة ، ولم نعرف عنها شيئاً غير ذلك ، وسمع الملكُ إذ ذاك صرختين عظيمتين تحت القصر ، وجىء له بالصارخين، فقالوا : وجدنا عشرة رجالٍ مقتولين على ساحل البحر ووجدنا سفينة الملك قد فُقدت ، وباب الكنيسة من جهة البحر مفتوحاً ، وبحثنا عن الأسير الذى كان فى الكنيسة فلم نجد له أثراً ، فقال الملك: ما دامت سفينتى قد فقدت فمريمُ ابنتى فيها من غير شك، ثم نادى رئيس الميناء ، وقال له : إن تلحق سفينتى ، وتحضر لى ابنتى ، وإلّا فانى قاتلُك، فسأل هذا رئيسةَ الكنيسة العجوز عما كان يقولهُ الأمير ، فقالت سمعته يقولُ : إنه من مدينة الإسكندرية .

فأمر البحّارة أن يُعِدُّوا أنفسهم للسفرِ فوراً إلى مدينة الإسكندرية ، وجدُّوا في السفر إليها حتى جاءوها في الوقت الذي ذهب فيه نور الدين ليُحضر الملابس إلى مريم ، وكان من جُملة الإفرنج القادمين الوزيرُ الأعورُ الأعرَجُ ، فعرفَ سفينةَ الملك وهي راسيةٌ ، فوقف بسفينته الكبيرة بعيداً ، وبعث بمركبٍ صغير به مائة جُندي ، فلم يجدوا إلا سفينة الملك وبها مريم ابنتُه ، فأخذوها إلى مركبهم الكبير وطاروا على سطح البحر بسُفُنِهم إلى بلادهم ، حتى دخلوا بمريم على أبيها ، وهو جالسٌ في ديوان حكمِهِ ، فلما رآها حدّق فيها بغضبٍ ، ثم قال :

وَيلَكِ يا خائنة ، كيف تركْتِ بلادكِ وبلاد أهلك ، ورحلت إلى بلاد أخرى ؟ ! !

فقالت مريم : ليسَ لي ذنبٌ فيما حصل ، فقد خرجتُ الليلةَ الماضيةَ لأزور الكنيسة وأتبرّك بمكان السيدة مريم ، وفي غفلةٍ منّي هَجم عليَّ لُصوصٌ ، وشدّوا وثاقي ، وحَطوني في سفينتهم ، وسافرُوا بي إلى بلادهم ، فخادعْتُهم وتحدثتُ معهم حتى فكوا وثاقي ، ولكني بقيتُ في ضيقٍ شديدٍ حتى أدركني رجالك ، فخلّصُوني ، وإنّي فرِحتُ بخلاصي منهُم فرحاً عظيماً .

فقال أبوها : كذبْتِ يا خاطِئَة ؛ لأقتلنّكِ شرَّ قتلة ، أما كفاكِ فعْلَتُكِ الأولى حتى تخادعينا الآن ببُهتانٍ جديد ؟! ودخل عليه وزيره الأعورُ فوجده مُصرّاً على قتلها ، وكان يحبها حباً عظيما ، فأشار عليه أن

يزوجها له ، على أن يبنىَ لها قصرًا عالىَ البنيان ، وعليه من الحرس رجالٌ شداد ، فلا يستطيع أن يصل إليها فيه أحدٌ .

فرضىَ الملكُ وأبرمَ عقد الزواج ، وبدأت العمالُ تبنى القصرَ الذى يليقُ بها .

أما نورُ الدين فى الإسكندرية فقد استعار الملابسَ من زوجة التاجرِ صديق والده ، ورجع فلم يجد السفينة ولا مريم ، فاغتاظ وحزن ، ومشى على شاطئ البحر باحثاً متلفتاً هنا وهناك ، لعله يجد أثراً لمريم أو سفينتها فلم يجد شيئاً ، ولكنه سمِع أناساً مجتمعين يقولُ بعضهم لبعض : ضاعت حُرمة الإسكندرية ، وطمِع فيها ضعافُ الأجانب من الفرنجة ، فأصبحت سفُنُها تخطفُ من شواطئِها جهرةً ، وكأنّ جنودنا فقدوا ما لهم من قوةٍ ونخوةٍ ، فلم نرهم طاروا وراء السفينة ليردّوها غصباً وعَنْوة ، وما عهدناهم إلا حُماةً فى شجاعةٍ وعزة ، فسألهم نورُ الدين عمّا جرى فقالوا : جاءت مركب من مراكب الفرنجة ، فاختطفت سفينة من سفن المدينةِ بما فيها ورجعت هاربة ، فاشتد به الحزن وقال :

واضَيْعةَ المسعى ! !

فسألوه عن حاله ، فأخبرهم بقصته ، فأنكروا عليه سوء تصرفه ، وشتموه ووبخوه .

فمن قائل : ولِم لا تخرجُها من السفينة دون نقاب ؟ !

ومن قائل : وهى إفرنجية فلَا عَتْب عليها .

ومن قائل كفاهُ ما جرى له ، وذلك جزاء الغبيّ الذى لا يُحْكِمُ تدبير أمره .

وجعلوا يرجمونه بالكلام القاسى حتى مرّ بهم التاجر صديقُ أبيه ، فوقف يتبينُ أمرَه ولما عرف القصة غضب ، وقال : ولماذا لم تخرجْها من السفينة فور وصولها ، وتهربُ بها فى غِمار المدينة ؟ ولكن لا فائدة من الندم الآن ، والبكاء على الفائت نقصٌ فى العقلِ ، فسِرْ معى إلى المدينة ، فلعل الله يرزقُكَ بجارية أجملَ منها وأكملَ ، فتنسى بها تلك الجارية ، وتذْهب عنك ما ألمّ بك من حزن وألم .

فقال نورُ الدين : يا عمّ ؛ لن أنساها ، ولن أسكتَ عن طلبها ، وإن سُقيتُ كأس الرّدَى من أجْلِها .

فقال التاجر : وماذا اعتزمتَ أن تفعله ؟

فقال : سأرجعُ إلى مدينة أبيها فى طلبها ، فإما فزت وإما خذلتُ ، ولن ألقى سلاحى ما دمت قادراً على الجهاد فى عزمٍ وقوةٍ .

فقال التاجرُ : أما سمعتَ المثلَ السائرَ : ما كلّ مرة تسلَمُ الجرّة ! ! ولا تنسَ أنهم عرفوك الآن حقّ المعرفة .

فقال نور الدين : وما كان لمؤمن أن يضعُف قلبُه ، ويترك الجهاد فى حياته خشيةَ الخيْبة ، وإن أُقتلْ فى مَيْدان العمل فهو خيرٌ من أن أموتَ على سرير الفَشل .

واتفقَ أن سفينة فى الميناء كانت على أهبةِ السفر إلى مدينة مريم ،

فركب نورُ الدين فيها ، وساقتْها الريحُ تجرى رُخاء إلى حيث يُريدون .

وكانت سفن الفرنجة منتشرةً فى البحر طائفة حارسةٍ ، وما كادت السفينة التى بها نورُ الدين تَسيرُ ثلاثة أيام فى البحر حتى أسرها مركبٌ كبير من مراكب الفرنجة ، وساقها إلى مدينة الملك والد مريم حيث يُذْبح الأسرى ، وكانوا مائة ، فأمر الملك بذبحهم ونورُ الدين من بينهم ، وبدأ السَّيافُ يقَطِّع رقابهم حتى لم يبق إلاَّ نور الدين ، فارتاب الملك فى أمره إذ رآه أشبه الناس بنور الدين ، وسأله قبل أن يقتله : أَلَسْتَ نور الدين ؟

فقال : إنى رجل يُسمى إبراهيم .

فقال الملك : أَنت نور الدين نفسُه ، وأَنت الذى أرسلتك لخدمة الكنيسة .

فقال: لَمْ أكن فى يومٍ ما نور الدين ، ولا أعرفُ نور الدين ، ولا خدمة الكنيسة ؛ ولكنى رجلٌ اسمه إبراهيم .

وبينما هما فى هذه المحادثة إذ حضر الوزير الأعور الأعرج فقال : لقد فرغتُ من بناء القصر ، وأريدُ أن أذبح على بابه ، قرباناً للكنيسة ، عشرة من الأسرى .

فقال الملك : لقد ذبحتهم جميعهم ولم يبق إلاَّ هذا — وأشار إلى نور الدين — فخذه واذبحهُ إلى أن نمدَّك بالبقيةِ إذا ما وقعت فى أيدينا ، ولما أخذه ارتاب فى أمره أيضاً ، فسأله عن اسمه ، فقال : اسمى إبراهيم .

فقال الوزير : ولكنك قريب الشبه بنور الدين، وربما كنت نورالدين الذى هرب من الكنيسة .

فقال : لا أعرف نور الدين ، ولا أعرف الكنيسة ، وما وطئت قدماى هذه المدينة إلاَّ هذه المرة ، ولكنى رجل يسمى إبراهيم .

فقال الوزير : ما دمتَ مقتولاً فسواء علينا أكنت نور الدين أم كنت غيره ؛ وهَمَّ أن يذبحهُ عَلَى باب قصره ، ولكن العمال قالوا له : لم يبقَ فى أيدينا لإتمام العمل إلاَّ مدة يومين ، والأحسن أن تنتظر حتى نفرغ ثم تذبح من تشاء ، وربما جاءتك بقية العدد ، فتذبحهم دفعةً واحدة وتُوفى بنذرك مرة واحدة .

فأمر الوزير بحبس هذا الأسير « نور الدين » حتى يفرغ العمال من بقية عملهم .

حُبسَ نور الدين مقيّداً عطشانَ جائعاً ، ورأى أن موتته آتية لا ريب فيها ، فرأى أن يفعَلَ فعلةً تقرّبُ إليه أجله ، حتى يخلص من هذا العذاب المصبُوب عليه .

وكان للملك حصانان شقيقان ، أحدهما أشهبُ نقى ، ويسمى سابقاً ، والآخر أدهَمُ كالليل ويسمى لاحقاً ، وكانت الملوك مشغوفة باقتناء أحدهما حتى جعلوا جائزة مغريةً من المال لكل من سرقهما أو سرق أحدهما، وكان قد أُصيب أحد الحصانين بمرضٍ فى عينيه ، وعجز الأطبَّاء عن علاجه ، وكان الملك فى غمّ من أجل ذلك الحصان المريض ، فعرض عليه الوزير

الأعور أن يأخذه عنده ليعالجه ، فرضِيَ الملك ونُقِلَ الحصانُ إلى الإصطبل الذى حبس فيه نور الدين .

ولكن الحصان السليم أزعج الناس من الصياح حُزناً على فراق أخيه، فأمر الملك غلمانه أن ينقُلوه مع أخيه المريض ، وأن يبلغوا الوزير أنه أنعم عليه بهما إكراماً لابنته مريم .

ولما رأى نور الدين الحصان مريضاً بعينيه قال فى نفسهِ : تلك فرصة أخلصُ بها من هذا البلاء ، وذلك أن أدَّعِىَ معرفتى بعلاج الخيل، وأقترح على الوزير أن أقوم بمداواةِ عَيْنَىْ هذا الحصان ، ثم أَضَعَ فيهما ما يتلفهما ، فَأفتح بذلك باباً للتحدُّث عنّى ، وربما وصل إلى مريم خبرى ، فتحتال لخلاصى ، وإن لم يكن هذا فالتعجيلُ بقتلى خيرٌ من هذا العذاب الذى آخرته القتل والفَناء .

ولما دخل عليه الوزير قام إليه وقال : ألَا تحبُّ أن أداوِىَ عينَىْ هذا الحصان ؟

فقال : وهل تستطيع شفاءهما ؟

فقال : نعم .

قال الوزير : إذا أنت شفيت عينيه أعتقتك من الذبح ، وجعلتك تتمنَّى عندى ما تشاء .

فقال : مُرْ أن تفكَّ قيودى حتى أباشر العلاج ، فأمر الوزير وفكتْ قيوده .

قام نور الدين وأحضر زجاجاً بكراً فسحقهُ ، وجيراً لم يُطفأ ، وبعضاً من ماء البصل ، وخلطَ كل ذلك بعضَه ببعض ، ووضعهُ فى عينَى الحصان وربطهما وقال فى نفسِه : ستُفقَأ العينان ، وسيُذاعُ أمرى فى المدينة ، فإما علمت مريم واحتالت لنجاتى ، وإما اغتاظ الملك ووزيرهُ وعجّلا بقتلى ، وعلى كلٍّ حال فقد فعلت هذا وأسلمتُ إلى الله أمرى ، وعلمهُ بحالى يغنى عن سؤالى .

وفى الصباح جاء الوزير الأعورُ ، وفكَّ الرباط عن عيْنى الحصان ، فَوجدَها أحْسن من عيْنى أخيه ، ففرح ونادى :

يا هذا ؟ ما رأيتُ مثلك فى مداواة الخيل ، لقد عجز عن مُداواته كل بيْطرِيٍ فى بلادنا ، وقد فرَّحْتنِى وأزلتَ عنا غمًّا كثيراً ، وقد عفوتُ عنك ، وجعلتُكَ ناظِرًا على خيلى ، ومسكنك الطبقةُ التى فوق الإصطبل ؛ فشكرهُ نورُ الدين ، وحمد الله كثيراً فى نفسه ، وكان البيتُ الذى بناهُ الوزيرُ لمريمَ به شباك يطل على تلك الطبقة التى سكن فيها نورُ الدين ، وألبسه الوزير حُلَّةً سنيّة ، وجعل له مُرَتباً ونفقة ، وقام نورُ الدين بإدارة شئون الخدم على خير ما ينبغى ، وتولَّى هو رعاية الحصانين ، لما يعلم من محبَّة الوزير لهما.

وكان لهذا الوزير بنت بِكْر ، على جانبٍ عظيم من الُحسن والجمال ، وبمسكنها شباك مُطل على الطبقة التى يسكن فيها نورُ الدين ، وكانت تسمعه كثيراً يغنِّى ، فقالت فى نفسها : إن هذا المسلمَ شابٌ جميل فصيح ،

وهو لا شك عاشق مُفارِق ، فإن كان قد عشق مثله فى الُحسن والملاحة فحق له أن يُسيل العبرات ، وإن كان قد عشق أقلّ منه جمالاً فقد ضيّع عمره فى الحسرات .

وكانت مريم قد نقلتْ إلى قصرها الجديد أمسِ ذلك اليوم ، وعرفت بنت الوزير منها ضيق صدرها ، فعزمت أن تذهب إليها ، وتحدثها بما سمعت من هذا الغلام الجميل ، الذى نال إعجابها ، وبينما هى تفكر فى ذلك إذ برسل مريم تطلب بنت الوزير لتذهب إليها للحديث والمؤانسة ، فوجدتها فى قصرها الجديد حزينة مكتئبة ، فقالت لها : مالك أيتها الملكة ضيّقة الصدر ، قلقةً مضطربة ؟

فأجابتها : إن المرء لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، وسأصبرُ حتى يأذن الله لى بالفرج .

فقالت بنت الوزير : فرّجى عن نفسكِ ، وقومى معى إلى شباك القصر ، فإن عندنا فيه شابًّا رشيق القَوام ، حُلوَ المقال ، لم ترَ عينُك أجمل ولا أرقّ منه لفظاً ، ويخيّلُ إلىّ أنه عاشق مُفارق .

فقالت : وكيف عرفت أنه عاشق مفارق ؟

قالت لا يسكت عن قول الشّعر ، والتغنّى به ، ليلَ نهار ؛ وكأنى بالذى يسمعه لا يُحبُّ أن يفارقه .

فقالت مريم فى نفسها مدفوعة بإحساسها ، وإلهامِ شعورها : إن صحّ ما قالته بنت الوزير ، فلا شك فى أنه نورُ الدين .

ثم قامت معها إلى الشباك ، وحدقتْ فيه ببصرها ، فعرفتْ أنه نورُ الدين ، فكتمت مريم أمرها فى صدرها ووقفتْ بُرْهَةً تسمعه وهو يغنّى ، ثم قالت لبنت الوزير : أشكرُ لكِ عطفكِ ومؤانستكِ ، وما كنت أظُن أنكِ تعرفين ما بى من قلق وضيق صدر ؛ ورجعت مريم إلى مكانها ، وعادت بنتُ الوزير إلى قصر أبيها ، تزاولُ شغلها فيه ، ثم رجعت مريمُ إلى الشباكِ وحدها ، لتفرح برؤية نور الدين والاستماع إليه وهو يغنّى . وكذلك أسمعتْه صوتها ، حتى أيقن أنها جاريته مريم ، وانتظر ما كان يتوقعهُ من تدبيرِ حِيلة لخلاصها وخلاصه ، ثم قامت مريمُ إلى قرطاسٍ فكتبت فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامُ الله ورحمته عليك

هذه مَريم الزنارية التى أضناها الشوق إليك ، ترجُو منكَ أن تقوم بعنايةٍ وحذر بما أشير به عليك ، واحذر أن تتكاسل أو تنام .

إذا مضى ثلث الليلة القادمة فجهّز الفرسين للركوب ، ثم اخرجْ بهما حتى تطلُع من المدينة ، وإذا سألكَ أحدٌ : إلى أين تذهبُ ؟ فأجبْه أنك تروضُ الفرسَيْن ، وانتظِرْ فى خارج المدينة حتى أحضُرَ إليك . والحذر الحذر من التكاسُل والنوم ، كتب اللهُ لنا الهرب سالمين من هذه المدينة وأهلها .

جاريتك

مريم الزنارية

ثم وضعتْ الورقةَ المكتُوبة فى منديلٍ من الحرير ، وألقتْهُ من الشباكِ أمام نور الدين ، فقرأ الورقة وعرف كل شىء .

وفى الموعدِ المضروبِ أسْرَج نور الدين الفرسَيْن ، وخرجَ بهما من المدينة ، وقعد ينتظِرُ مريم جاريته .

أما مريمُ فبعدَ أن ألقتْ رسالتَها إلى نور الدين ذهبتْ إلى مكانها المعدّ لها فى قصرِها ، فوجدت الوزيرَ الأعورَ جالساً على حشيّةٍ من حرير ، متكئاً على مخدّةٍ محشوّةٍ بريش النعام ، ولا يزال على استحياء أن يُكلّمها أو يمدّ يده عليها ، فناجتْ مريمُ ربّها بقلبها أن يخلصها من ذلك الوزير الأعرج الأعور .

ثم أقبلتْ هى عليه ، وجلستْ بجواره ، وأخذتْ تلاطفه وتمازحه ، وتقول : ما هذا الإعراضُ ؟ هل هو منك تيهٌ ودلال ؟ ولكن المثل يقول : إذا بار السّلامُ سلمَ القُعودُ على القيام ، فإن كنتَ تهجرُنى ولا تجىء إلىّ فإنى أصِلُك ، وأحبُّ أن أكونَ بين يديك ، أحادثُك وأتمنى رضاك .

فقال الوزير : لكِ الفضلُ كلّه ، يا سيدتى الملكة ، ولستُ إلا خادماً من خدمك ، ولا يمنعنى إلّا حيائى منكِ .

فقالت : دعنا من هـذا الكلام ، وأمرت بمجىء بالطعام والشراب ، فوضعتْ فى الحال أمامهما مائدة ، عليها ما لذ وطاب من لحوم وفواكه وحلويات فجعلتْ تأكلُ وتطعم الوزيرَ حتى شبعا ، ثم أخذت تؤاكله وتضاحكُه وتمازحه ، ثم غافلته ووضعت قرصاً من البنج فى كأس ، وقدمتها

إليه فشربها ولم يدر ما بها فما كاد ينتهي من شربه حتى فقد وعيه وحسَّه ، ونام نومةً عميقةً هي إلى الموت أقربُ .

قامت مريم بعد ذلك إلى خرْجين ، ووضعت فيهما ما استطاعت حمله من الجواهر واليواقيت ، وشيئاً من الطعام والشراب ، ولبستْ حلّة الحرب ، وتقلدتْ سلاحها ، وأخذت معها حلةً ملوكية وسلاحاً ، لسيِّدِها نور الدين ، وخرجت من قصرها فى قوة بأس ، وشجاعة نفسٍ ، إلى نور الدين حيث ينتظرُها خارج المدينة .

جلس نور الدين ينتظرُ مريم ومقاودُ الحصانين فى يده ، فغلبه النوم ونام .

وكانت ملوك الجزائر قد جعلت لمن يسرق هذين الحصانين – أحدهما أو كليهما – مالاً جزيلا ، وكان قد اشتهر بسرقة الخيل فى هذه الأيام عبدٌ أسود ، وطمع فى أن ينال المال الجزيل ويسرق الحصانين ، فاختفى فى تلك المدينة ، وجعلَ يحتالُ لسرقتهما فلم يستطعْ ، وكاد أن ييئس منهما ، وبينما هو سائر خارج المدينة فى تلك الليله المظلمة ، يفكرُ فى وسيلة تمكنُه من السرقة ، إذ حانت منه التفاتةٌ ، فرأى نور الدين نائماً ، وهو مُمسك مقاود الحصانين ، فأسرعَ إليه ونزع المقاودَ من رأسيهما ، وهمَّ أن يركب حصاناً ، ويسوقَ الآخرَ أمامه ، وإذا مريمُ الزنارية مقبلة ، فوضعت خرجاً على حصان ، ووضعت الثانى على الحصان الآخر ، والعبدُ ساكت لم يتكلَّم ، ثم قالت مريمُ : ما لك ساكتٌ لا تتكلم يا نور الدين ؟

فأجابها العبد غاضباً : ماذا تقول أيها الفارس ؟ فعرفتْ من لغته أنه بربرى ، وحدقت ببصرها فى وجهه ، فوجدت مشافره غليظة تكاد تملأ صفحته ، فاغتاظتْ وقالت :

منْ تكون يا شيخ بنى حام ؟

فقال : يا ابن اللئام ، أنا همام ، مزْعجُ القعود والقيام ، وسارق الخيل والناس نيام .

فجردت سيفها من غمده ، وعاجلته بضربة فى عنقه ، فصلتْ رأسه عن جسده ، ثم أخذتْ تبحثُ عن سيدها نور الدين فوجدتُه غارقاً فى نومه ، والمقاود لا تزال فى يده ، فأيقظته مرعوباً ، ووضعت المقاود فى الحصانين ، وأركبته حصانا وركبت هى الحصان الآخر ، وجدَّا فى السير ساعةً من الزمان ، وهما لا يتكلمان ، والخوفُ يملأُ من نفسه كل مكان ، ثم أقبلتْ عليه قائلة : أما حذرتك من النوم ؟!

فقال : كنتُ منهُ فى حذرٍ ، ولا أدرى كيفَ غلبنى ؟ وهلْ حصلَ شيء ؟ فأخبرته بما كان من أمرِ العبد همّام .

فقال : الحمدُ لله الذى نجانا من الظلْم وأهله .

واستمرا سائرين حتى أشرقت شمسُ الضّحا ، وكانا قد وصلا إلى مرْج واسع ، مخضر الجوانب ، تمرح غِزلانه ، وتغرد أطيارُه ، وقد أثمرتْ أشجاره ، وفاحت بالعبير أزهارُه ، وسالَت جداوله وأنهاره ، فنزلا فيه ليستريحا ، وأطلقاَ الحصانين يأكلان من هذا المرج ماطاب لهما ويشربان ،

وجلسا يأكلان ويتحدثان ، فما لبثا أن رأيا غبارا يقرُبُ منهما شيئا فشيئا ، وكان سببه أن الملك ذهبَ حسبَ العرف والعادة إلى ابنتهِ فى صبيحة الليلة التى دخل بها زوجُها فيها ، ومعه كثيرٌ من الهدايا لها ولغلمانها فى قصرها ، فوجد الوزير ملق على الأرض ، يحسبهُ الرائى ميتا وما هو بميت ، ولـكنهُ من أثر البنج فى غيبوبةٍ عميقة ، فاغتمّ الملكُ ، وزاده غمًّا على غمه أنه لم يجدْ ابنته ، فأمرَ بإحضار الماء الساخن والخلّ البكر والكندر ، وخلط بعضها ببعض ، ثم سقاهُ من هذا الخليط مقدار فنجان ، وأنشقه منه ، فتقايأَ الوزير ، وألقى ما كان فى جوفه من البنج فأفاق ، ثم سأله عن ابنته فقال :

لا علم لى بها ، إلا أنّها سقتْنى قدحا من الماء ، فلم أنتبه بعدَها إلا أمامك الآن ، فاغتاظ الملك ، ونزع سيفه من غمـــده ، وضرب به الوزير فى رأسه ، فمات لساعته ، ثم نادى الغلمانَ والخدم ، وطلب منهم الحصانين ، فقالوا :

فقدناهما الليلة ، كما فقدنا كبيرنا معهما ، ولا نعلم شيئا من ذلك ، إلا أننا أصبحنا فوجدنا أبواب القصر مفتوحة ، فقال :

إنى على يقين أن الحصانيَنْ ما أخذهما إلا ابنتى والأسيرُ الذى كان يخدمُ الكنيسة فى المرة الأولى ، وقد عرفتهُ وأردْتُ قتله ، ولم يخلّصْهُ منى إلا ذلك الوزير الأعورُ ، وقد لقى منى جزاءه ، ثم نادى أولادهَ الثلاثة ، وكان لهم من الشجاعة والفروسية حظٌ عظيم ، فأمرهم أن يركبوا فى جنودهم ،

وركب هو معهم ، وساروا فى الطريق الذى ظنوا أن الأسير ومريم ابنته سارا فيه ، حتى طلعوا بغبارهم عليهما ، وهما يستريحان فى واديهما .

عرفت ذلك مريم ساعة أن رأت الغُبار يدنو منها شيئا فشيئا ، فلبست عُدة قتالها ، وركبتْ جوادها ، واستعدت لملاقاتهم ، وقالت لنور الدين : كيف حالك فى القتال ؟

فقال : لا ثبات لى .

فابتسمت وقالت : أنا أكفيك شرهم وإن كانوا عدد الرمل ، فاركبْ أنتَ جوادك ، وكُن دائما خلفَ ظهرى ، وإذا انهزمنا فأَطلق العنان لجوادك ، فلا يلحقه لاحق ، واحذرْ أن تقع وهو يجرى .

ولما رآها الملكُ وعرفها نادى ابنه الأكبر ، وقال : هذه أختك قد برزت لقتالنا ، فابرز إليها ، فإن ظفرت بها فارجع بها أسيرة ، وإلا فاقتلها ومثل بها ، فبرز إليها أخوها الأكبر وقال :

إن لم ترجِعى وتسلمى نفسك فسأقتلك بسيفى هذا .

فضحكتْ مريم غير عابئة وقالت : إنك تطلب منى محالا ، فإنى لن أرجع إليكم مادمتم تضطهدوننى فى حريتى ، وسأسقيك بسيفى هذا كأس الردى . فغضب أَخُوها وحمل عليها فحملت عليه ، ولم يُفلت من يدها إلا مَقتولا ، ثم نادت فطلبت المبارزة مِمَّن يحبُّ أن يلقى حتفه ، ويسفك دمُه .

فحزن الملك لموت ابنه الأكبر ونادى ابنه الأوسط أن يُعجل بقتل أخته ، ويأخذ بثار أخيه .

فقال : سأجعلها طعاماً للوحوش بعد قليل .

وبرز لقتالها ، فاستدرجته حتى طَمع فيها ، ثم حملَتْ عليه حملة عنيفة أَحسّ عُنفها وشدتها ، وحاول الهرب منها فلم يستطع ، ورمته بضربة قوية أردته قتيلا .

ثم جالتْ جوله الفائز المنتصر قائلة : أين فرسانكم وأبطالكم ؟ أين وزيركم الأعور الأَعرج ؟

فالتهب صدر أبيها غيظا ، وطلب إلى ابنه الأصغر أن يبرز إليها ويأخذ بثأر أخويه منها ، فلما كان بين يديها قالت : يا عدو الله وعدو نفسك ، جئت مختارا لأسقيك كأس الردى ، وداورته مداورة الفارس الماهر ، وضربته بسيفها ضربة كان على أثرها من الهالكين ، فوقع الرعب منها فى قلوب البطارقة والفرسان ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتالها ، وولوا أدبارهم هاربين .

فأطرق أبوها خيبةً وفشلا وقال : إن بارزتُها كان مصيرى معها مصيرَ أولادى ، وليس لى إلا الهربُ مع جنودى ، وأرخى العنان لفرسه ، ورجَع خائباً مدحوراً ، فلما كان فى قصره ، جمع كبراء دولته ، وحكى لهم ما فعلتْهُ ابنتُه ، فأشاروا عليه أن يكتب إلى خليفة المسلمين ، ويحكى له قصتها ، فكتب إليه كتاباً جاء فيه :

السلام على أمير المؤمنين ، إن لى بنتاً اسمُها مريم ، أفسدها علينا أسيرٌ من أسرى المسلمين ، فتركت دين آبائها وأجدادها ، واعتنقت دين الإسلام ،

وخرج بها إلى بلاده ، وهو يدعى نور الدين على بن تاج الدين التاجر المصرى ، فمن فضل مولانا أمير المؤمنين أن يأمر بالقبض عليها ، وإرسالها إلينا فى صحبة رسول أمين ، وسنجعل لكم فى نظير هذا نصف مدينةٍ من مدننا الكبرى ، يُحْملُ لكم خراجُها ، وتبنون المساجد فيها .

ثم ختم الكتاب ووقع عليه كُبراء دولته ، وأرسل به أحد وزرائهِ إلى مدينة بغداد ليناوله يده أمير المؤمنين ، ووَعده إن جاء بها أعطاه إقطاع أميرين ، ومنحهُ من الهدايا أعظمها وأغلاها .

(٨)

سافر الوزير ، وجعل يقطع الأودية والقِفارَ حتى وصل إلى مدينة بغداد وسأل عن دار الخلافة فصحبه أحد الناس إليها ، فوجدها عالية البنيان ، ممدودة النواحى ، تبدو عليها أمارات العظمة والجلال ، تزينُها حديقة غناء تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر ، وانتشر فيها الخدم والغلمان هنا وهناك ، فاستأذن على الخليفة ، وهو من هيبة الدار وجلالها فى غمرة ، فأُذِن له ، فوجد الخليفة جالساً فى مقصورة واسعة ، مفروشة بالبُسط الحريرية ، وصفت فيها الكراسى المطعمة بالفضة ، وزينت نوافذها بستائر مزركشة ، وتدلّتْ القناديل من سقفها ، كأنها نجومُ السماء ، وأمامه منضدة من العاج المرصّع بالذهب والجوهر ، ومن حوله وزراؤه وحاشيتُه ، فسَلّم وحَيّا فى أدب واحترام ، وقال :

أنا وَزير ملك الفرنجة ، ورسوله إلى مولانا أمير المؤمنين ، وناوله ما معه من الهدايا الجوهرية ، وكتاب ملكه ، فلما قرأه أجْلسه ، وأمَرَ بإكرامه ، تعظيما لوفادته وتكريمًا ، كما أمَرَ وزرَاءه أن يرسلوا إلى حكام الأقاليم بإحضار مريم ونور الدين إليه . وأن يُبَيِّنُوا لهم أوصافهما حتى يمكنهم العثور عليهما ، وأمر أن يُقيمَ الوزيرُ مكرمًا فى بيت الضيافة ، حتى تمضى المدةُ التى ينتظر أن يُعثر عليهما فيها .

واتفق أن وَصلَ أمر الخليفة إلى حاكم الشام قبل وصول نور الدين وجاريته إلى دمشق بليلة ، فعرفهما العَسَسُ وقبض عليهما وقتَ وصولهما وسألوهما عن أنفسهما ، فحكى نور الدين القصة كما هى ؛ وفرح حاكم دمشق بالعثور عليهما ، وبعثهما إلى الخليفة فى حراسة جماعةٍ من جنوده .

ولما كانا بين يدى الخليفة ووزرائه ورجال أمرِه ونهيه فى مقصورته ، أحضر رسول ملك الفرنجة ، وكان الخليفةُ قد أُعجب بما لمريم ونور الدين من فصاحة ولباقة ، وبما فيهما من إشراق وإبداع .

سلمت مريم على الخليفة ، وحيَّته تحية رشيدة قيمة ، ودعت له بالعز الدائم ، والسلطان القاهر ، الذى يعتز به الدين ، وتعلو به كلمة المسلمين — وكان ذلك فى لغةٍ عربيةٍ فصيحة ، وقولٍ عذبٍ مبين ، وقلب ثابت ، ونفسٍ مطمئنة — فزاد إعجاب الخليفة بها ، وعظمَ إقباله عليها ، واهتمامه بأمرها ، وسألها : هل أنتِ مريم الزنارية بنت ملك الفرنجة ؟

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وعميد الموحدين ،

ومَعْصِمَ الدين ، وابنَ عم سيد المرسلين .

فنشط عجبه وألح عليه الاهتمام بها ، والتفت إلى نور الدين سائلاً :

وهل أنت نور الدين على بن تاج الدين التاجر المصرى ؟

فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وملاذ المظلومين ، وحامى الإسلام والمسلمين .

فعجب الخليفة أيضاً ، أن رآه مثلها فصاحةً ، وسرعة فهم وإجابة .

وقال : وكيف أخذت هذه الفتاة من أبيها ، وهربت بها ؟ !

فجعل يقص عليه ما جرى لهما فى عبارات جذابة ساحرة ، حتى لم يُبق منه شيئاً .

فطرب الخليفةُ وعجب وقال : ما أشدَّ ما تقاسيه الرجال ! !

ثم قال يا مريم إن والدك كتب إلينا أن نرسلك إليه ، فماذا تقولين ؟

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أسبغ الله عليك النِّعَم ، وعصَمَكَ من البؤس والنِّقَم ، أنت خليفةُ اللهِ فى أرضه ، والقائم على شريعته وسنَّة نبيّه ، لقد دخلتُ فى دين اللهِ راضيةً مختارة ، أعبد الله تعالى وأُوَحدُه ، وأسجدُ إليه خاشعةً مؤمنة ، فهل ترضى يا أمير المؤمنين أن تسمع كلام أعدائك ، وتُرسلنى مؤمنة بالله ورسوله إلى بلاد لا تدين بدينك ؟ إنك إن فعلت هذا فإنى مُمْسِكة بعنقك يوم العرض على الله وَشاَ كِيتُك إلى ابن عمك رسول الله ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم .

فقال أمير المؤمنين : يا مريم ، معاذ الله أن أفعل هذا أبداً ! ! فلن

أرُدَّ امرأة مسلمة إلى بلاد تُغلب على أمرها فيها ، وتُفْتَنُ فى دينها .

ثم قال: لن أُفرّط فيك ولو ملئت لى الأرضُ ذهباً ، فاطمئنى ولا تخافى، وهل رضيت أن يكون نور الدين لك زوجاً ؟ فقالت : كيفَ لا أرضى وهو ولىُّ نعمتى ، وسبب سعادتى ، وقد ألقى بنفسه إلى المخاطر من أجلى غير مرة ، ولا أزال غارقةً فى بحر إحسانِه وفضله .

فزوجه إياها أمير المؤمنين بعد أن أعتقها ، فى محضرٍ من القضاة والوزراء والكبراء ، ثم التفت إلى وزير الفرنجة قائلاً :

هل سمعْتَ قول مريم ؛ وعرفتَ ما حكمتُ به فى أمرها ؟ فارجعْ إلى مَلِككَ ، واقصص عليه ما سمعت .

فخرج الوزير غضبان آسفاً ، خائفاً يترقبُ .

وأمر الخليفة أن تقيم مريم وزوجها فى بيتٍ خاص ، وأن تجرى عليهما المرتَّباتُ الشهْرية ليعيشا فى أمنٍ ورخاءٍ وسعةٍ ونعمةٍ .

كيد النساء وكيد الرجال

(١)

كان فيما سلفَ من الزمانِ ملكٌ عزيزُ الجند واسعُ الملك عظيمُ الجاه، بلغَ من الكبر عِتياً ولم يعقِّبْ، وعظم في نفسه أن يموت وليس لهُ ولد يرثهُ في ماله وملكه، فاتق الله في السرّ والعلن، وأكثرَ من فعل الخير والتصدُّق علَى الفقراء والمساكين، وسهر على مصالح رعيَّتِهِ، وساسَهم سياسةً عادلةً مُريحةً، وجعل يدعو ربهُ قائلاً:

اللهمَّ قد وعدت ووعدكَ الحقُّ، فقلتَ في كتابك الكريم: «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبْ»، فارزقني ولدًا

صالحاً وأنت خيرُ الرازقين . فاستجاب اللهُ دعاءهُ ، ورزقهُ على الكبر ولداً أجمل خلقهُ ، وأبدعَ تصويرهُ ؛ فأحسن تربيته ، وعلمه الأدبَ والحكمة والعلم والفروسية ، حتى فاقَ غيرهُ ، واشتهر بالذكاء والخبرةِ وسعةِ المعرفة .

وكان عندَ هذا الملكِ حكيم يسمى السندباد ، فنظر ذاتَ ليلة فى النجوم ، ليعرفَ شيئاً عن حياة ابن الملك ، على حسبِ عادة الحكماء فى الرجم بالغيب والتنبُّؤ بالمستقبل ، وبعد أن أتمَّ الحكيم نظرتهُ ذهبَ إلى الملكِ وقال لهُ :

نظرتُ فى النجوم فعرفتُ أنَّ ابنك ستمضى عليه الأيام السبعةُ القادمة ، ولكنهُ إن تكلم فيها بكلمةٍ معينةٍ كانت سبباً فى هلاكه ؛ فتحيَّر الملك واضطرب وقال للحكيم :

وماذا ترى حتى نحولَ بينه وبين تلك الكلمة التى يلقى بها حتفهُ ؟

فقال الحكيم :

أرى أن تحجزه فى مكانٍ لا يسمعُ فيه إلا الغناء وآلات الطربِ ، حتى تنقضى الأيام السبعةُ .

فأمر أن تحضر إليه جارية من جواريه ، فجاءته جاريةٌ بديعة الحسن باهرةُ الجمالِ .

وقال لها : رغبتُ فى أن يقيم ابنى عندك فى قصر الجوارى سبعة أيام كاملة ، تغذيه معك من الآن ، ولا تسمحى له بمغادرة القصر لحظة واحدة ،

حتى تنتهى الأيام السبعة . وكان فى ذلك القصر أربعون حجرةً ، وفى كل حجرةٍ عشر جوار حسان ، ومع كل جارية آلةٌ من آلاتِ الطرب ، إذا ضربت عليها بيدها رقصتْ لها الأشجار والأبنية ؛ يحيط بهذا القصر حديقة غناء ، كثيرةُ الأشجار والأزهار ، تجرى من تحتها الأنهار .

أخذت الجارية ابن الملك معها فرحة به لأنها كانت تحبه ، وبعد ليلة من مقامه عندها بدا لهُ منها ما أنكره وأغضبهُ ، إذ كاشفته بحبها ، وأرادته لنفسها ، فأنذرها ، أنهُ مبلغ والدهُ بعد خروجه ما قالت ورغبت ، ولا جزاء لها عنده إلَّا القتل ، ليطهر هذا القصر من ذاتها ، ولتكون عبرةً لمثيلاتها .

خافت الجارية على نفسها من الملك و توقعت أن يستمع لقول ابنه فيها ، فعزمت أن تكيده ، وأن تتغدى به قبل أن يتعشى بها ، وذهبت إلى الملك باكية ، فظنَّ شرًّا أصاب ابنه وسألها عنه ، فقالت :

أنقذنى من ابنك يا سيدى ، فقد أراد بى السُّوء ، وأنذرنى قتلا عاجلاً إن لم أطاوعْهُ ؛ فثارتْ ثائرة الغضبِ الأَليم فى نفسه ، حتى أَغلقَ باب الصَّواب فى وجْهه ، وقال على الفور لجاريته :

ارجعى إلى قصركِ آمنةً ، ولابدَّ من قتله ، فإنِّى فى غِنى عن ذرِّيةٍ تنتهك الحرمات ، وتجترحُ فى قصرى السَّيِّئاتِ .

ثم دعا إليه وزراءهُ ، وأخبرهم ما كان من ابنه ، وأمرهم أن ينصرفوا ليقتلوهُ ليُطهِّرَ القصر من عبثِهِ ، فليس من التقوى فى شىء أن تُذْبح

الفضيلة على فراش من حنان الأبوّةِ .

وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام فى ابنه وقد عصاهُ :

« يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ »

انصرف الوُزراء واجتمعوا فى مكانهم يتشاورون فيما يفعلون .

فقال أحدهم : إن الملك أمرنا بقتل ابنه فى ثورة بالغة من غضبه ، فإذا هدأت ثورته تغير رأيه فى ابنه ، وندم على قتله ، وحملنا تبعة التعجيل به ،

وقال آخر : ومن ينجينا من الملك إن بان له خطؤهُ فى حكمه وندم على قتله بعد أن وهبه الله له على اليأس والكبر ؟

وقال آخر : لا يُعْجِزُنا تدبير حيلة نحمى بها ابن الملك من كَيد هذه الجارية ، ولا ينبغى أن نكون فى يدها أداة لِقتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .

وقال الوزير الأَول : وَجب علينا حينئذ أن يُحاول كل منا إرجاع الملك عَن حُكمه ، وإبطال مادبرته الجارية من النكاية بابنه ، وسأبدأ بمحاولتى فى ذلك غداً عند الملك ، ثم انفضَّ مجلسهم وهم متفقون على هذا الرأى .

ذهب الوزير الأول إلى الملك واستأذنه أن يتحدث إليه فى شأن ابنه فأذن له ، فقال الوزير :

لو أن لك مائة ولدٍ ما كان لك أَن تأمر بقتل واحدٍ منهم لِقول جارية لم يتبين صدقها من كذبها ، فكيف طاوعتك نفسك عَلَى قتل ابنك الواحد

الذى رُزقتهُ عَلَى يأس وكبر ، لأن جاريةً رمته بمحاولته الخطيئة ، وقد تكون الجارية فى ذلك واشية كاذبة ، وأرادت أن تكيد لابنك لأمر فى نفسها ، وما أكثر كيد النساء ، وما أخطره فى بعض المواقف ، وما أجمله فى بعضها الآخر ؟ ! ! وسأقص عَلَى الملك شيئا من ذلك إنْ أذن لى .

فقال الملك : قل ما شئت .

فقال الوزير :

كان ملك مغرماً بالنساء والقرب منهن ، فرأى جارية فى بيت من بيوت مدينته ، أعجبه حُسنها وأغرم بها ، فسأل عن صاحب هذا البيت فقيل : إنه لوزيرك فلان ، فدعا الوزير إليه وكلفهُ عملا خارجَ المدينة ، يستغرقُ منهُ يومين أو ثلاثة ، وانتهزَ الملك فرصة غيبته ، وذهبَ إلى الجارية التى أعجبتهُ فى بيته .

فلما رأته عَرفتْهُ ورحبتْ به واستقبلتهُ استقبالاً يليقُ به ، فزاد ذلك اللقاء الكريم رغبته فيها ؛ ثم سألتهُ فى أدبٍ واحترام :

لِمَ هذا القدومُ الميمون أيها الملك العظيم ؟ فقال :

رأيتك فأحببتك ، وجئت لأطفئْ لهيب الشوقِ إليك بالقرب منك.

فقالتْ :

تلك مِنّة كبرى ؛ وهذا حظٌ عظيم ؛ أَنْ أحلُّ فى قلب الملك هذا المحل الكريم ، ولهذا فأنتَ ضيفى اليوم ، وليأذن لى الملك أَنْ أقومَ بإعداد

الغَداء ، ليكون بعد أنْ يَطعمهُ فى حلٍّ مما يشاء .

فأذن لها والفرحُ بها يُضىء صَدْرَهُ ، ثم أَحضرتْ إليه كتاباً وقالت : أرْجو أن يتسلَّى سيدى بالقراءة فى هذا الكتاب حتى أَفرُغَ منْ إعْداد الطعَام ، فقَال لهاَ :

ذلك منك حسنٌ وجميل . وجعلَ يقرأ الكتابَ فإذا كلُّه زَجْرٌ عن الرَّذائل وَنهى عنها، وترغيبٌ فى الفضائل وحثٌّ عليها ، فتضاءلت كبرياؤه، وفَتَرَ ثائر الهوى فى نفسه ، وزاد إقبالاً على قِرَاءةِ الكتاب حتى دُعى إلى الجلوس على المائدة ، فوجد تسعين صَحْفة مملوءة بالطعام ، فجعل يأ كلُ من هذه ومن تلك ومن هذه ومن تلك ، ثم قال للجارية فى عجبٍ ودهشة : أرى الطَّعام مختلفاً ولـكن طعمه واحد ، فكيف كان ذلك ؟

فقالت : أكرم الله الملك وحفظه ، ذلك مثل ضربتهُ للاعتبار والعظة .

فقال : أبِينى عن مُرادكِ . فقالتْ : أصلح الله أمر الملك ، إن فى قَصركَ تسعين جارية مختلفة فى القَوام والجمال ، متباينة فى التأثير على النفسِ ، واستمالة القلب إليهن ، ولـكن الغايةَ واحدة ، لا تختلف فى جارية عنْ أُخرى . فخجل الملك وخرج دون أن يمسها بسوء وذهب إلى قصره ، وقد نسى عندها خاتمه تحتَ الوِسادة ، وهى لا تعرفُ من أمر الخاتم شيئاً .

وبينما هو جالس فى قصره جاءه الوزيرُ صاحب الجارية ، وبلَّغه ما فعله فى غيبته ، ثم حيَّاهُ وانصرفَ إلى منزله .

لقى الوزيرُ خاتم الملك تحت الوسادةِ ، فاغْتاظ وكظم غيظه فى نفسه ،

وحفِظ الخاتمَ عنده ، واختصم الجارية سنةً كاملة ، وهى لا تعرفُ سبباً لاعتزالها وغضبه .

فأرسلت الجارية إلى أبيها ، وقصت عليه أمر الوزير معها ، وهجرَهُ إيّاها سنةً كاملةً دون سبب تعرفهُ ، فقال لها : سأشكوه إلى الملك فى حضرته .

وبينما كان الوزير فى حضرة مليكه دخل والد الجارية بعد أن أذن له الملك ، فقالَ : أيَّد الله الملك ، لى روضةٌ أنشأتها بيدى ، وتعهَّدتها بالإنفاق والرِّعاية حتى طاب جنَاها ، فأهديتها لوزيرك هذا فلان ، فجعل يأكلُ من ثمارها ما طاب له الأكل ، ثم هَجرها وأهملها حتى ذهب رونقها وحال شكلُها .

ففهم الوزير ما يرمى إليه وقال : أيها الملك ، صدَقَ هذا فى قوله ، وقد كان بوُدِّى أن يدوم أكلى من ثمارها والمحافظة عليها ، ولكنى دخلتُها يوماً فرأيت أثر أسدٍ فيها ، نخفت على نفسى وهجرتها . فأدرك الملك ما يرميان إليه ، وفهم أن الخاتم الذى نسيه تحت الوسادة هو أثر الأسد الذى يقصده الوزير ، فقال : دخلها الأسد وحشاً وخرج منها ملَكاً كريماً ، وما مسَّ أحدًا فيها بسوء ، ولا تزال أطهرَ من ماء السحاب ، فارجعْ إليها آمناً مطمئناً ، فقال الوزير : سمعاً وطاعة ، ورجع إلى جاريته فأصلح من شأنها وعاش معها عيشة مرحة هنيئةً ، وقصت عليه ما فعلته بالملك ، وكيف بدّلت من حالهِ ، وأخرجته من بيتها إنساناً فاضلًا طيباً .

قال الوزير الأوَّل : وهذا من مكرهنَّ الحسن الجميل ، وسأذكر للملك الحكاية الآتية :

كان تاجرٌ كثير الأسفار ، والغيبة عن بيته فى شئون تجارته ، وله زوجةٌ جميلةٌ شديدُ الغَيْرة عليها ، ولأجل أن يطمئن قلبه فى غيبته اشترى طائرًا يخبره بما يجرى فى بيته إذا ما حضر ، وفى مرة من مرات سفره ، أحبت زوجته غلامًا ، وكان يأتى إليها فى بيته وتكرمه ، فلما حضر التاجر قال الطائرُ له :

كان غلام تركى يدخل على زوجتك ، فتفْرح بقدومه وتكرمه .

فأخبر زوجتَه بما قال الطائر وهمَّ أن يقتلها جزاء خيانتها .

فقالت له : اتق الله فى زوجك ودينك وعقلك ، كيف تظلم نفسك بقتل نفسٍ بريئة ؟ ! وكيف ساغَ لعقلك أن يصدّق طائرًا لا يعى ولا يفهم ، وإن أردت أن أبيّن لك كذب الطائر على الناس وافتراءه ، فنَم الليلة عند أحد أصحابك ، ثم اسأله فى الصباح عما جرى ، وانظر ما يقول ، فقال : ذلك رأى جميل ، وإن بان صِدقه فإنى قاتلُكِ . فقالت : وحينئذ لا تكون ظالمًا .

ولما جاء الليل ذهب التاجرُ إلى أحد أصدقائه وبات عنده ، أما زوجتُه فإنها غطت قفص الطائر بقطعة من الجلد ، وجعلت تصبّ الماء فوقها صبًا يشبه نزول المطر ، ثم جعلت ترسل ضوء المصباح إلى الطائر فى القفص وتخفيه كأنه برق يلمع ، ثم جعلت تُدِير الرَّحَى مُحدِثة بها دويًا يشبه

دوىّ الرعد ، ودامت على هذه الحال الليلة إلَّا أَقلَّها .

ولما قدم زوجها فى الصباح قالت له : إسأل الطائر عما جرى ، فلما سأله قال : ومن كان يستطيع أن يسمع أو يبصر أو يتحرك فى تلك الليلة التى هطل مطرُها ولمع برقها واشتد رعدها ؟ فقال له : ما شعرنا هذه الليلة بمطر ، وما رأينا برقًا ، وما سمعنا رعدًا ، فقال الطائر : ما أخبرتك إلَّا بما شاهدتُ وسمعتُ ، فقال : كذبت وافتريت ، وربما كنت تخبرنا بما تراه فى منامك ، ثم ذهب إلى زوجته ليتعذَّر لها ويسترضيها ، فقالت : لن أرضى حتى تذبح هذا الطائر الكذاب ، فقام إليه وذبحه .

وبعد بضعة أيام رأى التاجر نفسه الغلامَ التركىَّ خارجًا من بيته ، فذهب إلى زوجته وسألها : هل جاءك أحد هنا ؟ فقالت : لا ، لم يدخل على أحدٌ منذ خرجت إلى أن رجعت بالسلامة .

فندم التاجر على ذبحه الطائر ، وعلم أن زوجته كاذبة خاطئة ، فذبحها وأقسم ألا يتزوج امرأة بعدها ، مخافة أن يقع فى امرأة خائنةٍ مثلها .

قال الوزير الأول للملك : وهذا مثل آخر من كيد النساء ، فلا تعجل بالحكم على ابنك ، فإن العجلة لا تورث إلا ندامةً وحسرةً ؛ فأعرض الملك عن قتل ابنه وسكت .

علمت الجارية بما كان من الوزير الأوَّل ، فجاءت مَلِكها فى اليوم التالى وقالتْ :

كيف ضيَّعت حَق وأهملتَ شأنى ؟! ألأنى جارية وخصيمى ابن ملك ؟!

لقد تهامس الناس أنك أبرمت أمرًا ثم نقضه وزيرك الأول ، وذلك ماس بكرامتك ، ومُضْعِفٌ طاعة الناس لك ، فطاعة الملوك فى إصرارهم على تنفيذ ما أمروا ، وقد عرفك الناسُ بالعدل ، وأنهم أمام عدلك سواء ، فأنصفنى من ابنك ، فقد قيلَ : إنّ رجلا قصّارًا ينظف الثيابَ على شاطئ دِجلة ، وكان يأخذ ابنه معه إلى دجلة كل يوم ، فيسبح فى النهر حتى ينتهى أبوه من تنظيف الثياب .

وذات يوم تعب وهو يسبح فغرق ، فنزل أبوه إليه لينقذه ، فتعلق الولد بعنقه ، وغرقا معاً فى النهر ، وإن لم تنْصِفْنى فإنى أخشى عليك وعلى ابنك سوء العاقبة .

فأثّر فى الملك قولُ الجارية وقال: سأقتل ابنى إنصافاً لك. ثم انصرفت .

وحضر إلى الملك الوزيرُ الثانى ، فقال : إن ابنك وارثُ ملكك ، وهو امتداد لحياتك ، وليس من الهيِّن أن تقتله بوشاية قذفت بها جارية ، وربما ندمت كما ندم التاجر الذى مكرت به العجوز ، فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

كان تاجرٌ أنيقٌ فى ملبسه ومأكله ، سافر إلى بعض البلاد ، فبينما هو يمشى فى سوقها عرضت عليه امرأة عجوزٌ رغيفين ليشتريهما بثمن زهيد، فاشتراهما ورجع إلى منزله فأكلهما . وكذلك فعل فى الأيام التالية مدّة عشرين يوماً ، ثم غابت العجوز وبحث عنها فلم يجدها ، وذات يوم كان سائرًا فى شوارع المدينة فلقيها ، وسلم عليها ثم سألها عن سبب غيبتها ،

فقالت : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تَسُؤْكُم » ، فقال : لا بد أن تذكرى سبب غيبتك ، فقالت : كُنت أخدمُ إنسانًا مريضًا بالحِكّةِ فى ظهره ، وكان طبيبهُ يأخذ الدقيق ويعجنهُ بالماء والسمن ويضعه على مكان الألم مدّة الليل ، وكنت فى الصباح آخذ هذا الدقيق وأصنع منه الرغيفين ، وأبيعهما فى السوق لك أو لغيرك ، ولما مات ذلك الرجل انقطع عنى الدقيق فانقطعت عن صنع الرغيفين ، فاشمأزّ التاجر وتقزّز ، وجعل يتقايأ حتى مرض ومات ، وذلك بما فعلته العجوز من المكيدة للرجال ، ومن الجائز أن تكون الجاريةُ سالكةً سبيل العجوز فى كيدها لابنك الذى يخلفك فى مُلكك . فرجع الملك عن قتله .

وعلمت الجارية ما قاله الوزير الثانى فجاءت إلى الملك وقالت : إن من الوزراء وُزراءَ سُوءٍ ظاهرهم نصح وهداية ، وباطنهم مكر وغواية ، والواثق بهم كراكب البحر إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف ، وليكن فيما أقصه عبرة ، فقد كان لملك من الملوك ولدٌ يحبه ويكرمه أكثر مما يحب ويكرم بقية أولاده ، فطلب إلى أبيه أن يخرج للصيد والقنص فلبّى رغبته ، وأمر أحد وُزرائه أن يصحبه ويقوم بكل ما يحتاج اليه أيام صيده وقنصهِ .

(٢)

وخرج الوزير فى صحبة ابن الملك ومعه الخدمُ والغلمان وما يحتاجون إليه وساروا حتى كانوا فى أرض عُشبُها كثير ، وماؤها غزير ، والصيدُ

فيها سهل يسير ، فأقاموا فيها أياماً على خير ما يحبون من عيشة هنيئة ، وذات يوم رأى ابن الملك غزالة أعجبته فقال للوزير :

إنى راغبٌ فى صيد هذه الغزالة .

فقال له : اركب جوادك واتبعها فعسى أن تدركها قبل أن تختفى عنك فى الصحْراء .

أرخى ابنُ الملك العنان لجواده من خلفها ، وكان كلما جدَّ فى طلبها أمعنت فى الفرار مسرعةً كأنها الريح ، حتى صعدت فى مكانٍ مرتفع وعْر ، فوقف آسفاً لأنه لم يدركها ، وكانت الشمس قد غربت ، وضرب الظلام قبته على الأفق ، وحاول الرجوع فعميت فى وجهه السُّبل ، وجعل يسير على غير هدًى يخوض بجواده ظلام الليل وسكونه ، ومخاوفه وأخطاره ، حتى طلع عليه الضحا فإذا به أمام مدينة عالية البنيان ، ولكنها خالية من السكان ، لا يُسمع فيها إلاّ نعيق البُوم والغربان ، فوقف حائراً مدهوشاً من أمر هذه المدينة .

فالتقت نظرة من نظراته بجارية بالغة الحُسن والجمال ، وهى تبكى بجوار جدارٍ من جُدرانها ، فدنا منها وسألها :

مَنْ أنت أيتها الجارية ؟

فأجابت :

أنا بنت التميمةِ ابنة الطباخِ ملك الأرض الشَّهباء ، اختطفنى عفريت من الجن ، وطار بى ، فأصابه شِهابٌ فاحترق ، وسَقَطت ها هنا ، وقد ألح

بى الجوع والعطش حتى يئست من الحيـاة ، فلما رأيتُك تفتَّحت أمامى أبواب الأمل فيها .

فأشفق ابن الملك بها وأردفها على جواده ، ووعدها إن رده الله إلى أهله سالماً أن يرجعها مكرَّمةً إلى أبيها وأُمّها .

ثم سار يتلمس الفرج من هذا الضِّيق الذى نزل به ، وما كاد يخطو بهما فرسه قليلًا حتى استأذنته أن تنزل لقضاء حاجة بجوار حائط من حيطان المدينة ، فوقف حتى نزلت وتوارت فى الحائط ، وبعـد لحظة رجعت إليه فى أبشع صورة ، فاقشعرَّ بدنُهُ ، واضطربت أفكاره ، وتبدَّلت حالته ، ثم وثبت على جواده من خلفه ، وقالت :

يا ابن الملك ، مالى أراك فى مخافة غيَّرَت حالتك ؟

فقال : تذكرت أمراً أفزعنى ، وطار من أجله لُبِّى .

فقالت : استعِنْ عليه بجيوش أبيك .

فقال : ذلك أمر لا تنالُ منه الجيوش وإن كانت ملء الفضاء .

فقالت : استعن عليه بمال أبيك !

فقال : ذلك أمر لا تسد أطماعه مالٌ وإن كثُر .

فقالت : إن لكم إلهاً يَرَى ولا يُرَى وهو الذى يجعلُ للمتقين من عباده مخرجاً من كل ضيق .

فقال : نعم ، هو إلهنا الذى نعبده ولا نعتمد إلا عليه .

فقالت : ادْعهُ أن ينجيك منّى .

فتوجه ابن الملك بقلبه إلى الله ورفع بصره إلى السماء ، وقال : اللهم إنى استعَنْت بك على ما أفزعنى ، وألقِ الرُّعب فى صدرى ؛ فسقطت على الأرض وقد اشتعلت النار فيها حتى أحرقتها .

فحمد الله تعالى وشكر له فضله ، وما زال سائراً وهداية الله تحدوهُ وتقود جواده حتى أشرف على مدينة أبيه .

وما حصل ذلك لابن الملك إلَّا برأى وزيره الذى لم يُخلص له النيَّة ، ولم يُحسن له الطَّوية . وقد ذكرتُ ذلك حتى تكون منهم على حذرٍ مما يقولون .

فقال الملك : سمعت قولك وسأقتل ابنى كما قلت .

وجلس الوزير الثالث إلى ملكه وقال : عجبت من أمر هذه الجارية الساعية فى قتل ابن ملكها وسيِّدها ، فى أمرٍ هيِّن ، وهوَّنه أكثر مما هو هيِّن أنه لم يؤيد بحجة ولا بينة ، وما عرفت أن أهل قريتين أفنى بعضهم بعضاً من أجل نُقطةٍ من عسل .

فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

اعتاد صيادٌ أن يخرج إلى البريَّة للصيد ، فدخل يوماً من أيام صيده كهفاً فى جبل ، فوجد فيه حُفرة مملوءة عسلاً ، فملأ منه قربةً كانت معهُ وحملها إلى المدينة ومعهُ كلبه ، فوقف أمام دكان لتاجرِ زيت وعرض عليه العسل ليشتريه ، فلما رآهُ أعجبهُ واشتراه ، وسقط بعض العسل من قربه الصياد وهو يصُبُّه فى وعاء التاجر ، وكان له قط فجاء إلى العسل يشمُّه ،

فوثَبَ عليه كلب الصياد ، فقتله ، فضرب التاجر الكلب ضربةً قضت عليه ، فلكزَ الصياد التاجر لكزةً أسقطته قتيلًا ، وكان لكلٍّ منهما قرية ، فعلمَ أهل القريتين بما جرى بين الصياد والتاجر ، وثارت الفتنة بينهم ، فجعلوا يقتتلون حتى فنى منهم خلقٌ كثير ، وكان سبب ذلك بعض العسل الذى وقع على الأرض ؛ وتلك جاريةٌ أرادت أن تجعل من الحبَّة قبَّة وأن تخلُق من الباطل حقًا ، فلا تطعها ولا تتبع أهواءها .

فقال الملك : لست بقاتله .

تألمت الجارية من رجوع الملك فى قوله فذهبت إليه وقالت : إذا كنت قد أبيت أن تنصرنى فإنَّ لى ربًّا ينصرنى عليك ، كما نصر ابن الملك على وزير أبيه .

فقال : وكيف كان ذلك ؟

فقالت :

كان لملك من الملوك الأولين ابنٌ واحدٌ وليس له غيره وكان قرَّة عينه فى دنياه ، فلما بلغ رشدهُ زوَّجه من ابنة ملك آخر ، وكان لهذه البنت ابن عمٍّ يحبها ويسعى فى زواجه منها ، وخطبها فعلًا من أبيها ولكنها أبت أن تتزوَّج من ابن عمها ، فغاظه ذلك منها ومن ابن الملك الذى تزوَّجها ، ودفعه الغيظ إلى تدبير مكيدة تعكر عليهما صفو حياتهما ، إن لم يتمكن من قتل ابن الملك ، فعمل على أن يتصل بوزير أبيه ، ليساعده فى تدبير مكيدته ، فجعل يرسل إليه الهدايا تباعًا حتى تمكَّن من نفسه ، وعقد بينه

وبين الوزير صلة صداقة متينة ، جعلته يُفضى إليه بما فى نفسه ، ورجاه فى أن يحتال فى قتل ابن ملكه أو يحول بينه وبين دخوله بابنة عمه ، فقال الوزير : سأكفيك شر ابن الملك ، فاصبر ولا تَعجَل ، وستكون ابنةُ عمك لك دون أحدٍ سواك .

وكان قد بعث الملك ابنه إلى والد الفتاة لإتمام أمر الزواج ، وبعثَ معهُ كثيرًا من الفرسان والهدايا ، وجعله فى رعاية وزيره هذا الخائن الذى رضى أن يبيع نفس ابن ملكه بثمنٍ بخسٍ من متاع الدنيا .

سارَ الوزير فى موكب ابن ملكه ، وفى نفسه من السوء والكيد له ما فيه ، حتى أشرفوا على جبل يعلم الوزير أن به عين ماء تعرف بالزَّهراء ، وكان كل من شرب من مائها من الرجال ارتد أنثى ، فأمر أن ينزلوا عند هذا الجبل للراحة ، وبعد قليل من نزولهم أشار الوزير على ابن الملك أن يُريه فى هذا الجبل عيناً جميلة ، ورغّب ابن الملك فى رؤيتها ، فركبا جواديهما وسارا حتى وصلا إليها ، وهناك نزل ابن الملك عن جواده ، وكان قد أحس عطشاً فشرب من مائها فإذا به قد تحول إلى أنثى ، فصرخ ابن الملك صرخةً عاليةً تنبئ عن ألمٍ عظيم ، ففزع الوزير إليه وقال له : ماذا أصابك ؟ فأخبره بما أصابهُ ، فأظهر الوزير من الكآبة والحُزن ما أخفى سريرتهُ ، ودعا الله أن يصرف عنه السوء الذى حلّ به ، وقال : الأمرُ لك فأشِرْ علىّ بما تُرِيد ، فإنى لك خادمٌ مُطيع .

فقال ابن الملك : ارجعْ إلى أبى وأخبره بما أصابنى ، فإنى لن أبرح

هذه العين حتى يكشف الله عنى هذا البلاء أو أموتَ ، وكتب الولد إلى أبيه رسالةً شرح له فيها حالتَه، فأخذها الوزير، وعاد مسرعاً إلى أبيه وناوله رسالة ابنه وشرح له ما أصابهُ ، فحزن الملك، واستنجد بالحكماء والمنجّمين فما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ، وأرسل الوزيرُ إلى ابن عمّ الفتاة يُبشرُ بما أصاب ابنَ الملك ففَرِحَ فرحًا عظيماً ، وأشرق فى صدرهِ الأمل فى الزواج من ابنةِ عمّهِ ، ومنح الوزير هدية قيّمة ، شاكرًا له ما فعله .

أقام ابنُ الملكِ عند تلك العيْن ، مُتّجهاً إلى الله بقلبه ، متوسّلاً إليه أن يدفع عنه ما نزل به من البلاء ، وبينما هو جالس يدعو الله فى سرّهِ أن يُخلّصَهُ من محنته إذا فارس يبدو عليه أنه من أبناء الملوك يقف بجواره ويسألهُ :

من الذى جاء بك إلى هذا المكان أيها الغلام؟ فشرح له ابن الملك قصته، وإنّ الحزن يكاد يحبِسُ نفَسه فى صدره ، فرثى الفارس لحاله وقال : ما رماك بهذه الداهية إلّا وزيرُ أبيك ، لأن هذه العَيْنَ لا يعلم بها إلا رجلٌ واحد ، قُمْ معى أيها الغلام فأنت ضيفى الليلة ، فقال ابنُ الملك : ومن أنت حتى أنظرَ فى مسيرى معك ؟ فقال الفارسُ : أنا ابن ملك من ملوك الجان ، وأنت ابنُ ملك من الإنس : فتعال معى ، ولا تهِنْ ولا تحزنْ ، فإن تنفيس هذه الكربة عنك هيّنٌ علىّ ، فسار معه إلى منتصف الليل ، ثم قال له ابنُ مَلكِ الجنّ: أتدرى كم قطعنا فى سيرنا هذا ؟ فقال : ومن يدرينى وأنا مشغول بما أصابنى ؟! فقال له : لقد قطعنا مَسير سنة للمسافر المُجدّ ،

فقال ابنُ الملك : وكيف أرجعُ إلى أهلى ؟ ! فقال ابنُ ملك الجنّ : بعد أن تبرأ من محنَتك فعلىَّ أن أُرجعَك إلى أهلك فى لمح البصر ، فلا تُزْعجك هذه الغُرْبةُ البعيدةُ الساحقةُ . فاطمأنَّ ابنُ الملك وحيِيَ ميّتُ الأمل فى نفسه ، وشكر اللهَ تعالى الذى قيَّض له من يكشف عنه هذا البلاء .

واعترضهما فى طريقهما أرضٌ مخضرَّة ذات أشجار باسِقة وأنهار جارية أُقيم فى وسَطها قصرٌ منيفٌ ، تبدو عليه أمارات المُلك الواسع والسُّلطان القاهر ، فلبثا فيه نهارَهما ، ولما جاء الليل ركب ابن ملك الجن جواده ، وركب ابن ملك الإنس معه ، وجدَّ بهم السيرُ فى ظلام الليل حتى طلع الصبحُ ، وكانا قد أشرفا على أرض سوداء كثيرة الأحْجار والصخورِ ، فسأل ابنُ ملك الإنس عنها ، فقال له : هذه أرضٌ يُقال لها الدَّهْماء ، وهى لملك من ملوك الجن يسمَّى ذا الجناحيْن ، ولا يستطيع أحد أن يدخلها إلا بإذنه ، فانتظِرْنى هنا حتى أستأذنَه وأعود إليك . ثم رجع إليه بعد ساعة ، وسارا فى هذه الأرضِ حتى كانا عند عَيْن من الماء فى جبل أسوَد ، فأمره ابن ملِك الجنّ أن ينزل ويشرب من مائها ، فلما شرب رجع ذكرًا كما كان بقُدرة الله تعالى . ففرح فرحاً عظيماً ، وشكر له جميل معروفه وسأله عن هذه العَيْن ؛ فقال: هذه تسمَى عَيْن النِّساء ، لا تشرب منها امرأة إلا صارت رجلًا ، ثم رجع ابن ملك الجن به إلى أرضه وسأله : هل يحب أن يعود إلى أهله ؛ فأبدى ابن الملك سروره ورغبته فى أن يُعَجِّلَ بالعودة ، فنادَى ابنُ ملك الجن عبدًا من عبيدِه ، يسمَّى راجزًا ، وقال له:

احمل هذا الفتى إلى زوجته وأبيها على أن يصل إليهما قبل الصباح ؛ فقال العبد : سَمْعاً وطاعة ، وغاب قليلاً ثم رجع عِفريتاً ، فركب ابنُ ملك الإنس على عاتقه وسلم شاكرًا حامدًا ، وطار به العِفريت حتى وضعه فوق قصر الملك والد زوجته قبل طلوع الفجر ، وقال له : هذا قصْر زوجتك الذى أمرت أن أحملك إليه ، ثم تركه إلى أرضه راجعاً .

ولما بان ضوء النهار نزل من القصر فلقيَهُ حَمُوهُ الملك وسلَّم عليه وفرح به ، وقال له : كيف جئت الليلة ؟ إنى أراك آتياً من فوق القصر ؛ فقال له : ذلك تقدير العزيز العليم .

أقام الملك الولائم والأفراح ، ودخل ابن الملك بزوجته ، وبعد سبعة أيام استأذن حماه فى الرحيل هو وزوجتُهُ ، فودَّعهما الملك أكرم وداع ، واستقبلَهما أبوه أكرم استقبال وأعظَمَهُ .

قالت الجارية :

وكذلك انتصر ابنُ الملك على وزير أبيه الخائن الماكر ، وأرجو ألاَّ تسمع قول وزرائك حتى ينصرك الله عليهم ، كما أرجو أن تُنصفنى من ابنك، فقال الملك : سأقتله جزاء فعلته .

ثم جاء الملكَ وزيرُه الرابع وقال له : بلغنى أن الجارية لا تزالُ طالبة رأس ابنك ، وأرى ألاَّ تعجل بحُكمكَ، فقد تكون الجارية خادعةً غاشَّةً فيصيبك منها ما أصاب الرجل الذى غشَّته زوجته ؛ فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

كان فارس من حرس الملك يحبُّ امرأةً فبعث إليها غلامَهُ برسالة ، وحينما كان الغلام جالساً معها طرق الباب سيِّدُه الذى أرسله ، فخبَّأت الغلام فى مكان من البيت وفتحت لسيده الذى يحبها الباب ثم أغلقته بعد أن دخل ، وبعد لحظة من دخوله طرق الباب زوجُها ، فسألها : من الطَّارقُ ؟ فقالت : إنه زوجى ، فقال لها : وما العمل الآن ؟ فقالت : لا تخف ، وما عليك إلا أن تشهر سيفك ، وتقف فى هذا الدِّهليز ، ثم اشتِمْنى بما تشاء من القولِ غاضباً ثائرًا ، فإذا دخل فاترك المنزل ، ودعنى غير خائف علىَّ ، ففتحت الباب لزوجها ودخل ، وفعل الفارسُ ما أمرته به ثم انصرف ، فسألها زوجها عن هذا فقالت :

ما أجمل هذه الساعة التى أتيتنى فيها ، وَمَا أبركها !! فقد نجَّيت من القتل نفساً مؤمنةً بريئةً ؛ وذلك أنى كنت جالسةً فى بيتى فدخَل على غلامٌ يلهث من التعب ، وقال :

اعْتقينى ياسيدتى ممن يريد قتلى ظلماً ، فخبأته فى الحال فى مكان من البيت ، وإذا بهذا الفارس قد دخل علىّ شاهرًا سيفه ، فطلبه منى فأنكرته ، فأخذ يشتمنى ويُهدِّدُنى ، وما صرفه عنى إلا قدومُك فى هذه الساعة المباركة ، فقال لها : أحسنت صُنعاً ، وجزاكِ اللهُ خيرًا ، ثم ذهبت مع زوجها إلى مخبأِ الغُلام ، فقال له الزَّوجُ : اطلع من مخبئك أيها الغلام ، فقد نجاك الله من القتل على يدِ زوجتى الصالحة ، فطلعَ الغلام خائفاً ، وجعل الزوجُ يُهدِّئُ رَوْعه ، ويذهب عنه خوفه ، وودَّعه إلى سبيله .

قال الوزيرُ: وهذه صورة من صور كيْدِ النساء، وأخشى أن تكون الجارية قد كادت لابنك لأمر فى نفسها، ومن الحقّ أن تصبر حتى يَتَبيَّنَ الأمر، ويظهر السِّرُّ؛ فرجع الملكُ عن قتل ابنه، متأثراً بما سمعَ مِن وزيره.

جاءت الجارية إلى الملك هذه المرة وفى يدها قدحٌ من السُّمّ، وقالت: إمَّا أنصفتنى من ابنِك وإمَّا شربْتُ هذا السمَّ وكنت مسئولاً عنى يوم القيامة، وهؤلاء وُزَراؤُك يتَّهِمُوننى بالمكرِ والخديعةِ وليس فى الدنيا أمكرَ منهمْ، أمَا سمعت أيها الملكُ حديث الصائغِ والجارية؟ فقال لها: حدِّثينا بما تعرفينهُ عنهما، فقالت:

كان صائغٌ مولعاً بالتصوير، فزار يوماً صديقاً له، ورأى على جدارِ حجرته صورة لجارية لم يرَ الراءون أجمل منها، فقال الصائغ: لقد أبدع المصوِّرُ فى هذه الصورة، وأعتقدُ أنه ما صورها إلا على مثالِ امرأةٍ جميلةٍ يعرفُها، فقال: لعله ابتكرها من خياله، فقال الصائغ: إن كان قد صورها على مثالِ امرأةٍ فإنى أرجو من الله أن يُطيل حياتى حتى أراها؛ وأين مُصوِّرها؟ فقال: إنه فى بلد كذا، فأمر صديقه أن يكتب إليه ليُخْبرَه عن المرأة التى جعل صورتَهُ على مثالها، فكتب المصوِّرُ قائلاً:

إنها على مثال جاريةٍ مُغنِّيةٍ لأحد الوزراء فى بلدة من بلاد كشمير بالهند.

أُغرِمَ الصائغ برؤية الجارية وعقد عزمه أن يُسافر إليها مهما يكن من متاعب السفر ونفقاته، وكان بعد أيام فى المدينة. ولما استقر مُقامه فيها

ذهب إلى عطّار لبيب فطِن وجلس معه يتحدث إليه ، فسأله عن مَلكهم، فقال العَطارُ: ملكٌ حسنُ السِّيَر سليم الطويةِ ، يُقيم العدل ويحِبُّ الرعية ، ولـكنه يبغض السحرة بغضاً شديداً ، وإذا وقع واحدٌ منهم في يده رماه في جُبٍّ خارج المدينة وتركه يموت فيه صبراً . وسأله عن الوزراء فحدثه بمزايا كل منهم ثم سأله عن الجوارى فى قصور الملك والوزراء ، فجعل يحدثه عنهن حتى انتهى إلى الحديث عن الجارية المغنِّية التى جاء الصائغُ من أجلها وعرف أنها فى بيت الوزير فلان . ثم ودَّعه وانصرف ، وأخذ يفكر فى حيلة للوصول إلى تلك الجارية .

وفى ليلة ممطرة شديدة الرياح ، ذهب الصائغُ إلى بيت الوزير ، وصعد إلى سطحه فى سُلَّمٍ من سلالم اللصوص ، ثم نزل فى سُلَّمِ القصر فوجد الْجوارى نائمات كلٌّ جاريةٍ على سريرها ، ووجد سريراً من المرمر عليه جارية يشع وجهُها نوراً وجمالا وسحراً ، غُطى جِسْمُها بسُتْرةٍ مُحَلاةٍ بنسيج الذهب ، فقعد عند رأسها ورأى بجوار وِسادَتِها حُقًّا من الفضة فيه حُلِيُّها وعِقْدُها ، فجرح كتف الجارية بسكينٍ كانت معهُ ، فانتبهت خائفةً ولما رأته والسكين فى يده خافت أن تصيحَ فيقتلها فسكتت ، وقالت له فى همسٍ ضعيف : خُذْ هذا الُحقَّ والْحُلِيَّ الذى فيه ، وأجرنى من القتل وأجرُكَ عند الله ، فأخذ الُحقَّ وانصرف .

وفى الصباح لبس ثيابه وأخذ الُحقَّ الذى فيه الحُلِيُّ ، ودخل على ملك المدينة بعد أن أذن له ، فحيَّا وقال :

إننى من خُراسان سمعتُ بحسن سيرتك فجئت مُهاجراً إلى مدينتك ، لِأَنْعمَ بعدلك وكرم سياستك ، ولما وصلت المدينة فى المساء وجدت بابها مُغلقاً ، فنِمتُ خارج المدينة ، وبينما أنا بين النوم واليقظة رأيتُ جاريتين إحداهنَّ راكِبة مكنسة ، والأخرى راكبة مِرْوَحةً ، فظننت أنهما ساحرتان ، ودنت إحداهما منى ورفستنى برجلها ، وأوجَعتنى بضربة من ذنب ثعلب فى يدها ، فدفعنى الغيظ إلى أنى ضربتها بسكين كانت معى ، فجرحتها فى كتِفِها ، فجرت قدامى هاربة ووقع منها وهى تجرى هذا الحُقُّ بما فيه ، فأَخَذْتُهُ وفتحتُهُ فوجدتُ فيهِ هذا الحُلِيَّ النفيس ، وقد جئتُك لِأُعلِمكَ أمر هاتينِ الساحرتين، ولِأُعطيك الحُقَّ الذى وقع من إحداهما ، إذ ليس لى فيه حاجة لأنى رجل مهاجر ، وقد زهدت فى الدنيا وزينتها ؛ ثم ترك الحُقَّ واستأذن وانصرف .

فتح الملك الحُقَّ وجعل يقلب الحُلِيَّ ويتأمل فيه فوجد عِقداً كان قد أنعم به الملكُ على الوزير سيِّدِ الجارية التى جاء الصائِغُ من أجلها فدعا الملك هذا الوزير إليه ، ولما حضر بين يديه ناوله العِقد قائلا : أليس هذا العقد عِقدُكَ الذى أهديته اليك ، فتأمل فيه الوزير وقال : بلى أيها الملك ، إنه العقد الذى وهبتَهُ لى ، وقد أهديتُهُ إلى جارية مُغنِّية عندى ، فقال الملك : علَيَّ بها الساعة ، فلما أحضرها الوزير أمره الملك أن ينظر فى كتفها ، هل فيها جُرْحٌ أو لا ؟ فنظر الوزير إلى كتفها وقال : إن فيها جُرْحاً أيها الملك . فقال الملك :

صدق الرجل الزاهد فى قوله عنها إنها ساحرة ، وأمر الملك أن يلقوها فى جُبِّ السحرة ، فأخذها الجُند والأعوان ورموها فى الجُبِّ آخر النهار .

ولما أقبل الليل ذهب الصائغ إلى حارس الجُبِّ وجلس يتحدث معه حتى مضى من الليل ثُلُثُهُ ، وحتى أَنِسَ كلٌّ منهما إلى صاحبه ، ثم قال الصائغ : إن الجارية التى ألقيت فى الجُب أمس بريئة مظلومة ، وقصتها كَيْتَ وكيت ، وهذا كيس به ألف دينار ، فخذه وانتفع به ، وأعطنى الجارية أرحل بها إلى بلادى ، وتكون بذلك قد نجيت من القتل نفساً بريئة ، فقال الحارس : على شريطةِ ألَّا تبيت بها فى هذه المدينة وألا نراها فيها من الآن ، فقال : لك ذلك ، وأخذها الصائغ وذهب إلى بلاده ، بتلك الحيلة الشيطانية ، فهل رأيت أيها الملك كيداً أعظم من هذا ؟ ! وغداً أُطالبك بحق يوم لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله ؛ فقال الملك : سأفِى بحقك وأقتل ابنى ؛ فحيَّت واستأذنت وانصرفت .

أقبل الوزير الخامس على الملك وقال :

جئتُ مولاى الآن مُذكِّراً بأن التأنى فى الأمور لا يُضيِّعُ على صاحبه غرضاً ، ولكنه يَمْنحهُ السلامة ويُجنِّبُهُ الزَّلَلَ والنَّدامة، وإن أنت عَجِلْتَ وقتلت ابنك ندمت ندم الرجل الذى لم يضحك بقية حياته ، فقال الملك : وما قصته ؟ فقال الوزير :

كان رجل ثرىٌّ يعيش فى نعمةٍ سابغةٍ من مال وجوار وخدم ، ومات مُخلِّفاً أموالهُ وماترك إلى ابنه الصغير الذى لم يُعقِب غيره ، ولما بلغ الولدُ

رُشده ، وتولى القيام على ما ورثه أخذ يُبعثره فى وجوه الإنفاق ، حلالها وحرامها ، طيّبها وخبيثها حتى نفدت الأموال ، وأصبح الغلام فقيراً مُعدماً لا يجد ما يقتات به ، فأخذ يشتغل عند الناس بالأُجرة ، يوماً يأخذه هذا ، ويوماً آخر يأخذه ذاك ، وجلس ذات يوم بجانب حائط ينتظر شخصاً يشتغل عنده ، فمرّ به رجلٌ مُشْرِق الوجه حسن الثّياب فدنا منه وسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال الرجل له : أُريد أن أَستأْجرك فى عمل يسير ، فقال الشّاب : وما ذاك يا عمّى ؟

فقال : عندى عشرة شيوخ وليس لنا من يخدمنا ، فهل ترضى أن تقوم بخدمتنا وقضاء حاجاتنا ولك ما يغنيك من الأجر ؟ فقال الشاب : رضيت وبالله العون ، فقال الرجل : ولكن لى شرطاً عليك ، فقال الشاب : وما هو ؟ فقال : أن تكتم أسرارنا ، وإن رأيتنا نبكى فلا تسألنا عن سبب بكائنا ، فقال الشاب : رضيت وَلك ما شَرطْت ، فقال الرجل : سر معى يا ولدى على بركة الله ؛ فذهب به إلى دار عالية ممتدة الجوانب فسيحة الرّحاب ، بها حجرات كثيرة ، وقاعات واسعة بكل قاعة فسقية تُغَرّدُ عليها أنواع الطيور ، فأدخله الرجل فى حجرة فسيحة فُرِشَتْ أرضها بالرّخام المُلوّن ، ونقش سقفها بطلاء من ماء الذهب الوهّاج ، وغطّى رخامُ أرضها بِبُسُطٍ حريرية وَبرة ، ووجد فيها عشرة شيوخ يلبسون ثياب الحزن ، وقد جلسوا مُتقابلين باكين ، فعجب الشاب وهمّ أن يسأل عن تلك الحال ، ولكنه تذكر الشرط فسكت .

أعطى الرجل الشاب صُندوقاً به ثلاثون ألف دينار، وقال له : أنفقْ علينا وعليك من هذا المال، والتزم الأمانَة والصدق فيما تُنفق. فقال الشاب : وعلَيَّ عهد الله أن أكون أميناً لا تمتدُ يدى إلى أموالكم هذه إلا بالحقِّ، واللهُ هُو الوَلِيُّ الحميدُ.

أخذ الشاب يُنفق عليهم ويخدمهم مُدة من الزمان، ثم جاء أحدهم الموت فجهزوه ودفنوه فى روضةٍ خارج الدار، وجعل الموت يتخطفُهم واحداً بعد واحد حتى بقى منهم ذلك الشيخ الذى استأجر الشاب.

وعاشا معاً مُدة، ثم مرض الشيخ مرضاً ثقيلاً، ولما يئس الشاب من حياته جلس إليه وقال :

لقد خدمتكم وأحْسنتُ عِشرتكم وأكرمت صحبتكم هذه المدة الطويلة، وماَ رضيتُ أنْ أسألكم عن سبب بكائكم، وليس لى من أسألهُ عما أبكاكم إلا أنت، وعَزيزٌ عَليك أن ترحل إلى رحمة الله، وتتركنى فى حيرة من أمر هذا البكاء، فقال الشيخ :

ياولدى : « لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ». « ولا تقفُ ماليس لك به علْمٌ إن السَّمْعَ وَالبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ».

أسْألُ الله أن يُنَجيك مما أصابنا، وإن أردت السَّلامة منهُ فلا تفتحْ هذا الباب — وأشار إليه بيده — وإن فتحتَهُ ووقعتَ فيما وقعنا فيه فلا تلومَنَّ إلا نفسك.

ثم اشتدت وَطأة المرض علَى الشيخ ومات ، فجهزهُ الشابُ ودفنهُ مع أصحابه ، وبقى هو فى الدَّار وَحدهُ .

حيَّر الباب الشابَّ وشغله ، وأصبح متردداً مُضطربا ، أيفتحُ البابَ أمْ لا يفتحهُ ؟ فصار يُقدّم رجْلاً ويؤخرُ أُخرى ؛ ثم غلبته الرغبة فى فتحه ، فقام إليه مُفوّضاً أمره إلى الله ، وكسر أقفاله ، فانفرج عن دهليز ضيّق مشى فيه ثلاث ساعات حتى انتهى إلى شاطئ نهر عظيم .

فجعل ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يجد أحدًا ، فوقف حائرًا مفكرًا ؛ وإذا طائر كبير قد اختطفه وطار به إلى أن ألقاهُ فى جزيرة وسط البحر وتركه . فجلس فيها خائفاً يترقبُ لا يهتدى إلى سبيل ، فلاح له من بُعد قلع مركب يدنو من جزيرته رويدًا رُوَيْدًا ، فكان مبعثَ أمله ، والرجاء فى نجاته وسلامته .

وحبسَ نظراته عليه حتى رسا على الشاطئ قريباً منه ، فوجده زورقاً كبيراً صنع من العاج والأبنوس ، وصُفّحَ بالذهب الوهَّاج ، وصنعت مجاذيفه من العود والصندل ، به عشر جَوار أبكار ، يأسرن بجمالهن القلوب والأبصار ، فلما رأينه ذهبن إليه وقبَّلن يديه وقلن له :

أنت الملك العروس . وتقدمت إليه أجملهن ، وألبسته حُلة مُلوكيَة ، ووضعت على رأسه تاجاً مُرَصعاً بالذهب وأنواع اليواقيت ، وأخذته معها إلى الزورق ، فوجده مفروشاً ببسط حريريَّة منسقة الألوان ، ثم نشرن القلوع ، وخُضن بزورقهنَّ لجج البحر ، والشابُ لا يدرى ، أهو فى يقظة أم فى منام ؟ ! !

قال الشاب : ولما قرب الزورق من الشاطئ رأيته قد امتلأ بجنود لا أكاد أحصيها عداً ، فنزلن من الزورق ونزلت معهن ، وقدمن لى خمسة جياد عليهن سروج محلاة بالذهب واللآلئ الثمينة ، فركبتُ جوادًا وانعقدت الرايات والأعلام على رأسى ، وسار الجندُ من حولى حتى أشرفنا عَلَى أَرض ذات أشجار وزرع بها قصور شامخةٌ ، فرأينا جنودًا كثيرة العدد تخرج إلينا فى صفوف منظمة .

وتقدم الملك على جواده فلما دنا منى نزل عن جواده فنزلت أنا عن جوادى وصافحنى وهو فرحٌ مستبشر ، ثم قال لى :

أنت ضيف الليلة .

وذهبتُ مع الملك إلى قصره ، فأجلسنى عَلَى كرسى من ذهب ، فى حجرة فسيحة مفروشة بالبسط الحريرية ، تدلت من سقفها المموه بالذهب الثريات ، وصُفت فيها مقاعد من العاج والأبنوس ، وجلس الملك بجوارى ، ثم كشف اللثام عن وجهه فإذا هو فتاة من أجمل ما خلق الله وصور ، وقالت .

أنا ملكة هذه الأرض ، وهؤلاء الجنود الذى رأيتهم نساء ، أما الرجال فإنهم يقومون بأعمال الفلاحة والصناعة وعمارة البلاد ، وأما النساء فهن الحكامُ والجنود وأَرباب المناصب .

ودخل الوزير فإذا هو عجوز شمطاء ذات أَدب وَوَقار ، فقالت لها الملكة :

أحضرى لنا القاضى والشهود ، ثم أسرَّت الملكة إلى الشاب قائلة :

أيُرضيكَ أنْ أكون لك زَوْجة ؟ فقالَ :

ذلك حظٌ عظيم أحمد الله تعالى عليه ، فقالت :

جميع مالىَ من جُند وسُلطة ومال سيكون لك تَتَصرَّفُ فيه كما تشاء ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى أحذرك منه ، هذا الباب المُغْلَق — وأشارت إليه — حذار أن تفتحَه ، وإن أنت فتحته خسرت وندمتَ ، ولا ينفعك حينئذ ندمك وحسرتك .

وحضر القاضى والشهود وأبرم عقد الزواج وأقام مع زوجته سبعة أعوام فى أرغَد عيش وأطيبه .

تذكر الشاب بعد هذه الأعوام الباب الذى حذرته زوجته من فتحه فنزعت نفسه ، والنفسُ أمَّارة بحب الاستطلاع ، فقال لنفسه :

لولا أنه يحوى من النفائس وألوان النعيم أكثر مما شاهدت ما حذرتنى من فتحه ، وقام إليه وفتحه فإذا بالطائر الذى خطفه وحطه فى الجزيرة ، فنظر إليه الطائر وقال :

مرحباً بوجه لا يُفْلحُ أبدًا ، وهجَم عليه وخطفه وطار به ثم حطَّه فى المكانِ الذى كان قد اختطفهُ منهُ ، فلبث فى مكانه هذا على شاطِئ النهر يترقَّب العودة إلى زوجته فلم يجد شيئاً مما فى نفسه ، وسمع صوتاً يقول : هيهات هيهَات أن يرجع إليك ما فات .

فرجع إلى دار الشيوخ وعلم أن ذلك سببُ بكائِهِم ، فجعل يبكى هو أيضاً حتَّى مات .

قَال الوزيرُ : وهذا مثل سُقته إليك حتى تحجم عن قتل ابنك ضارباً بكلام الجارية عرض الحائط ، وإلا ندمت ندامة الشاب الذى لم يستمع لقول الناصحين .

فجاءت الجارية وقالت : إن وزراءك يرمونني بالكيد والمكْر ، وهأنذى أقص عليك حكاية لتَعرف منها كيد الرّجال وشدته .

فقال الملك : قصّى ما تشائين .

(٣)

فقالت الجارية :

اشترى أَحد الظُّرَفاء غلاماً ، ووصى به زوجته خَيراً ، وذاتَ يومٍ قال الرجل لزوجته أمام الغلام :

اخرجى غدًا إلى البستان لتروّحى عن نفسك وتستمتعى بمباهج الطبيعة .

فقالت له : شكراً لك ، وسأخرج غدًا إن شاء الله فى صحبَة الغلامَ .

أَعد الغلام فى تلْك الليلة طعاماً وفاكهة وماء ، وذهب بذلك كله إلى البستان ، فوضع الطعام تحت شجرة ، والفاكهة تحت شجرة ، والماء تحت شجرة ، ولم يشعر أحدًا بجميع ما فعله .

وفى الصباح ذهبتْ الزوجة والغلامُ ومعهما ما يحتاجان إليه فى ذلك اليوم من طعامٍ وشرابٍ ، فلما دخلا البستان ونعق الغرابُ قال له الغلام : صدقتَ ، فقالت سيدتُهُ : وهل تعرف لغة الطير ؟ وإذا كنت تعرفها فماذا يقول الغرابُ الآن ؟

فقال الغلامُ : إنى أعرف لغة الطير ، وإن الغراب يقول : تحت هذه الشجرة ، وأشار إلى شجرة بعيدة بيده ، طعام نخذوه وكلوه ؛ فذهبت الزوجة إلى الشجرة التى أشار إليها الغلامُ فوجدتْ تحتها طعاماً فأكلاه ، فعرفت أن غلامها يعرف لغة الطير

ثم سارا فى البستان ، ونعق الغراب فقال الغلام صدقت ، وسألتهُ سيدته عما يقوله هذه المرة فقال : إنه يقول : تحت الشجرة الفلانية فاكهة نخذوها وكلوها ، فذهبت الزوجة إليها فوجدت الفاكهة فأكلاها فزاد تصديقها أن الغلام يعرف لغة الطير .

ثم سارا فى البستان ، ونعق الغرابُ فقال له صدقت ، فسألته عن ذلك فقال :

يقولُ الغراب : تحت الشجرةِ الفلانية ماء فاذهبوا إليه واشربوه .

فذهبا إليها ووجدا الماء وشرباه ، فأيقنتِ الزوجة أن غلامها يعرفُ لغة الطير ، ثم سارا ونعق الغرابُ ، فأخذ الغلامُ حجراً ورماه به فطار .

فقالتْ سيدته : لم ضربته هذه المرة ، وماذا قال :

فقال الغلام : لا أستطيعُ أن أحكى ما قالهُ .

فقالت : قل ولا تخف ، فأبى الغلام أن يقول شيئاً ، فألحت عليه وهو لا يرضى أن يقول شيئاً .

ولما تعبت من الغلام أقسمت عليه أن يقول ، فقال : إنَّ الغراب يقول : اقتل سيدكَ وتزوج بسيدتكَ ، فضحكت الزوجة حتى استلقتْ على ظهرها .

وكان سيده قد حضر الآن ورآها على قرب مستلقيةً ، فنادى غلامه وسأله : ما لسيدتك نائمةٌ ، فأجابه الغلامُ : وقعت من الشجرة ، وكانت قد أشرفتْ على الموت ، ولكنَّ الله نجَّاها ، وإن كانت لا تزال تشعرُ ببعضِ الألم في جسمها ، فسمعتْ الزوجة هذا الكلامَ فأخذتْ تتألم من ظهرها ومن رجلها ومن يدها ، فأمر الزوجُ والغلام أن يحضر الفرس لزوجته ، فأركبها وأمسكَ الزوجُ بركاب والغلام بركاب وساروا إلى المنزل والزوجُ يدعو لها بالشفاء العاجل .

قالت الجارية : وتلك صورة من مكر الرجالِ ، فلا ينبغى أن يصرفك وزراؤكَ عن الأخذ بحقى وإنصافى ؛ فقال لها سأقتله من أجلك . فاستأذنت وانصرفت .

وقال الوزير السادس : أتيتك بحكايةٍ تعرف منها كيف استطاعت امرأةٌ أن تمكر بطائفة من عظماء الدولة ، لتعلم أن الجارية مكرتْ بابنك وأحكمت مكرها ، وستنبئك الأيام صدق ما تقول ؛ فقال الملكُ : إنى مصغٍ إلى قولك فحدثنا بما تريد . فقال الوزيرُ :

كان لبنت من بنات التجار زوج تاجر كثير الأسفار ، وغاب عنها مدة طويلةً في مرة من مرات سفره إلى بلاد بعيدة ، وكان يقوم بخدمتها غلامٌ جميل تحبه حباً جماً ، وفي يوم من الأيام تنازع الغُلام ورجل من أهل المدينة فشكاه الرجل إلى الوالي وسجنهُ ، فلما بلغها نبأ سجنه حزنتْ ولبست أفخر ثيابها وتزينت وذهبت إلى منزل الوالي فوجدته في حجرة الاستقبال ، فسلمت عليه وناولته ورقةً كتبت فيها : إن الغلام . . . الذي سجنته بالأمس برىء مما نُسبَ إليه ، وهو أخي ، وليس عندي من يقومُ بقضاء حاجتي في تلك الأيام التي غابَ عني فيها زوجي ، ولهذا أرجو أن تطلقه من سجنه ؛ فلما قرأها نظر إليها قائلا :

ادخلي منزلي وانتظري حتى أحضر الغلام لتأخذيه .

فقالت : إني غريبة ، ولا أدخل منزل أحد وزوجي غائبٌ عني في بلاد بعيدةٍ .

فقال : إن لم تدخلي منزلي وتنتظري فلن أطلق الغلام من سجنه .

فقالت : إن كان لا بد من ذلك فخير لي ولك أن تحضر إلى منزلي وتستريح فيه النهار كله ، فليس فيه أحد غيري ، فاستبشر وقال : وأين منزلك؟ فقالت : في المكان الفلاني ، واتفق معها على يوم يذهب إليها فيه ، ثم سلمت وخرجت من عنده إلى قاضي المدينة ، فقالت له :

يا سيدي القاضي ، أنصفني وأجرك على الله ، فقال : ومن ظلمك ؟ فقالت : لي أخ سجنه الوالي وهو برىء ، وهو الذي يقوم بخدمتي الآن ،

لأن زوجى غائب فى بلاد بعيدة ، وليس معى أحد غيره ، ورجائى أن تشفع لى عند الوالى ليطلقه ، فنظر القاضى إليها وأعجبته ، فقال : ادخلى منزلى وانتظرى حتى نرسل إلى الوالى يطلقه .

فقالت : هل هناك ضرورة تستدعى أن أدخل المنزل ؟ فقال : نعم ، وإن لم تدخلى المنزل وتستريحى فيه فاذهبى إلى سبيلك .

فقالت : ما دمت ترى ذلك ضروريا فإنى أستحسن أن تأتينى فى منزلى لتنعم براحتك فيه جميع النهار ، فقال : رأى حسن ، وأين منزلك ؟ فقالت : فى موضع كذا ، ثم اتفقا على اليوم المحدود لزيارته لها وهو نفس اليوم الذى سيحضر فيه الوالى إليها ، ثم سلمت وانصرفت من عنده إلى الوزير فكان شأنها معه كشأنها مع القاضى والوالى ، واتفقت معه على أن يذهب إلى منزلها فى يوم القاضى والوالى ، وانطلقت من منزله إلى قصر الملك ، فلما شكت إليه وعملت بما فى نفسه ، وأنه لم يختلف عما فى نفس الوزير والقاضى والوالى تقدمت بالرجاء إلى ملكها أن يشرفها بزيارته فى بيتها حتى يعلى من شأنها ويرفع قدرها فإنها غريبة فى حاجة إلى عطف المليك ، فقال الملك : ذلك ما نحب أن نسعى إليه ، ووعدها أن يَزور بيتها فى اليوم الذى عينته وهو يوم الوالى وأصحابه ، وحيّت مليكها وخرجت شاكِرة ، وذهبت إلى نجّارٍ بالمدينة ، وطلبت إليه أن يصنع لها خزانة ذات أربع طبقاتٍ لكل طبقة باب مُستقل لها ، فقال لها : هذه ثمنها أربعة دنانير .

ولما همت بدفعها قال النجار : وإن سمحت السيدة أن أزورها فى بيتها فلن آخذ لها ثمنا !

فقالت : ما دمت راغباً فى زيارتى بمنزلى فاصنعها من خمس طبقاتٍ بأقفالها ، واتفقت معه على أن تكون الزيارة فى اليوم المعلوم ، وهو يوم القاضى وأصحابه ، ففرح بذلك وأمرها أن تجلس عنده حتى ينتهى من صنعها بعد ساعة أو تزيد .

ولما صنعها أخذها الحمَّال ومشى معها فوضعها فى حجرة الجلوس من بيتها ، ثم أخذت أربعة أثواب وذهبت إلى الصباغ ، فصبغها وجعل لكل ثوبٍ لوناً يخالف الآخر ورجعت إلى منزلها ، وأخذت فى إعداد الطعام والفواكه ، وفرشت حجرة الجلوس بالأبسطة الفاخرة .

ولما جاء اليوم المعلوم لبست أفخر ما عندها من الثياب وتطيبت بأنواعٍ من الطيب الذكىّ الرائحة وجلست تنتظر القادمين .

وطرق الباب ففتحته فإذا القاضى داخل عليها فاستقبلته هشةً بشةً ، وأجلسته فى حجرة الجلوس ، وقالت له : اخلع ثيابك والبس هذا الثوب ، وتلك القلنسوة لتأخذ حظك من الراحة حتى أُحضر الطعام والشراب ففعل ما أشارت به عليه . وما لبث أن جلس حتى دُقّ الباب ، فسألها عن الطارق فقالت له : إنه زوجى .

فقال : وماذا تصنعين ؟

فقالت : لا تخف فلن يمكثَ هنا طويلا ، فقم أنت واختبئ فى هذه

الخزانة حتى يخرج إلى سبيله ، فدخل الطابق الأول وأقفلت الباب وذهبت إلى باب المنزل وفتحته فوجدت الوالى ، فأخذته إلى حجرة الجلوس ونزعت عنه ثيابه وألبسته ثوباً من عندها وقلنسوة كما فعلت بالقاضى ، ثم طلبت إليه أن يكتب إلى حارس السجن بإطلاق الغلام أخيها حتى تجلس معه مطمئنة وتقضى معه الوقت فى راحة ومتعة ، فكتب إلى حارسه يقول :

إذا جاءتك رسالتى هذه فأطلق فلان ابن فلان فى الحال ، وإياك أن تراجع حاملها بكلمة واحدة أو تؤخِّر إطلاقه من السجن دقيقة واحدة ، ثم ختم الرسالة وناولها إياها ، فأخذتها منه شاكرة مبتسمة ، وما كاد يطمئن حتى طرِق الباب ، فسألها : من الطارق ؟

فقالت : زوجى ، ثم أدخلته الطابق الثانى من الخزانة وأقفلت الباب عليه ، وانصرفت لتستقبل الطارق ، فكان الوزير ، ففعلت به ما فعلته بالقاضى والوالى ، وأدخلته الطابق الثالث وأقفلت الباب عليه وانفلتت إلى باب المنزل لتستقبل الطارق ، فقبَّلَتْ يديه وأجلسته فى صدر المكان من حجرة الجلوس وقالت : شرَّفْتَ الدار أيها الملك العظيم ، بهذا القدوم الميمون ، وتلك خطواتٌ كريمة أعززتنا بها وأكرمتنا ، والله سبحانه وتعالى يجزيك عنَّا خير الجزاء ، ثم عرضت عليه أن يلبث الثوب الذى أعدته نخلع ثيابه ولبسه ، وطرِق الباب ، فقال الملك :

من هذا الطارق ؟

فقالت : زوجى ، فقال : سرِّحيه بالمعروف وإلَّا أودعته السجن .

فقالت : إنه لا يمكث فى المنزل إلَّا زمناً يسيراً ، فإذا اُختبأت فى هذه الخزانة كان أكرم لك وأصونَ لكرامة زوجى .

فطاوعها واختبأ وأغلقت الباب ، ثم فتحت باب البيت واستقبلت النجار وجاءت به إلى الخزانة وقالت : لِمَ عملتها ضيقة ؟

فقال : لا ضيق فيها وما قصَّرت فى صنعها .

فقالت : اُدخل هذا الطابق لترى هل يسع مثلك أو لا ؟

فدخل وأغلقت الباب عليه ثم تركتهم وانصرفت إلى حارس السجن فناولته رسالة الوالى ليُطلق الغلام من السجن فلما قرأها أطلقه من فوره وأخبرت الغلام بما فعلت .

فقال : وكيف نعمل الآن .

فقالت : نهرب من هذه المدينة ، ورجعت به إلى البيت ، وأخذت أمتعتها وحُلَل الوالى والقاضى والوزير والملك ، ونزحت هى والغلام إلى مدينة أخرى .

أما الملك ومن معهُ فى الخزانة فقد لبثوا محبوسين يوماً وليلة ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم شيئاً ، إلَّا أنهم جعلوا يطرقون أبواب الخزانة الخمسة من داخلها ، وأحسَّ الجيران طرقاً فى الدَّار . فقالوا : إن صاحبة الدار تركتها ولكنا نسمع طرقاً داخلها ، فدخلوها من سطحها ، وجعلوا يجوسون خلالها ، ولكن طرق المحبوسين فى الخزانة قادهم إلى

مكانها فى حجرة الجلوس ، فلما كانوا أمامها طلب النجار منهم أن يكسروها ليخرج منها . وقص عليهم قصته ، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب . وقال من كذَّب منهم : إنه عفريتٌ من الجنّ ويَحسن أن تحرق الخزانة حتى يموت هذا العفريت . وخاف المحبوسون أن يحرقوا الخزانة .

فقال القاضى :

لسنا عفاريت ، ولكن المرأة الملعونة مكرت بنا وحبستنا فى هذه الخزانة دون سبب نعرفه ، وما أوقعنا فى يدها إلّا إشفاقنا عليها ، وتصديقنا لقولها ، فقد ادّعت المرأة الماكرة أن زوجها قاتلها الليلة فى هذه الحجرة وأشارت علينا أن نختبئ فى الخزانة لننقذها قبل أن يهم بقتلها ثم نمسكه ونعاقبه ، فافتحوا الأبواب أو اكسروا أقفالها ولا تخافوا .

وقال الباقون ما قاله القاضى ، فكسروا الأقفال وفتحت الأبواب وخرجوا ، وهم يظهرون للجيران الغيظ مما فعلت بهم المرأة ، وإن كان ينظر بعضهم إلى بعض نظرات خزى وخجل ، ثم ذهبوا خفية إلى منازلهم وبحثوا عن المرأة فلم يجدوا لها خبراً .

فانظر أيها الملك ، كيف مكرت المرأة بجماعة من كبار أولى الأمر وضحكت منهم ثم اختفت ، ويغلب على ظنى أن هذه الجارية ماكرة خادعة ، وإن أنت نفّذت رأيها بقتل ابنك فلا مردَّ له إذا بان كذبها وكيدها .

فقال الملك : ذلك قول سليم ولن أقتله حتى يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

(٤)

اغتاظت الجارية من الوزراء وجاءت إلى الملك فقالت :

لقد عزَمت على أن أشعل النار فى جسمى إن لم تنصفنى من ابنك وتقتله ، وحينئذٍ تأسَفُ أسَفَ الملكِ على حارسة الحمَّام .

فقال لها الملك :

وكيف كان ذلك يا جارية ؟

فقالت : كانت امرأة عجوز عابِدَةٌ تختلف إلى قصر من قصور الملوكِ للتبرُّكِ بها ،وذات يومٍ أعطت جارية من جوارى القصر عِقدًا قيمته ألف دينار ، لتحفظه عندها حتى تخرج العجوز من حمّام القصر ، فوضعته الجارية تحت الوسادة وقامت تُصلِّى ، وكان بعض العقد ظاهرًا ، فخطفه طائر من طيور القصر ، ووضعَهُ فى كوَّةٍ عالية من القصر ، ولما خرجت العجوز من الحمَّام طلبت من الجارية عِقْدَها فلَمْ تجده تحت الوسادة ، فأخذت تبحث عنه هنا وهناك فلَمْ تجد له أثرًا ، فقالت :

أخذته منك ووضعته تحت الوسادة ، ثم قمتُ إلى الصَّلاة ، وما جاءنى أحدٌ أتهمهُ ، ولا أدرى أين ذهب ؟ فشكت العجوز إلى الملك ، فأمر زوجته أن تعذب الجارية أشد العذاب حتى تعترف ، ولكن الجارية

لم تغير قولها ولم تتهم أحداً ، فأمر بسجنها وتعذيبها فى سجنها .

وذات يوم رأى الطائر يَنقر فى حباتِ العقد فى الكوَّة التى وضعه فيها ، فأمر جارية أنْ تسرع إلى الكوة وتحضر العقد ، فلما أحضرته أدرك أن الطائر هو الذى خطفه والجارية مشغولة بصلاتها ، وأمر بالإفراج عنها وندم على ما فعله بها من سجن وتعذيب ، وأمر لها بمال لإرضائها فأبت أنْ تأخذ منه شيئاً ، وخرجت وهى تقسم ألّا تدخلَ بيت أحدٍ ، ثم أوت إلى كهف فى جبل وعكفت على عبادة الله حتى ماتت .

وحُكى أن حمامتين ذكراً وأنثى جمعا قمحاً وشعيراً فى عشّهما أيام الشتاء .

ولما جاء الصيف جف الحبُّ فضمرَ ونقص حجمه ، فبان لزوج الحمامة أن الحب قد ضاع منه شىء ، وظن أن زوجته هى التى سرقته أو أكلته ، فأقسمت لزوجها أنها ما سرقت وما أكلت منه شيئاً ، فلم يصدقّها ، وجعل يضربها ويعذبها حتى ماتت .

ولما عادت أيام الشتاء نَدِى الحب فكبر حجمه ورجع إلى ما كان عليه فى أيام الشتاء الأولى ، فأدرك الزوج أنه قتل زوجتهُ ظُلماً ، وندم حيثُ لا يَنفع الندمُ وجعل يبكى عليها حتى ضعفَ ومات .

وأكثر عجباً من هـذا أن ملكاً كانت له بنت تسمى الدّعاء فاقت فى حسنها بنات عصرها ، وأصرتْ على ألّا تتزوجَ إلّا ممن يبارزها ويغلبها ، فإن غلبته أخذت فرسه وسلاحهُ وثيابه وكتَبت على جبهته : هذا عتيق

الدهماء ، بارزها كثيرٌ من أبناء الملوك وهى تغلبهم وتسلبهم وتكتب على جباههم .

بلغ صيتها وشهرتها بالجمال والفروسيه ابنُ ملك من ملوك العجم فرغب فى خطبتها لنفسه ، وأمدهُ أبوه بالأموال والنفائس وسافر إليها . ونزل ضيفاً على أبيها وقدم له هديةً سنيةً . فأقام فى كرم سابغ وحفاوة عظيمةٍ .

ثم أرسل إلى الملك مع وزرائه أنه جاء من بلاده خاطباً ابنته على أن يبارزها ويكون شأنهُ شأن من بارزها من أبناء الملوك الذين خطبوها ، فرضى الملك وابنتهُ ، وحدد اليوم المشهود للمبارزة .

اجتمع القومُ فى ساحة المبارزة فى الوقت المعلوم ، وجال ابن الملك وخطيبتهُ فى المدان جولاتٍ عنيفةً أدهشتْ القوم ونالت إعجابهم .

ولما أحستْ ابنة الملك ضعفها وقعودها عن التغلبِ عليه عمدتْ إلى الحيلة ، فكشفت لثامها عن وجهٍ أضاء جمالهُ ، فشغله النظر إليه والإعجاب عن أنْ يأخذ منها حذره ، وانتهزت ابنةُ الملك منه هذه الفرصة وهجمت عليه ، ورفعته بيدها عن سرجه ، وكان بذلك أسيراً مغلوباً ، فأخذتْ جوادهُ وسلاحه وثيابهُ وكتبت على جبهته : هذا أسيرُ الدهماء .

ثم أخلت سبيلهُ ، فودعَ قصر أبيها معلناً أنه راجعٌ إلى بلاده ما دام قد أخفق فى مبارزته ، ولكنه سكن فى بيتٍ من بيوت المدينة متنكراً ، منتحلا شخصية بستانى يجيد العمل فى البساتين والرياض ، وذهب فى اليوم

التالى إلى رئيس العمال فى حديقة الملك التى تأتى إليها ابنة الملك للاستمتاع بنسيمها وأزهارها وخضرتها .

وكان متنكرًا فى شخصية شيخ عجوز ، فقال له : إنى شيخٌ كبيرٌ قطعتُ حياتى فى أعمال الفلاحة وتعهد الأشجار وتنسيق البساتين ، وإنى غريبٌ محتاج ، ولى رغبةٌ أن أعمل فى هذه الحديقة بالأجر الذى تقترحه ، فأشفق رئيسُ البستان عليه وقبله ، وأمرهُ أن يحضر متاع بيته إلى الحجرة التى يقيم فيها من حجراتِ البستان مع بقية العمالِ ، وقد فرح به الرئيس لأنهُ وجده مطيعاً مجدًا على الرغم من شيخوخته .

وذات يومٍ أعلن الخدمُ أن ابنة الملك قادمة لتستريح فى البستان ، فمضى إلى حجرته ، وأحضر بعضاً من الحلىّ ، وجلس بها تحت شجرةٍ ووضعها أمامه ، وأحكم تنكرهُ فى شخصية العجوز ، فبدت عليه رعشة الكبر وضعف الهرم ، فمرت به ابنةُ الملك وجواريها فأعجبها ما أمامهُ من الحلى ، فذهبت إليه وقالت له : لمن هذا الحلى ؟ وماذا تصنع به ؟

فقال : هذا الحلىُّ لى وأريدُ أن أتزوج به واحدةً منكنَّ فضحكت ابنةُ الملك ، وقالت : قد زوجتك به هذه الجارية ، فدفعه إليها ، وأخذته الجاريةُ فرحةً به ، وأخذن يتضاحكن من هـذه الحالة ، ثم رجعن إلى بيوتهن .

وفى اليوم التالى حضرتْ ابنةُ الملك وجواريها ، وزوجته جارية أخرى وأخذن الحلى الذى معهُ ، على نحو ما فعلن به فى اليوم الأول . فأعجب

الحلى ابنة الملك وقالت فى نفسها : كنت أنا أحقُّ بهذا الحلى الذى لا أجد مثله فى خزائن أبى .

ثم بكرتْ إلى البستان وحدها ، والتقت بذلك الشيخ وقالت لهُ : هل تحب أن تتزوجنى ؟

فقال : أحب ذلك كثيراً ولك عندى من الحلى أجمل وأغلى ، وأعطاها ما معه .

ثم قال : هل تعرفيننى ؟

فقالت : لا .

فقال : أنا بهرام بنُ الملك الأعجمى ، تحملتُ متاعب السفر وذلَّ الغربة والتنكر فى هذه الصورة من أجلك .

فقالت : ولن أفجعك فى أملك ، وأضيع عليك تعب غربتك ، ولكن لا سبيل إلى الزواج منك إلا بالهرب معك والفرار إلى بلادك .

فقال : ذلك علينا يسير .

فقالت : أعدد نفسك للرحيل فى غلس الظلام هذه الليلة .

فقال لها : سمعاً وطاعة وشكراً وحمداً .

وبعد أن هدأ الليل وسكن جاءته بجوادين وما خف حمله من المال ، وانسلَّا من المدينة ، وأخذا يطويان القفار جادين دائبين حتى وصلا إلى مدينة بهرام وهناك تلقاهما أبوه لقاء جميلاً ، وأقام لزواجهما الأفراح ، وأرسل إلى والدها من يخبره أمرها ، ودعاهُ إلى زيارته توثيقاً لرابطة

النسبِ والمصاهرة ، فانظرْ أيها الملكِ كيف مكر ابن الملك حتى خدع ابنة الملكِ وأخذها وهرب . فهل بعد ذلك تسمع قول الوزراء فى جاريتك ؟

فقال لها : سأقتل ابنى .

وفى اليوم السابع جاء الوزيرُ السابع فقال :

لا تزالُ الحوادث ناطقةً بأن للنساء كيداً تعجزُ عنهُ الرجال ، ولا أزال أعتقد أنَّ جاريتك افترت على ابنك الكذب وكادتْ له كيداً أليماً ، فقد بلغنى أن رجلا أعطى زوجته درهما تشترى به أرزًا ، فذهبت إلى التاجر وابتاعت منه الأرز .

ثم قال لها :

إنَّ الأرز لا يطيب أكله إلا بالسكر ، فإن أردت سكراً فادخلى الدكان وخذيه .

فلما دخلت أمر خادمه أن يزن لها بدرهم سكراً ، وغمز بعينيه ، ففهم الخادم مراده .

أخذ الخادمُ منها المنديل الذى فيه الأرز وأفرغه ، ووضع فيه تراباً وحجراً وربطه وناولها إياهُ فأخذته وانصرفت وهى تعتقدُ أن فى المنديل أرزاً وسكراً .

ولما دخلت منزلها وضعتْ المنديل أمام زوجها وذهبتْ فأحضرت قدراً ، ووجد زوجها أن المنديل به ترابٌ وحجرٌ .

فقال لها : ما نوينا أن نبنى بيتاً حتى أحضرتِ لنا فى المنديل تراباً

وحجراً ، فنظرت إلى المنديل وعرفت أن الخادم غشها وبدّل بالأرز والسكر تراباً وحجراً .

فقالت : انشغل بالى وذهبتُ لأحضر الغربال فأحضرتُ القدر .

فقال زوجها : وما الذى شغل بالك ؟

فقالت : إن الدرهم سقط منى فى السوقِ فاستحييت أن أبحث عليه ، وصعب علىّ أن أتركه ، فجمعت التراب من الموضع الذى سقط فيه ، وأتيتُ به فى المنديل ، وذهبتُ أُحضر الغربال لأغربلهُ ، فنسيت وأحضرتُ القدرَ ، ثم رجعت وأحضرتِ الغربال وأعطته زوجها وقالت : غربله أنت فإن بصرك أقوى من بصرى ، فجعل زوجها يغربلُ التراب ويتعب وهو معتقدٌ صدق زوجته فلم يجد شيئاً . فهل فى استطاعة رجل أن يخلص من هذا المأزق بسرعةٍ وبتلك الحيلة العظيمة ، فاحذر الجارية وما تدعوك إليه .

فقال له : لن أطاوعها ولن أقتل ابنى .

وفى اليوم الثامن دخل على الملك ابنه ، ومعه مؤدّبه السندباد ، وكان بمجلسه وقتئذٍ الوزراء والعلماء ، والأمراء وكبراء الأعيان والوجهاء ، فحيا والده وقبل يديه ، وحيا الجالسين وحيوه . وفرح الملكُ بابنه فرحاً عظيماً وقال لمؤدبه السندباد : كنت السبب فى حجز ابنى سبعة أيامٍ أحاط بهِ الخطرُ فيها من كلّ جانب ، ثم التفت إلى الجالسين وقال : لو كنت قتلت ابنى فمن يحملُ ذنب قتله أيحمله أبوه أم تحمله الجارية أم يحمله

مؤدبه ؟ فسكت الحاضرون ولم يستطيعوا أن يجيبوا ، فقال السندباد لابن الملك : أجب أنت يا بنى ، فقال :

قدم على رجلٍ ضيوفٌ ، فأمر جاريته أن تشترى لهم من السوق لبناً فى جرة ، وبينما هى راجعةٌ باللبن من السوق مرتْ من فوقها حدأةٌ ممسكة حية بمخالبها فألقت الحيـة شيئاً من سمها فى الجرة ، دون علم من الجارية ، وشرب سيدها وضيوفه هذا اللبن فماتوا لساعتهم ، فعلى من ذنبهم ؟

فاختلف الجالسون فى الحكم ، فمن قائل بأن الذنب على من شربوا ، ومن قائل بأن الذنب على الجارية ، ومن قائل بأن الذنب على الحية .

فقال السندباد لابن الملك ؛ وما رأيك أنت يا بنى ؟

فقال : لا ذنب على أحد ، ولـكن آجالهم انتهت ، وقدر الله أن تكون موتتهم على هذه الحالة .

فعجب القوم من ذكاء ابن الملك وجعلوا يدعون له ويثنون عليه ويقولون ما أحدّ ذكاءك ! ! وأكثر علمك ! ! وما أصدقك فى حكمك ! !

فقال ابن الملك : لست أعلم من الأعمى ، وابن الثلاث السنين ، وابن الخمس السنين ، فطلبوا إليه أن يحدثهم عن هؤلاء الثلاثة ، فقال :

كان تاجرٌ رحالةٌ يسافر ببضاعته إلى كثير من البلدان التى ترُوج فيها بضاعته ، فأراد أن يسافر إلى بلدةٍ من البلاد ، وسأل القادمينَ منها عن أكثر البضائع رواجاً فيها .

فقالوا : حطب الصندل ، فإنه غالى الثمن ولا يستغنى عنه أحدٌ ولن تبور تجارته فى تلك البلدة .

اشترى التاجر بجميع ما معه من المال حطب الصندل وسافر إلى تلك البلدة ، وكان وصوله إليها فى غروب الشمس فلقيته عجوزٌ تسرق غنما ، وسألته : من تكون أيها الرجل ؟

فقال : تاجرٌ غريبٌ، أتيت إلى هذه البلدة أبتغى فيها رزق ، فقالت : رزقك الله ، ويسر لك الأمور ، وأنصحُ لك أن تحذر أهل هذا البلد ، فهم قومٌ يمكرون بالغريب ليستولوا على ما معه .

نزل التاجرُ فى خان بالمدينة ، وسأله رجل فيه من أهلها :
من أنت ؟
فأجاب : تاجرٌ قدمتُ من بلدة . . . إلى هذه المدينة ببضاعتى .

— وما أحضرت معك من التجارة ؟

— أحضرتُ خشب الصندل ، فقد سمعت أنه تجارة رابحة فى مدينتكم .
فقال الرجلُ :

كذب عليك من أنبأك هذا ، فقيمته من قيمة الحطب الذى تتخذه وقوداً ، فأسف التاجر وقال فى نفسه ضيعت مالى فى حطب لا يباعُ ولا يشترى .

ثم سأله الرجل الذى هو من أهل المدينة عما أحزنه وغير شكله وسماحة وجهه .

فقال : وضعت جميع مالى فى خشب الصندل راجيا ربحا وفيرا ، فما كسبت ربحا ، وما أبقيت مالا ؛ فقال الرجل : حينئذ وجب على أن أخفف عنك حملك فهل ترضى أن تبيعنى مامعك من خشب الصندل صاعا بصاعٍ مما تقترحه من أنواع الثمن ؟

فقال التاجر : رضيتُ وقدرَ فى نفسه أن يأخذ ملء الصاع ذهبا ، وأخذ الرجلُ الصندل جميعهُ إلى منزله ، لينقُده هناك الثمن الذى يختار نوعه .

وفى الصباح مشى التاجرُ فى المدينة يتعرفُ ما فيها ، فلقيه رجل أعور ، فأمسكه وقال لهُ أنت الذى أتلفت عينى ، وحاول التاجر أن يفلت من يده فلم يستطع ، واجتمع الناسُ وقالوا للأعور : أمهله إلى غد ليحضر لك ثمن عينك التى أتلفها .

وقال رجل منهم ، وأنا أضمن لك عودته وإعطاءك ثمن عينك ، فخلَّى الأعورُ سبيله ، ومشى التاجر وكان قد انقطع حذاؤه وهو بين الجماعة وأمام الأعور ، فوجد إسكافيا وقال له : أصلح لى هذا الحذاء ولك عندى من الأجر ما يرضيك، وتركه التاجرُ وانصرف ، فعثر بجماعةٍ جالسين يلعبون فجلس معهم ينفسُ عنه ما حل به من الغمّ ، فجعلوا يرغبونه أن يلعب معهم فأطاعهم .

ولما غلبوه قالوا له : إما أن تشرب البحر وإما أخذنا جميع ما تملك من المـال .

فقال لهم : أمهلونى إلى الغد ، فأمهلوهُ وتركهم إلى مكانٍ منعزل فجلس

فيه حزيناً ، ومرت به العجوزُ التى نصحت له وحذَّرتهُ أول قدُومه .

فقالت : أراكَ حزيناً متألماً ، فماذا أصابك من أهل هذه المدينة الظالمين ؟

فحكى لها جميع ما جرى له . فقالتْ :

سأدلك على من يخلصك ويدفع عنك شر هؤلاء الذين أضرُّوكَ واحتالوا فى نهب أموالك فاسمع منى ما أقول : فى مكان . . بابه واسعٌ مرتفع ، وهو مفتوح على الدوام ليلا ونهاراً ، فإذا دخلته وجدت فناء واسعاً على جانبه الأيمن إيوان مفروش بالحصير الملون ، وجلس فيه شيخ أعمى مقعد ، وهو عالم ذكىٌّ ، ماكر ساحر ، بصير بتصريف الأمور ، وبيان الصالح منها والفاسد ، والرابح والخاسر ، حلاَّل للمشكلات المعقدةِ ، فتَّاح للأبواب المغلقة ، تأتيه الأشرار فيعرضون عليه حوادثهم ، وهو يبين لهم فيها وجوه الفوز والخيبة ، والربح والخسارة ، فاذهب ليلتك هذه إلى هذا البيت مستخفِياً ، واختبئ فى مكان قريب من مجلس ذلك الشيخ الأعمى ، بحيثُ تراهم وتسمع أقوالهم ، وهم لا يرونك ولا يحسون لك حركة ولا يسمعون همساً ، وستعرف منه سبل انتصارك عليهم ونجاتك من أيديهم .

ذهب التاجرُ الغريب إلى هذا البيت واختبأ فيه حتى اجتمع الأشرارُ وقعدوا أمام هذا الشيخ الأعمى ، وكان من بينهم خُصومه الأربعة ، فتقدم إليه صاحب خشب الصندل ، وقال : إنى ابْتعت خشب صندلٍ من تاجر غريب صاعاً بصاع مملوء مَّما يختارُه ذلك التاجرُ .

فقال الأعمى : قد غلبك التاجرُ .

فقال الرجلُ : ولم غلبنى ؟

فقال : إذا طلب منكَ ملء الصاعِ ذهباً فهل تعطيه ؟

فقال الرجلُ : نعم أعطيه وأ كون الرابح .

فقال الأعمى : فإن طلب منك ملء الصاع بَراغيث نِصفُها ذ كور والنصف الآخر إناث فماذا أنت فاعل ؟ فسكت الرجل وعلم أنه مغلوب .

وتقدمَ الأعور وقال : لَقِينى اليوم رجل غريب فادعيتُ عليه أنه أتلف عينى، وما أخليتُ سبيله حتى ضمنه أحد الناس،على أن يأتينى غدًا وَيعطِينى ثمن عينى التالفة، فقال الأعمى: غرمت وغلبَك ،فقال الأعور: وكيف ذلك ؟

فقال : له أن يقول لك : العين بالعين والسن بالسن والأذن بالأذن ، فاقلع عينك السليمة ، وأنا أقلع عيناً من عيونى ، ونزنُ كلا منهما ، فإنْ تساوت عينى وعينك فهى فيها ، وإلَّا أعطيتنى دية عينى ، وتكون بذلك قد غرمت الدية ، وفقدت عينك الثانية ، وبقى هو بعَين واحدة يبصر بها ، فسكت الأعورُ وعلم أنه لم يفز بشىء .

وتقدم الإسكافىُّ إليه فقال :

أصلحتُ اليوم حذاء رجلٍ على أن يعطينى ما أرتضيه ، فقال الأعمى : لو أراد أن يأخذ حذاءهُ دون أنّ يعطيك شيئًا تفعل .

فقال الإسكافىُّ : وكيف ذلك ؟

فقال الأعمى : سيقول لك : إن السلطان هُزِمت أعداؤه ، وكثرت أولاده ، وقويتْ أنصاره وجنوده ، أرضيت أم لا ؟ فإن قلت : رضيت ،

أخذ نعله وانصرف . وإن قلت : لا ، أخذ نعله وضربك به وانصرف ولم تستطع أن تفعل شيئاً . فسكت أيضاً وعلم أنه مغلوب .

وتقدم جماعة اللاعبين وقالوا : مرَّ بنا رجل غريب فاستملناه إلى اللعب معنا ومراهنتنا فغلبناه وقلنا له : لا نُعفيك من الغرم ودفع ما عليك حتى تشرب هذا البحر ، فإن شربته أعفيناك وأعطيناك ما معنا من النقود .

فقال الأعمى : غلبكم وفاز بنقودكم ، فقالوا : وكيف ذلك ؟ فقال : سيقولُ لكم : أمسكوا فم هـذا البحر وناولونى إياهُ وأنا أشربه فلن تستطيعوا ذلك وحينئذ يأخذ أموالكم .

فعلموا أنهم قد غلبوا وخسروا أموالهم ، ثم انصرفوا وانصرف التاجر .

وقد فهم من الأعمى وجوه خلاصه وفوزه . ومكث فى خانه حتى يجيئه خصومه .

وفى الصباح أتاه من راهنهُ على شرب البحر فقال التاجر له : أمسك فمُهُ وناولنى إيّاه وأنا أشربهُ ، وإلا غرمت لى مائة دينار وأعفيتك من هذه المراهنة ، فأعطاه مائة دينار وانصرف غارماً .

وأتاه الإسكافُ بحذائه بعد أن أصلحهُ . فقال له التاجر : لقد غلب السلطان أعداءه ، وكثر أولاده وقوى جنده وأنصاره ، أرضيت أم لا ؟ فقال الإسكاف : رضيت وأمرى إلى الله ، وناوله حذاءه وانصرف ولم يأخذ منه شيئاً .

وجاءه الأعور فقال له التاجر : اقلع عينك السليمة وأقلَعُ عينى ؛ فإن تساوتا فى الوزن ، كانت العينُ بالعين ، وإلاَّ غرمت دية عينى التى كنت السبب فى قلعها بادِّعائِكَ الكاذب ، فقال الأعور : أَقِلْنِي من هذه القضية ، فقال التاجر : أَقَلْتُكَ منها على أن تعطينى مائة دينارٍ وإلا رفَعْتها إلى السلطان ليجزيك بما ادَّعَيْت باطلا ، فأعطاهُ مائة دينار وانصرف نادماً .

وحضر إليه الرجل الذى اشترى منهُ خشب الصندل ليُعطيه ثمنهُ ، فقال التاجر : ماذا أحضرتهُ ثمناً لخشبي ؟ فقال : إن أردت أن أملأ لك صاعاً ذهباً بصاع من خشبك فعلت ، فقال التاجر لا يُرضينى إلا أن أملأ الصاع براغيث نصفها ذكور والنصف الآخر إناث ، فقال الرجل : لا أستطيع ذلك فخذ خشبك ، فقال التاجر : آخُذُ خشبي ومعهُ عِوضٌ قدره مائة دينار ، فرد الرجل الخشب ومعهُ مائة دينار . ثم باع التاجر الخشب فى المدينة ، وربح فيهِ ربحاً عظيما ، وسافر إلى بلده . قال ابن الملك : وهذا حديث الأعمى ، أما الحديث عن ابن الثلاث السنين فاستمعوا له :

كان رجل فاسق مغرماً بالنساء ، فسمع أن فى مدينة بعيدة عن مدينتهِ امرأة جميلة ، فسافر إليها ، وأخذ معه هدية قيِّمة ليستميلها بها ، فلما وصل إلى مدينتها جعل يسأل عن منزلها حتى عرفهُ ، فذهب إليه وطرق بابه ، فقالت المرأة : من الطارق ؟ وذهبت إلى الباب ففتحتهُ ، فقال لها : رجل غريب يرجو أن تقبليه ضيفاً ، ولك منى هذه الهدية ، وناولها عِقداً له قيمتهُ ، فقالت المرأة : مرحباً بالضيف الكريم ، وأخذت منهُ العقد ،

وأدخلتهُ المنزل ، وأجلستهُ فى حجرة بها ابن صغيرٌ لها ، لم يبلغ من العمر إلا ثلاث سنين ، ثم استأذنت وقامت لتُهيِّئَ طعاماً للضيف ، فجعل الولد يبكى ويبكى حتى قلق الرجلُ وضاق صدره ، فنادى أمهُ وقال لها : إن ابنك هذا شُؤْمٌ على نفسِهِ وأهله ، فأجاب الولدُ من فوره : وما أنت إلا شُؤم ونكبة ، فقد سافرت من مدينتك أسيراً لشهوتك ودناءة نفسك ، طامعاً فى انتهاك الحرمات وظلم الأعراض وعقوق الفضيلة ، فأتعبت نفسك وخسرت مالك ، أما أنا فقد بكيت لأنى أحسست شيئًا فى عينى فأخرجتُهُ بدموعى ، فأيُّنا شُؤم على نفسِهِ وأهله وإنسانيتِهِ ؟ ! !

فخجل الرجل وتسلل من البيت راجعاً إلى مدينتِهِ ، وكان ذلك سبباً فى صلاحِهِ واستقامتِهِ . وهاكم الحديث عن ابن الخمس السنين :

اشترك أربعة من التجار ، وجمعوا رأس مال قدره ألفُ دينار وضعوها فى كيس ، وخرجوا ليشتروا بها بضاعة ، فمرّوا فى طريقهم ببستان أعجبهم ، واستمالهم جماله إلى أن يدخلوه ليستمتعوا بمحاسنِهِ ومباهجه ، فأودعوا كيس الدنانير عند حارسته ، وشرطوا عليها ألا تعطيهم الكيس إلا فى حضرتهم أجمعين .

وأخذوا يجوسونَ خلال البستانِ ، بَين أشجارِهِ وزُروعِهِ ، وأزهاره ورياحينِهِ ، فى متعَةٍ منْ نسيمِهِ العَليلِ ، وظلالِهِ الوارفةِ ، وطيوره المغردة ، ومياهِهِ الجارية الصافية ، فقال أحدهم : لو غسلنا رءوسنا من هذا الماء الصافى وتطيبنا ! ! فقالوا : وأين الطيبُ ؟ فقال : ها هو ذَا معى ، فقال

آخر : وأين المشطُ الذى نُمَشط بهِ شَعرَنا ، فقال أحدهم : لعلَّ الجارية عندها مشط نستعيره منها ، وقال صاحب الطيب : وأنا الذى أحضر لكم المشط من عندها ، فقالوا : لا بأسَ ، فاذْهبْ وَلْتتلطَّف فى طلبه .

ذهب التاجر إليها وقال لها : أعطينِى كيس الدنانير ، فقالت : لن تأخذهُ منِّى حتى تَحْضُرُوا جميعاً ، فقال لهم — وكانوا عَلَى مقربةٍ منهما — ليست براضية أن تعطينى شيئاً حتى توافقوا ، فقالوا لها : نحن الذين أرسلناه ، فأعطيه إياه ، ثم ذهبت به إلى المكان الذى حفظت الكيسَ فيه ، فناولتْهُ إياهُ ، فأخذه وخرج من البستانِ وهرب .

ولما أبطأ عليهم ذهبوا إلى الحارسة فقالوا : أين صاحبنا الذى أعطيتِهِ المُشْط ؟ فقالت ما طلبَ منى مُشطاً ، ولـكنَّهُ طلب كيس الدنانير منِّى ، فأبيتُ أن أعطيه إياه حتى تحضُروا جميعاً أو توافقوا ، وقد وافقتُم على إعطائه الكيس فأخذهُ وخرج من البستان مولّياً . فأخذوها ورفعوا أمرهم إلى القاضى ، فحكم عليها لهم وألزمها بإعطائهم كيس الدنانير ، وضَمِنها جماعة من أهلها كانوا حاضرين .

ومشت الحارسةُ إلى دارها حزينةً تدعُو على الظالمين وتسأل الله أن يكشف عنها هذا البلاء ، فلقيها غلام عمره خمسُ سنين وسألها : ما بالُكِ يا أُماهُ حزينةً متألمةً ؟! فاستصغرته ولم تعبأ بقوله . فكرر سؤاله مرةً ومرةً حتَّى أفْضت إليه بذات نفسها ، فقال الغلام : هاتى درهماً أشترى

به حلاوةً وأنا أُشير عليك عما ينجيك ؛ ولما ناولته الدرهم فرح وقال : ارجِعى إلى القاضى وقولى له :

إن التجار قد شرطوا على ألا أُعطيهم كيس الدنانير إلا فى حضرتهم أجمعين ، فليحضروا رابعهم ويأخذوا كيسَ دنانيرهم ، فسألهم القاضى — وكانوا لا يزالون فى الجلسة : أكان بينكم وبينها هذا الشرط ؟ فقالوا : نعم . فقال: أحضروا رفيقكم وخذوا معاً كيسكم ، ثم أخلى القاضى سبيلها .

فأعجب الحاضرون بابن الملكِ وفرح به أبوه ، ثم سأله عن قضية الجارية ، فقال : لعنها الله من جارية كاذبةٍ خاطئةٍ ، وأقسم لأبيه انها هى التى راودتنى عن نفسى وانى زجرتها وأنذرتها أن أُخبرك لتقتلها ، وقال أحد الوزراء : لعنها الله ، وقد أرادت أن تقتلك بالباطل قبل أن تقتلها بالحق فرمتك بالخطيئة عدواناً وكيداً ، فقال أبوه : قد حكَّمتكَ فيها ، فقال : ابنه : يكفى أن تقذفها من قصرك وتنفيها من المدينة ، فأمر الملكُ بنفيها ، وعاش هو وابنه حتى انتهت أيامُهما من الحياة الدنيا .

أبو الحسن وجاريته توَدُّد

كان في مدينة بغداد تاجرٌ كثيرُ المال عظيم الجاه، كبِرت سِنُّه ولا يزالُ عقيماً لم يرزَق بولد، فأكثرَ من التصدق ومساعدة الفقراء بماله، ودعا ربه أن يهب له ولداً، يخلُفهُ في ماله، والقيام على استثماره، والإنفاق منهُ في وُجوه الخير، من كل ما ينفعُ الناس، ويخففُ عنهمُ أثقال الحياة، فاستجابَ الله دعاءه ورزقهُ على الكِبَر من زوجته ولداً أسماهُ أبا الحسن، وأحسن تربيته وتعليمهُ، حتى بلغ رشده، وكان قرَّةَ عين أبيه وأمّه.

وذات يومٍ أجلس الرجلُ التاجر ابنه أبا الحسنَ بين يديه وقال له:

لقد كبِرَتْ سِنِيّ، ودَنا أَجلي، وقد أورثتك مالاً كثيراً، وأحسنت تربيتك، فاتقِ اللهَ فيما خَلَّفتهُ لك من المال، والتزم في القيام

عليه ما شرَعه الله ولا تغرَّنك كثرته ، فتقعد عن استثماره ، فإن المال وإن كثر يذهبُ بالإنفاق ، ولا تتبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله ، وتبوء بالخسران المبين فى دنياك وآخرتك .

تقبَّلَ أبو الحسن وصية والده بالسمع والطاعة ، ولم يمض إلا أشهرٌ معدودات حتى مرض التاجر أبو الحسن ومات ، فشيَّعه ابنهُ إلى قبره فى حفل جامع ، وأقام لهُ مأتماً يليق بمنزلته ، وتوافد عليه المعزون من كلِّ حدب يسلونه ويخففِّون عنه وطأة الكارثة .

ومضت الشهور فأنستهُ والده وألهاه المال عن وصيته ، وأحاط به قرناء السوء ، فزينوا له إشباع النفس بلذاتها وشهواتها ، فجعل ينفق ويسرف حتى لم يبق له مما تركه أبوه إلاَّ جاريةٌ اسمُها تودُّد ، وكانت ذات جمالٍ فاتن ، وعلم واسعٍ ، وعقلٍ حكيم رشيد ، ولسانٍ فصيح .

رأتْ الجارية تودُّد فقرَ سيِّدها وإعساره ، وعزَّ عليها أن تراه فى هذا الضيقِ المؤلم ، فقالت له :

سأشيرُ عليك يا سيِّدى بما يسعدك ويغْنيك : بعنى إلى الخليفة هارون الرشيد ، ولا تُفرِّط فىَّ حتى يعطيك ثمناً لِى عشرة آلاف دينار ، فإن عُظم هذا الثمن فى رأيه فقل له :

جاريتى هذه لا نظير لها فى العلم والأدب ، وإذا اختبرتَها عظمتْ فى نفسك ، وكان هذا الثمن قليلاً فيها . وإياك أن تبيعنى بأقل من عشرة آلاف دينار .

أخذ أبو الحسن جاريته وذهب بها إلى الخليفة هارون الرشيد ، فاستأذن وحيَّا ، ثم قال :

هذه جاريتي ، ورثتها عن أبي ، ورأيت أنها لا تصلُحُ إلاَّ لقصر الخليفة ، وقد جعلتُ ثَمَنها اثني عشر ألف دينار ، لما امتازت به من علم وحكمةٍ ، وإذا اختبرَها أميرُ المؤمنين وجدَها فوق هذا الثمن بكثير .
فالتفت إليها الخليفة قائلا :

ما اسمُك أيتها الجاريةُ ؟

اسمي تَوَدُّد .

ماذا عرفت من العلوم ؟

عرَفتُ يا أمير المؤمنين عُلوم الشريعة واللُّغة والنحوِ ، والرِّياضةِ والفلسفة والمنطق والحكمة والفلك ، وحذقت فنَّ الموسيقى وأجدتُ الضَّربَ علَى العود ، وعرفت من كلِّ شيء ما لمْ يَعرِفهُ إلاَّ الرَّاسخون في العلم ، ولو أجلستني في حضرة العلماء وسألوني عما يُريدون لرأيْتَ منِّي ما يُرْضِيكَ ويَسُرُّكَ ، ويجعلُني موضعَ تقديركَ ، فقال الخليفة لِسيِّدها : أنتَ وجاريتُكَ ضيفان عندي ، وسأُحضِرُ العلماءَ ليسألوها فيما ادَّعته لنفسها ، فإن أجابت وفازت أعطيتك الثمن الذي اقترحْته أو أكْثرمنه ، وَإلاَّ فأنت أولى بها ، وليس لنا فيها حاجة ؛ وأمَرَ رجالهُ أنْ يذهبوا بهما إلى دار ضيافته .

كَتبَ الخليفةُ إلى عامِلهِ بالبصرة أن يُرسلَ إليه إبراهيم بن سيَّار

النَّظام المعروف بقوَّةِ الحُجَّة ، والتفوّق في الشّعر والبلاغة والمنطق ، ومعه جمهرةٌ من كبار القراء والعلماء والأطبَّاء والمنجّمين ، والحكماء والفلاسفةِ والمهندسين .

حضر إبراهيم بن سيار وجماعةُ العُلماء مُلبّين دعوة الخليفة ، وجلسوا بين يديه ، فأمرَ أن تُحْضر الجارية تودُّدُ ، فلمّا حضرت أجلسها على كرسي مُحلى بالذهب أعِدَّ لها ثمّ قال للعلماء :

هذه جارية تدّعى أنها بلغتْ في العلوم والفنون ما لمْ يبلغْه إلاَّ الرّاسخون في العلم ، وقد دعوْتُكم لاختبارها ، وها هي ذي بين أيديكم وليسألها كلٌّ منكم فيما حَذِق من العلوم والفنون ، حتى نعرف لها قدرَهاَ ، فقالوا : سمْعاً وطاعةً لِأمير المؤمنين ، ثم سادَ الجلسةَ صمتٌ وسكون ، فقالتِ الجارية :

من فيكمْ العالمُ الفقيهُ المحدّث ؟ فقالَ أحدهُم :

أنَا مَن تسألين عنه . فقالت :

سلْ ما شئت . فجعل يسألُها وتجيب :

منْ ربُّكِ ومَنْ نبيُّكِ ؟

ربِّيَ اللهُ الواحد الأحد ، الفرد الصمَد الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيء وإليه المصيرُ ، ونبيّي محمد بن عبد الله خاتمُ الأنبياء والمرسلين ، أرسلهُ الله بالهدى ودِين الحقّ ، صلى الله عليه وسلم .

أخبريني عن إمامكِ وقبلتِك وإخوانك ، وطريقتك ومنهاجِك .

القرآنُ الكريم إمامى ، والكعبة قبلتى ، والمؤمنون إخوانى ، والخيرُ طريقتى ، والسُّنَّةُ النبوية منهاجى .

بِمَ عَرفتِ اللهَ تعالى ؟

عرَفتُ ربِّى بالعقل .

وما العقلُ ؟

العقلُ موهُوبٌ ومكْسُوب .

أمَّا العقل الموهوب ، فقد خلقه الله تعالى يهدِى به من يشاء من عبادِه ، وأما العقل المكسوبُ فهوَ الذى كَسبَه المرء بالتعلم والخبرة وحُسنِ المعرفةِ

وأين العقل ؟

قذَفهُ اللهُ فى القلب ، واصَّاعَد شُعاعُه إلى الدماغ حتى استقرَّ .

وبِمَ عرفتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؟

عرفتُهُ بالقرآن الكريم الذى تحدَّى بِهِ العرب ، وبالبراهين والمعجزات التى ظهرتْ عَلَى يديه تصديقاً لهُ .

وَما الفرائضُ الواجبةُ والسُّنَنُ القائمةُ ؟

الفرائضُ الواجبة خمس : شهادةُ أن لا إلهَ إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحَجُّ البيت لِمَنِ استطاع إليهِ سبيلا ، والسُّنَنُ القائمة الليلُ والنهار والشمس والقمر ، وهنَّ يبنين العمرَ والأمَل ، وابْنُ آدمَ غافلٌ عنْ أنهنَّ يهدمن الأجَل .

وما شعائرُ الإيمان ؟

الإيمانُ والصلاة والزكاةُ والصومُ والحجُّ والجهاد واجتنابُ الحرام .

بِمَ تقومين إلى الصلاة ؟

أقومُ إلى الصلاة بنيَّة العبودية والإقرار بأنَّ ربِّىَ اللهُ الذى خلق كلَّ شىء .

ما ذا فرض عليكِ قبل أن تقومى إلى الصلاة ؟

الطَّهارةُ وَسترُ العوْرة والوُقوف على مكانٍ طاهر والتوجُّه إلى القبلة والقيام والنية .

بِمَ تخرجين من بيتك إلى الصلاة ؟

أخرج من بيتى إلى الصلاة بنية العبادة .

ما مبدأُ الصلاة ؟ وما تحريمها ؟ وبم تتحللين منها ؟

مبدأُ الصلاة الطهور ، وتحريمها تكبيرة الإحرام، وأتحلل منها بالسلام.

وما رأيك فى الصلاة ومن تركها ؟

الصلاة عماد الدِّين ، وهى صلة بين العبد وربِّه ، وهى تنير القلب ، وتضىء الوجه ، وترضى الرحمن ، وتغضب الشيطان ، وتدفع البلاء ، وتقى المرء شر الأعداء ، وتسبغ الرحمة ، وتكشف السوء والنقمة ، وتقرِّب العبد من مولاه ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن تركها عامدًا متعمدًا فلا حظَّ له فى الإسلام .

ما مفتاحُ الصلاة ؟

الوضوء .

وما مفتاحُ الوضوء ؟

التَّسْمِيَةُ .

وما مفتاحُ التَّسْمية ؟

اليقين .

وما مفتاحُ اليقين ؟

التَّوكلُ .

وما مفتاح التَّوكلُ ؟

الرَّجاء .

وما مفتاحُ الرجاء ؟

الطَّاعة .

وما مفتاح الطاعة ؟

الاعترافُ لله بالوحدانية ، والإقرار له بالربوبية .

وما فرائض الوضوء ؟

سِتةُ أشياء عند الإمام الشافعي رضى الله عنه : النيةُ ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين مع المرفقين ، ومسح بعض الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، وسُنَنه عَشرة : التسمية ، وغسلُ الكفين ، والمضمضة ، والاستنشاق ، ومسح جميع الرأس ، ومسح الأذنين ظاهرهما و باطنهما بماء

جديد ، وتخليل اللحية الكثة ، وتخليل أصابع اليدين والرجلين ، وتقديم اليمنى على اليسرى ، والطهارة ثلاثاً ثلاثاً ، والموالاة ؛ فإذا فرغ المرء من من الوضوء قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم اجْعَلنى من التوابين واجْعلنى من المتطهِّرين، سبحانك اللهم، وبحمدك أشهَد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ؛ فقد ورد فى الأثر أن من قالهاَ عقِب كل وضوء فتحت له أبواب الجنة الثمانية تدخل من أيِّها شاء . والوضوء يَطْرُد الشيطان ، ويحفظ من جور السلطان .

وماذا يفعل المرء إذا استيقظ من نومه ؟

يَغْسِل يديه ثلاثاً قبل أن يباشر بهما عملاً .

وما فروض الغُسل ؟ وما سُننه ؟

فُروض الغُسل: النية وتعميم البدن بالماء، وسُننه الوضوء قبله والتدليك، وتَخليل الشعر .

وما أسبابُ التيمم وما فروضه وسُننه ؟

أسْبابُ التيمم : فقد الماء والحاجة إليهِ والخوف والمرض ، وفروضه النيةُ وضربة للوجه وضربة لليدين ، وسننه : التسمية وتقديم اليمنى على اليسرى .

ما شروط الصلاة وأركانها وسننها ؟

شروطهاَ طهاَرة الأعضاء ، وستر العَوْرة ، ودخول وقتها ، واستقبال القبلة ، والوقوف على مكان طاهر ، وأركانها : النية ، وتكبيرة الإحرام ،

والقيام للقادر عليه ، وقراءةُ الفاتحة « وبسم الله الرَّحمن الرَّحيم » آية منها عَلَى مذهب الإمام الشافعي ، والركوع والطمأنينة فيه ، والاعتدالُ منهُ والطمأنينة فيه ، والسجود مرتين والطمأنينة فيهما ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والتشهد الأخير ، والجلوس له ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، والتسليمة الأولى ؛ وسنن الصلاة : الأذان ، والإقامة ، ورفع اليدين عند الإحرام ، ودعاء الافتتاح ، والتعوذ ، والتأمين مع الإمام ، وقراءة آيات من القرآن بعد الفاتحة ، والتكبيرات عند الانتقال من ركن إلى آخر ، وقول المصلىّ عند الاعتدال من الركوع : سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ، والجهر فى موضع الجهر ، والإسرار فى موضع الإسرار ، والتشهد الأول ، والصلاة على الآل فى التشهد الأخير ، والتسليمة الثانية .

فيم تجب الزكاة ؟ وما مقدارها ؟

تجب الزكاة فى الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ، وفيه نصف مثقالٍ ، وما زاد فبحسابه ، وتجب فى الفضة إذا بلغت مائتى درهم ، وفيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وفى الإبل وأول نصابها خمس وفيها شاةٌ وفى عشرٍ شاتان وفى خمس عشرة ثلاث شياه وفى عشرين أربع شياه وفى خمس وعشرين بنت مخاض وفى ست وثلاثين بنت لبون وفى ست وأربعين حقّة ، وفى إحدى وستين جذعة وفى ست وسبعين بنتا لبون وفى إحدى وتسعين حقتان وفى مائة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون ثم فى كل أربعين بنت لبون وفى كل خمسين حقة ، وتجب فى الأغنام وأول نصابها أربعون وفيها شاة أو ثنية من المعز وفى مائة وإحدى وعشرين شاتان وفى

مائتين وواحدة ثلاث شياه وفى أربعمائة أربع شياه ثم فى كل مائة شاه ، وتجب فى الزرع والثمار ونصابها خمسة أوْسُق ، ولا زكاة فيما دون ذلك لما روى عن الشيخين: (ليس فيما دُون خمسة أوسق صدقة) ، وفيها إن سقيت بماء السماء أو السيْح العشر ، وإن سقيت بدولاب أو نحوه نصف العُشْر .

ما فروض الصوم وما سننه ؟

النية قبل طلوع الفجر ، والإمساك عن الطعام والشراب وكل مفطر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وسننه تعجيل الفطْر وتأْخير السحور، وتركُ الكلام إلا فى خير أو ذكرٍ أو تلاوة القرآن .

ما صلاة العيدين ؟

صلاة العيدين سنة ، وهى ركعتان بلا أذانٍ ولا إقامة ، يُكبر فى الركعة الأولى سبعاً وفى الثانية خمساً سوى تكبيرَتِي الإحرام فى الأولى والقيام فى الثانية .

وما صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر ؟

هذه الصلاة سنة ، وهى ركعتان فى كل ركعة ركوعان وقيامَان وسجودان ، ثم يجلس المصلى ويتشهد ويسلم . وهى بغير أذان ولا إقامة .

وما صلاة الاستسقاء ؟

ركعتان بغير أذان ولا إقامة، ثم يخطب الخطيب، ويدعو الله ويتضرع محوّلا رداءه ، بأن يجعل أعلاه أسفله .

وما صلاةُ الوتر ؟

أقلها ركعة وأكثرها إحدى عشرة .

وما صلاة الضُّحى ؟

أقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة .

وما الاعتكاف ؟

المكث فى المسجد ، وشرطهُ النيَّةُ .

متى يجب الحج ؟

يجب الحج على من استوفى البلوغ والعقل والإسلامَ والاستطاعة ، وهو واجبٌ فى العمْر مرةً واحدة .

ما فروض الحجِّ ؟

الإحرام ، والوقوف بعرفةَ ، والطوافُ ، والسعىُ ، والحلق أو التقصيرِ .

ما فروضُ العُمْرةَ ؟

الإحرام بالعمرة ، وطوافُها وسَعيها .

ما فروض الإحرام ؟

التجرد من المَخيط ، واجتناب الطِّيب ، وتركُ كلٍّ من حلق الرأس وتقليم الأظافر وقتل الصيد والزواجِ .

هناك أشياء أخرى واجبة فى الحج ، فما هى ؟

التلبية وطَواف القدُوم وطواف الوَداع والمبيت بمزدلفة وبمنى ورمى الجِمَارَ .

ما الجهاد ؟

القِتَال لإعلاء كلمة الله ، من غير ظلم ولا اعتداء ، ويشملُ الجهاد بالنفس والمال ، ولا بدَّ من التحريض عليه ، لقوله تعالى : « يأيُّها النبىُّ حرِّض المؤمنينَ على القِتَالِ » ، ومن ماتَ فيه ماتَ شهيدًا ، وجزاؤه الجنة ، قال تعالى : إنَّ الله اشترى منَ المؤمنينَ أنفُسَهمْ وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون وعدًا عليهِ حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من اللهِ ، فاستبشرُوا ببيعِكُمُ الذى بايعتُم به .

ما فُرُوض البَيع ؟

الإيجابُ والقبولُ ، وأن يكون المَبيعُ مَمْلوكاً لِلبائع قادرًا على تَسْليمِهِ ، خاليًا من الرِّبا .

ما الشىء الذى لا يجوزُ بيعُ بعضهِ ببعض .

ما كان منْ صِنفٍ واحدٍ لاَ يجوزُ بيعُ بعضه ببعْض كالتمرِ بالتمرِ والقمح بالقمحِ .

ما معنى الكلمات الآتية فى اللغة : الوضُوء ، الغُسلُ ، الصوْمُ ، الزكاةُ ، الحجُّ ، الجهادُ ؟

الوُضوء التنظُّف ، والغُسل التطهير ، والصومُ الإمساكُ ، والزكاةُ الزِّيادةُ والنَّماء ، والحجُّ القصد ، والجهاد الدفاع والقتال .

وَبعد هذا أعلن هذا العالم فى المجلس أن الجارية عَلَى علمٍ واسعٍ ، وأنها أجابتْ عن كل سُؤالٍ إجابةً صادقة سديدةً .

ثم قالتْ الجارية :

أتسمحُ أن أسألك عن أشياء كما سألتنى ؟ فقال :

سَلى يا جاريةُ فإنى مُجيبكِ بقدْر ما يتسع لهُ علمى وفهمى . فقالتْ :

مَا مِهام الدين ؟

الشهادةُ ، والصلاةُ ، والزكاةُ ، والصومُ ، والحجُّ ، والجهادُ ، والأمر بالمعروف والنهىُ عن المنكر ، والأُلفةُ ، وطلب العلم .

مَا سر الإسلام ؟

صحةُ العقد ، وصدق القصد ، وحفظ الحد ، والوفاء بالعهد ، فقالت :

إن لم تجب عن هذا السؤال الأخير أخذت منك جُبتك إيماء إلى عجزك وإفحامك ، فقال :

لك ما أردت فهاتى سؤالك . فقالت :

ما فروعُ الإسلام ؟ فسكتَ ولم يحرْ جوابًا ، فقال الخليفة :

أذكريها وأنا أعطيك جُبَّتهُ ، فقالت :

التَّمسك بكتاب الله ، والاقتداء برَسوله ، وكف الأذى ، وأكل الحلال ، واجتناب الحرام ، وردَّ المظالم إلى أهلها ، والتوبةُ ، والتفقهُ فى الدين ، ومحبة الخليل ، وتصديق المرسلين ، والتأهب للرحيل ، وقوة اليقين ، والعفو عند المقدرة ، والقوة عند الضعف ، والصبر عند المصيبة ،

ومخالفة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، والإخلاص لله تعالى فى السر والعلانية ، فأعطاها جُبته ، وسكتَ مغلوباً .

وتقدم عالم آخر وسألها :

ما آداب الأكل ؟

الاعتراف بأن الله تعالى هو الذى أطعم وسقى ورزق ، والشكر لله على ما أنعم ، والتسمية وغسل اليدين ، والأكل بثلاث أصابع ، والأكل مما يلى الآكل ، وأن يُصغِّرَ اللُّقمة ، ويقلل من النظر إلى جليسه .

وَما شكر الله تعالى ؟

هو صرف العبد جميعَ ما أنعم الله عليه فيما خُلق لأجلهِ .

ما الإيمانُ ؟

أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تُؤْمن بالقدر خيره وشرِّه .

أخبريني عن ثلاث تُذْهبَ ثلاثاً .

الحسنات يذهبنَ السيئاتِ ، والإسرافُ فى المال يذهبه ، وسوء الخلق يذهبُ الوَقار والمحبة .

أخبريني عن شىء ونصف شىء ، ولا شىء .

الشىء هو المؤمن ، ونصف الشىء هو المنافق ، وغير الشىء هو المشرك .

ما أنواع القلوب ؟

القلوب منها السليم ، والسقيم ، والمُنيب ، والنذير ، والمُنير . ومنها ماهو معلقٌ بالدنيا، وما هو معلق بالآخرةَ ، وما هو عامر بذكر الله تعالى، فسكت العالم بعد أن أبدى أعجابهُ بالجارية ، ثم قالت :

سأسألكَ كصاحبك فإن عجزتَ أخذتُ جُبتكَ كما أخذت جُبته .

فقال : سلى ماشئتِ ، واللهُ ينصرنا . فقالتْ : ما الإيمان ؟

تصديق بالقلب ، وإقرارٌ باللسان ، وعمل بالجوارح ، ومن كمال الإيمان التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والرِّضا بقضاء الله ، وأن تكون أمور المرء للهِ ، وأن يحب ويكره ويعطى ويمنع لله .

أخبرنى عن فرض الفرض ، وفرضٌ فى ابتداء كل فرض ، وفرض يحتاج إليه فرض ، وفرض يستغرقُ فرضاً ، وسُنة داخلة فى الفرض ، وسنة يتم بها فرض ، فأفحم ولم يتكلم ، فأعطاها الخليفةُ جبةَ هذا العالم وأمرها أن تُجيب عن سؤالها هذا ، فقالت :

فرض الفرض معرفة الله تعالى ، والفرض فى ابتداء كلِّ فرضٍ شهادة أن لا إله إلاَّ اللهُ وأن محمدًا رسول الله ، والفرضُ الذى يحتاج إليه فرض الوضوء ، والفرض الذى يستغرق فرضاً الغسلُ ، والسنة الداخلة فى الفرض تخليل الأصابعِ واللحية الكثة ، والسنة التى يتمُّ بها فرضُ الختان .

وتقدم القارئُ إليها ، فسألها :

كم فى القرآن من أسماء الأنبياء ؟

الأنبياء الذين ذكرتْ فى القرآن أسماؤهم خمسةٌ وعشرون ، وهُمْ : آدمُ

ونوحٌ وإبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ ويوسُفُ واليشعُ ويونسُ ولُوطٌ وصالحٌ وهودٌ وشعيبٌ وداودُ وسليمانُ وذُو الكفلِ وإدريسُ وإلياسُ ويحيي وزكريَّا وأيوبُ وموسَى وهارونُ وعيسى ومحمدٌ صلوات الله وسلامهُ عليهم أجمعين .

ما أسماء الطير التى ذكرت فى القرآن ؟

البعوضُ والنحْلُ والذُّبابُ والنمل والهدهدُ ، والغراب والجراد والأبابيلُ وطير عيسى عليه السلام وهو الخفاشُ .

ما فضل « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ؟

جاء فى الأثرِ أن « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ما قرِئت عَلَى شىء إلا بورِكَ فيه .

هل أنزل القرآن جملةً ؟

أنزل مُتفرقاً على حسبِ الوقائع والأحوال .

ما أول آية نزلت ؟

اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنْسَان ما لم يعلمْ .

منْ كان يَكتبُ القرآن فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

أُبَيُّ بن كعب وزَيد بن ثابت وأبو عبيدةُ وعُثمان بن عفان رضى اللهُ عنهم. ولما سكت عن سؤالها قالت له : إن لم تجب عن سؤالى هذا أخذتُ جُبتك، ثم قالتْ : اذكُر آيةً فيها ثلاث عشرة كافاً، وآية فيها ست عشرة ميما ،

وآيةٌ فيها مائة وأربعون عيناً ، فعجز عن الإجابة ، وأخذت جبته، وقالت :

الآية التى فيها ثلاث عشرة كافاً هى آية الدَّيْن فى سورة البقرة ، والآية التى فيها ست عشر ميماً، هى قوله تعالى فى سورة هود : يانوح اهبط بسلام منا . . . والآية التى فيها مائة وأربعون عيناً قوله تعالى : واختار موسى قومهُ سبعين رجلاً لميقاتنا . . لأنَّ لكل رجلٍ عينين .

ثم شَهِدَ لها القارئُ بالفضل والمعرفةِ .

وتقدم الطبيبُ فقال :

أخبرينى عن خلق الإنسان وآدم .

خلق آدم من تراب ، وسمى آدم لأدمتِهِ أى سُمْرة لونه ، أو لأنه خلق من أديم الأرض ، وكان الإنسان نُطفة فى قرار مكين ثم كان علقةً فمضغة فعظماً ، ثم كسا الله العظم لحما ثم سواه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

كم فى رأس ابن آدم من بطن ؟

ثلاثة بطون مشتملة على خمس قوى تسمى الحوَاس الباطنية ، وهى: الحس المشترك والخيال والمتصرِّفة والواهمة والحافظة .

أخبرينى عن عظم الإنسان .

رأسٌ وجذع وأطرافٌ ، ويشمل الرأس الجمجمة والوجه ، ويشمل الجذع العمود الفقرِى والصدر والحوض ، وأما الأطراف فهى اليدان والرجلان .

ما عروق الجسم ؟

كثيرة لا يَعلم عدَدها إلا الله ، وأصلها الوتين . وقد جُعِلت الرحمة في الكبد ، والضحك في الطحال ، والمكر في الكُلْيَتَيْن ، وجُعِلَت الرئتان مروحة ، والمعدة خزانة ، والقلب عماد الجسم إذا صلح صلحَ الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كلّه .

ما علامات المرض الظاهرة فى الجسم ؟

الحرَارةُ وتعرَف باللمس ، وصفرة العينين علامة اليرَقان ، ونحولُ الظهر دلالة على ذات الرئة .

ما سبب وجع الرأس ؟

إدخال الطعام على الطعَام ، ومن أراد السلامة فليجعَل من بطنه ثلثاً لطَعامه ، وثلثاً لشرابه ، وثلثاً لنفسه .

ما علامة الصفْراء ؟

صفرة اللون ، ومرارة الفم والجفاف ، وضعف الشهوة ، وسرعة النبض ، وتسبب الحمى المحرقة وقُرحة الأمعاء .

ما علامة السوداء ؟

الشهوة الكاذبة ، وكثرة الهموم والهستريا .

متى يشرب الإنسان هنيئاً ؟

إذا شرب بعد الأكل بساعة ، وأن يَمُصّ مصّاً ولا يَعُبّ عبّاً .

ما الطعام الذى لا يورث مرضاً ؟

كلْ طعام يؤكل بعد الجوع ، ولا يملأ المرء منه بطنه ؛ فإن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء .

وما رأيك فى الحمّام ؟

لا ينبغى أن يدخله شبعان .

وما رأيك فى الفاكهة ؟

تؤكل فى إقبالها وتترك متى انقضى وقتها .

وما رأيك فى الخمر ؟

قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنْصَاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وما رأيك فى الحجامة ؟

هى لمن امتلأ جسمه دماً .

ما الشىء الذى إذا غرقَ عاش ، وإن تنفسَ الهواء مات ؟

السمكُ ، فإن حياتهُ فى أنْ يُحْبَسَ فى الماءِ فَإذا خرَجَ منهُ إلى الهواء ماتَ .

أتعرفينَ شجاعاً يبيض ؟

الثعبانُ .

ثم سكتَ الطبيبُ فقالتْ : سَأُلقى عليكَ سُؤالاً واحداً ، فإنْ لم تجبْ عنهُ أخذتُ ثيابك ، فقال : أرجو أن أوفقَ إلى الصواب . فقالت : أخبرنى عن شىء مستدير ، ضئيلِ القدر والقيمةِ ، مقيَّد وهو غير

آبق ولا سارق ، مطعون لا فى قتال ، مجروح لا فى نضال ، مسكنُهُ الأطرافُ فى مساكنِ الأشراف ، فسكت الطبيبُ ولم يُجبْ ، فأعطاها ثيابهُ وقالتْ : إنَّهُ الزرّ والعُروَة .

وتقدم المنجم إليها وسأل : أخبرينى عن الشمس وطلوعها ؟

تطلع الشمسُ منْ منازلَ فى المشرق ، وتغرب فى منازل فى المغرب ، قال تعالى : « فلا أُقسم بربِّ المشارق والمغارب » ، وقال تعالى : « هو الَّذى جعلَ الشمسَ ضياء والقمرَ نورًا وقدرَه منازل لتعلمُوا عدد السنين والحساب » .

أخبرينى عن الكواكب السبعةِ وعن البروج .

أما الكواكب فهى عطارِد والزهرة والمريخُ والمشترى وزُحَل ، ونبتون وأورانوس ، وأما البُرُوج فهى : السَّرطان والحمل والثور والجوزاء والأسد والسنبلةُ والميزان والعقرب والقوسُ والجدىُ والدلوُ والحوت .

ثم أراد المنجم أن يعجزها ويفحمها فسألها :

يا جارية ، هل ينزل هذا الشهرِ مطرٍ ؟ فأطرقت ساكتةً حتى ظُنَّ أنها عجزتْ ، ثم قالت : لقد أبان هذا السائل عن جهله ، ولو حفظ القرآن ما سألنى هذا السؤال ، ولعرف أن خمسةً لا يعلمها إلا الله تعالى ؛ ثم قرأت قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيثَ ويعلمُ ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدرِى نفسٌ بأى أرض تموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ » .

ثم أطرق المنجم ساكتاً ، فقالت له : ما أقسام النجوم ؟ فلم يجبْ ، فأخذت ثيابه .

وتقدم الفيلسوف فسأل :

ما الدهرُ ؟

ساعاتُ الليل والنهار ، وهيَ مقاديرُ جَرَى الشمس والقمر فى أفلاكها ، قالَ تعالى : « والشمسُ تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم » . « لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمر ولا الليلُ سابق النهار وكلٌّ فى فلك يسبحون » . ويطلقُ الدهرُ على الله ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تَسُبُّوا الدهر فإن الدهرَ هو الله » .

أخبرينى عن خمسة أكلوا وشربوا وما وُلِدُوا ولا خرجوا من ظهر ولا بطن .

فأجابته :

آدم وشمعون وناقة صالح وكبش إسماعيل والطير الذى رآه أبو بكر فى النار .

أخبرينى عن أربع فى الجنة لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة .

فأجابته :

ذئب يعقوب ، وكلب أصحاب الكهف ، وناقة صالح ، وحمار العزير .

أتعرفينَ رجلاً صلَّى لا فى الأرض ولا فى السماء ؟

سُليمان عليه السلام صلَّى على بِسَاطه والريح تحمله .

أخبريني عن رجل حَرمَت عليه أمَةٌ في الصبح ثم حلَّت له في الظهر ثم حرمت عليه في العصر ثم حلت له في المغرب ثم حرمت عليه في العشاء ثم حلت له في الصباح .

رجلٌ رأى أمةَ غيره في الصبح فهي حرامٌ عليه ، ثم اشتراها في الظهر فحلَّت له ، ثم أعتقها في العصر فحرمت عليه ، ثم تزوجها في المغرب فحلَّت له ، ثم طلقها في العشاء فحرمت عليه ، ثم راجعها في الصباح فحلَّت له .

هل تعرفين قبراً مشى بصاحبه ؟

حُوت يونس عليه السلام حين ابتلعه .

ما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرّةً واحدة ولا تطلع عليها مرةً أخرى إلى يوم القيامة ؟

قاع البحر الذي ضربه موسى بعصاه فانفلق .

هل تعرفين شيئاً يتنفس بلا روح ؟

قال تعالى : « والصبح إذا تنفس » .

كم عدد حمام طائر ، حَطَّ بعضهُ فوق شجرةٍ ، وحطَّ بعضه الآخر على الأرض تحت هذه الشجرة ، فقالت حمامةٌ من اللاتي حطَطْن فوقَ الشجرة للحمام الذي حطَّ على الأرض تحتها : إن طلعت واحدةٌ منكنَّ إلينا فوق الشجرة كان عددُنا ضعف عددِكنَّ ، وإن نزلت حمامة منّا

إلى الأرض كان عددُنا يساوى عددكنّ ؟

الحمامُ كله اثنتا عشرة حمامةً ، حطّ فوق الشجرة سَبعٌ ، وحطّ على الأرض خمسٌ .

فأطرق الفيلسوف ثم قال : هــذه ثيابى فخذيها ولا داعى لأن تسأليني .

وتقدم عالم آخر فسألها :

ما أوّلك ؟ وما آخرك ؟

أولى التراب وأخرى التراب .

ما شىء أوله عدم وآخره روح ؟

عَصا موسى عليه السلام حين ألقاها فإذا هى حيّة تسعى بإذن الله تعالى وقدرته .

أخبرينى عن أنثى من ذكر وذكر من أنثى .

فقالت : حواء من آدم ، وعيسى من مريم .

أخبرينى عن نار تأكل ولا تشرب ، ونار تأكل وتشرب ، ونار تشرب ولا تأكل ، ونار لا تشرب ولا تأكل .

نار الدنيا تأكل ولا تشرب ، ونار الشمس تشرب ولا تأكل ، ونار جهنم تأكل وتشرب ، والقمر لا يأكل ولا يشرب .

ما الشىء الذى يمشى صامتاً متكلماً ؟

القَلَمْ .

ما شيء لهُ لحمٌ وليس له دمٌ ولا ريش ، يؤكل مطبوخاً ومشوياً ، له لونان أحدُهما كالفضة والثانى كالذهب ؟

البيضة .

أخبرنى عن آكلةٍ من غير فم ولا بطن ، إن أنت أطعمتها انتعشت ونمت ، وإن أنت سقيتها ماتت .

إنها النـار .

خليلان محرومان من اللذة ، يحفظان الناس من كل آفة ، يبيتان متعانقين ، وعند طلوع الصبح يفترقان ، فما هما ؟

إنهما مصراعا الباب .

ذات ذوائب تجرُّها من خلفها ذاهبةً جائية ، لم تذق عينها طعم النوم ، ولم تذرف دمعةً فى حياتها ، عارية وتكسُو الناس فما هى ؟

إنها الخياط « الإبرة » .

ما الشيء الذى له لذةٌ أحلى من الشهد ؟

الابن الناجب البار بوالديه .

ما شيء أقطع من السيف ؟

اللسان .

ما شيء أسرع من السم ؟

عين الحسود .

ما الحق الذى لا ينكره صاحب الباطل ؟

الموت .

ما الذى يجعل المرء فى عذابٍ كعذاب القبر ؟

الابن الفاسد .

ما موت الحياة ؟

الجهل .

ما الدّاء الذى أعيا صاحبه ؟

سُوء الخلُق .

فسكت ثم أعطاها ثيابه .

فأعجب الخليفة بها وقال : أتعرفين لُعبة الشطرنج ؟

فقالت : حيا الله أمير المؤمنين ، نعم ، أعرفها وأجيدها ؛ فأحضر لها الشطرنج وتقدم إليها أحد الماهرين فيه فغلبته مرّتين ، وفى الثالثة قالت له :

سألعب معك هذه المرة من غير « فرس » وَزير ورُخّ أيمن وفرَس أيسر ، فلعب معها وهو على يقين أنه غالبها ، ولكنها أبطلت يقينه وغلبتهُ .

ثم أحضر الخليفة آلات الطرب فأسمعته ما أثلج صدره وأنعشه ، فقال لها :

بُورِكَ فيك ، ورحم مَنْ علّمك ورباك ، وأعطى سيدها مائة ألف دينار ، والتفت إليها قائلاً :

اطلبي مني ما تشائين .

فقالت : أرجو أن تردّني إلى سيدى أبي الحسن .

فزاد ذلك في إعجابه بها ، وردّها إليه ومنحها خمسة آلاف دينار ، وجعل سيدها نديمه ، وأجْرى عليه كل شهر ألف دينار .

وعاشت مع سيدها في أرغد عَيشٍ وأهنئه ، وعرف لها سيدها وفاءها له ، وحرصها عليه ، كما شكَرَ للخليفة سابغ نعمته وجزيل عطـائه .

DATE DUE

15 JUL 2006
Circulation Dept. 5

JAFET LIB.
29 FEB 2000
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
30 JUN 2000
Circulation Dept.

30 JUN 2001
Circulation Dept. 4

14 FEB 2005
Circulation Dept. 5

JAFET LIB.
31 JAN 2005
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
14 FEB 2005
Circulation Dept. 5

JAFET LIB.
- 4 MAR 2005
Circulation Dept. 1

24 OCT 2005
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
- 1 OCT 1978

892.73:A38aLA:v.7-8:c.1
برانق، .محمد احمد
الف ليلة وليلة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01055938